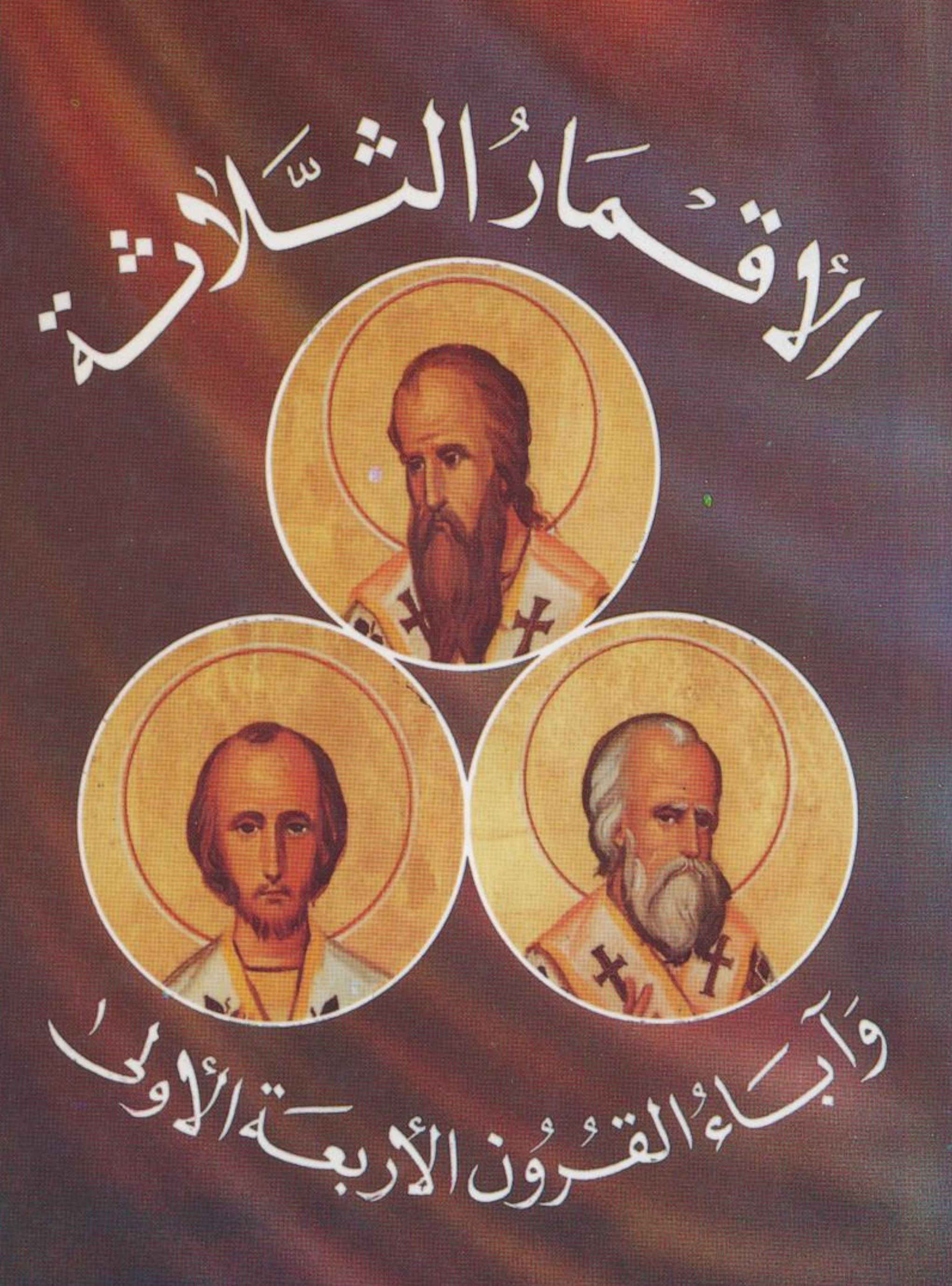
إيمّا غريّب خُوري

الأقمارُ الثلاثة



وآباءُ القرونِ الأربعةِ الأولى

منشورات النُّور

الأقمار الثلاثة
وآباء القرون الأربعة الأولى

ايما غريب خوري

منشورات النور
١٩٩٤

الإهداء

الى زوجي
الدكتور ميشال باسيل خوري
وأبنائي
باسيل وحنّا وايلي - غريغوار

أشكر كل الذين اشتركوا معي من أجل إخراج هذا الكتاب وأخص بالذكر رازق أنتيبا مصمم الغلاف وايلي عبيد وأديب بطحيش

المقدمة

لماذا اخترت بالضبط هذا العنوان، ومن هم الآباء الذين نعتتهم الكنيسة بـ«الأقمار الثلاثة»؟ ندعوهم هكذا لأنهم من أبرز آباء الكنيسة الشرقية في القرن الرابع، وهم كالأقمار يعكسون نور الرب بتعاليمهم وقداستهم.

يجهل هويتهم الكثير من المؤمنين. إنهم: باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم. تسميهم الكنيسة معلمي المسكونة، وهي تُعيّد لكل واحد منهم بمفرده. إلّا أنه منذ القرن الثاني عشر وتحديدًا سنة ١١٠٠م. في أيام الأمبراطور ألكسيس كومنينوس، أصبح لهم عيدًا مشتركًا في ٣٠ من كانون الثاني، مع الاحتفاظ بالعيد المنفرد لكل منهم. كان عهد هذا الامبراطور عهد ازدهار من بعد فترة انحطاط، اذ رفع شأن الدولة البيزنطية مهتمًا بشؤون الكنيسة ومشجعًا الأديرة والرهبان.

يبدو أنَّ هؤلاء الآباء الثلاثة أثاروا اهتمام المؤمنين حتى من بعد ثمانية قرون، فقد انقسم الشعب احزابًا متحمسين للواحد منهم ضد الآخر بشكل عنيف. احتدّ النضال وعنف جدًّا، فارادت الكنيسة، ممثَّلة بأحد اساقفتها الأتقياء ان تضع حدًّا لهذا الصراع، لذلك اقترح ان يجعل للثلاثة عيدًا مشتركًا، وقد استند في ذلك إلى رؤيا في منامه: فقد رأى الآباء الثلاثة الأجلاء، قادمين اليه وقائلين: «جميعنا متساوون أمام الله في الكرامة والرتبة، فلا داعي للخلاف بينكم». بهذا التدبير، وبفضل حكمة الأسقف عاد السلام يعمّ الكنيسة.

وقد رتَّب خدمة العيد المتوحِّد يوحنا مڤروبوس، الذي رُفع فيما بعد إلى رتبة الأسقفية. أما ترتيلة العيد فتصف بوضوح هؤلاء الآباء:

«هلموا بنا لنلتئم جميعًا، ونكرِّم بالمدائح، الثلاثة الكواكب العظيمة، للاّهوت المثلّث الشموس، الذين أناروا المسكونة بأشعّة العقائد الإلهية، أنهار الحكمة الجارية عسلاً، الذين روَّوا الخليقة كلها بمجاري المعرفة الإلهية، أعني بهم باسيليوس العظيم، وغريغوريوس المتكلّم بالإلهيات، مع يوحنا المجيد الذهبي اللسان، لأنهم يتشفعون إلى الثالوث على الدوام، من أجلنا نحن المحبين أقوالهم»

هذا الكتاب هو في الواقع مجموعة حلقات دراسية أُلقيت في بيت «حركة الشبيبة الأرثوذكسية» بيروت (الأشرفية) في شهر شباط ١٩٩٢، انه تعريف عن آباء الكنيسة وشهدائها في القرون الأربعة الأولى، ضمن بيئتهم التاريخية والسياسية والاجتماعية. وقد اعتمدت طريقة النص ثم الدراسة لكي يستطيع القارىء أن يتعرّف على أسلوب كل كاتب وبالتالي على شخصيته. إنه توطئة لمن أراد ان يتعمّق في الأدب الكنسي. وقد أشرت في دراستي هذه إلى بعض آباء الغرب الذين لهم طابع شرقي في لاهوتهم أمثال كبريانوس القرطاجي الذي تعمقت في دراسته.

أيقونات الشهداء تثبت ايماني بأن هذه القافلة الصامتة من الذين قدّموا دماءهم شهادة للمسيح هم في الواقع أعمدة الكنيسة وأسسها. فكما ان الآباء قدّموا عملهم وعظاتهم ومؤلفاتهم من أجل ترسيخ تعاليم الأنجيل ونقل نبراس البشارة، كذلك الشهداء ساهموا بتقديم آلامهم وعذاباتهم واستشهادهم، كذبيحة ذكية تعالت كالبخور أمام الرب.

ايمّا غريّب خوري

الفصل الأول

تعريف عن آباء الكنيسة

هذه الحلقات الدراسية لا تعطي في الواقع إلا فكرة وجيزة عن آباء الكنيسة، غايتها رسم صورة شاملة للقرون الأربعة الأولى للمسيحية. سنحاول أن نتعرّف، بعرض سريع، على أبرز الاسماء التي طغت في تلك الفترة، ثم فيما بعد، سنتوقف عند الآباء الأكثر أهمية مخصّصين حلقة كاملة لكل منهم.

من هم آباء الكنيسة؟

إن آباء الكنيسة هم كتّاب وأدباء، مفكّرون ولاهوتيون، يتميزون باستقامة الرأي والحس الكنسي الأصيل. رافقوا نشأة الكنيسة، سهروا على شؤونها، مارسوا التعليم والوعظ والتأليف. همّهم نشر البشارة وشرح الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد. معظمهم كانوا من الاكليروس اهتموا برعاياهم، جاهدوا لفرض الحقيقة، البعض الآخر قدّموا حياتهم ذبيحة لكي تنتصر وتبرز إلى حيِّز الوجود. تألموا، اضطهدوا، استشهدوا محبةً بالحقيقة وبالمسيح... لماذا ندعوهم آباء؟ بالضبط لأنهم، بطريقةٍ ما، ساهموا في ولادة الكنيسة. المجتمع حيث نشأت المسيحية كان تحت وطأة تيارين هامين: الفلسفة والوثنية، وتيار ثالث لا يقل أهمية عنهما الا وهو تيار الدين اليهودي. أما سياسيًا فكان الحكم معاديًا

للمسيحية: في البدء ظهرت هذه العداوة بموجات من الاضطهادات تجتاح الشعب المسيحي فتحصد الكثير من المؤمنين. وقد وصف وقائعها بدقة مؤرخ الكنيسة المعروف افسافيوس القيصري. أما بعد تنصر الدولة فلم تفتر الاضطهادات، بل ظهرت من نوع آخر في موجة من الهرطقات هزّت العقائد من أساسها، واخطرها كانت الآريوسية التي تنفي الوهية المسيح. وهذه الظاهرة الأخيرة كانت أخطر من الأولى اذ نخرت الكنيسة في أسسها ومسّت الايمان في أعماقه.

بفضل هؤلاء الرجال العظام دُرس الكتاب المقدس بدقة، تأسست الطقوس، نظمت المؤسسات الدينية، صيغت العقائد في أطر ثابتة، وصلت البشارة الى الوثنيين، قومت الاعوجاجات اللاهوتية، برزت التعاليم المسيحية بقالب يتناسب مع الجو الهيلليني المنتشر آنذاك في العالم الروماني المتحضر. التاريخ الكنسي يسميهم أيضًا حكماء وخاصة في الغرب، مثلا كيريللوس بطريرك الاسكندرية* دعي «حكيم الكنيسة» والحكيم هو من أضاف على كل هذه الصفات التي ذكرنا العلم والثقافة وسعة الاطلاع. مؤلفات الآباء تأصلت في الكنيسة على ممر العصور وسلطتها ازدادت من جيل الى جيل حتى أصبحت مرجعًا مهمًا في مختلف الميادين. نحن لا ندرس أدبًا كنسيًا عندما ندرس الآباء، انهم ليسوا فقط أدباء بالمعنى العام للكلمة وان كانت مؤلفاتهم تتحلى بميزات أدبية رائعة. إنهم يكتبون من أجل هدف معين وهو الدفاع عن عقيدتهم لأنهم حريصون على تعاليم المسيح التي وصلت إليهم بواسطة الرسل. إنهم يعتبرون انفسهم مستودعًا أمينًا للحقائق المسيحية التي ورثوها عن أسلافهم ويريدون أن يبلغوها بصدق إلى الأجيال الآتية. إنهم اذن رسل الكلمة الالهية. لا يفتشون عن الأمجاد الدنيوية ولا يبتغون جمال التعبير. العلم والفصاحة والادب، كلها وسائل من أجل الوصول إلى

---

* أوائل القرن الخامس.

الهدف. وان وجدت فهي تأتي كنتيجة حتمية. هم يعتبرون أنفسهم المعلمين الشرعيين للبشارة. يأخذون على عاتقهم استمرار التيار الرسولي في الكنيسة في أي ظرف ومكان وجدوا، يواجهون المعضلات على ضوء نور المسيح ويعطون الحلول المناسبة التي ترضي ضمائرهم غير مبالِين بالجاه والمال لأنهم يتغذون بخبز الكلمة فقط.

على أي مقياس نستطيع ان نقوِّم مؤلِّفًا أو رجل كنيسة فننعته بأحد آباء الكنيسة؟ لكي يفوز بهذا اللقب ينبغي أن يكون مؤمنًا مصليًا، ساهرًا على مصلحة الجماعة، ان يعلّم بتعاليم مستقيمة تتوافق مع التقليد الكنسي القديم، ان تكون حياته قدوة للجميع، ان يكون حسن السلوك وان تنطبق أقواله على سيرته، وأخيرًا أن يترك مؤلفات لاهوتية قيّمة تأتي بشيء جديد في تطور الكنيسة، وفي بيئة وظروف معينة، ان يتخذ مواقف جريئة أمام السلطة المدنية. يوجد قديسون في الكنيسة ولكنهم ليسوا من آبائها، الراهب انطونيوس الكبير مثلاً. كما أن بعض الآباء علّموا وألّفوا ولهم كتابات قيّمة ولم يرتقوا الى درجة القداسة، اوريجنس مثلا. فالآباء اذن هم تراثنا الاصيل والقاسم المشترك للكنائس جميعها. فاذا تكلمنا على وحدة الكنائس وسعينا من أجل تحقيقها علينا أن نلجأ لهؤلاء الآباء المشتركين لنغبّ من مناهلهم.

الآباء الرسوليون*

إنهم الآباء الذين عاشوا ما بين القرن الاول في أواخره حتى النصف الأول من القرن الثاني، وهم التلاميذ المباشرون للرسل او لتلاميذهم. بالنسبة للقيمة الادبية، قد تكون مؤلفاتهم أقل اهمية من مؤلفات اباء القرون اللاحقة، انما قيمتهم الحقيقية ترتكز على عنصر هام وهو ان أقوالهم هي الصدى المباشر للتعليم الرسولي، والحلقة الثابتة التي تؤلف صلة الوصل بين الرسل والاجيال التي أتت من

* من أراد مزيداً من المعلومات عن آباء القرون الثلاثة الأولى عليه أن يلجأ الى الدكتور أسد رستم: اباء الكنيسة ـ منشورات النور.

بعدهم. يتميز أسلوبهم بوفرة الاستشهادات الكتابية من العهدين القديم والجديد ومن رسائل بولس، وكأنّ انشاءهم منسوج بها نسجًا، أخص بالذكر اقليمس اسقف روما في رسالته الى الكورنثيين، ورسائل اغناطيوس. والمثير الاهمية هو أنهم يوردون أحيانًا عبارات استقوها من التقليد الشفهي الذي وصلهم على هامش التقليد المكتوب. هناك وثيقة مهمة وصلتنا من العصر الرسولي بعنوان «تعاليم الرسل الاثني عشر» تعطينا المعلومات الثمينة عن الحياة الكنسية واسرارها في القرون الأولى.

أهم هؤلاء الآباء هم: اقليمس اسقف روما ـ بوليكاربس اسقف ازمير ـ هرماس مؤلف كتاب «الراعي» واغناطيوس الحامل الاله وسنتكلم عليه مطولاً بعد انتهاء هذا العرض العام. عاش هؤلاء الآباء في بيئة اجتماعية معينة اثرت على مؤلفاتهم وفرضت عليهم اسلوبًا محددًا. فالقرن الثاني هو عصر صراع بالنسبة للمسيحية الناشئة. الدولة قاومتها بعنف: الامبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨) الذي اشتهر بشراسته بحسب شهادة ترتوليانوس الكاتب المسيحي، حرّم رسميًا الدين المسيحي ومنع ممارسته. في عهد تراجان الامبراطور اقتيد المئات من المسيحيين الى حلبة الاستشهاد بشتى الوسائل وكانت كل مظاهرة شعبية تنسب لتحريض مسيحي. أما التيارات الفكرية فكانت منوعة ومؤذية، فـ«الغنسطيّة» مثلا نزعة فلسفية تعبّر عن مجهود فكري يريد تحويل المسيحية إلى فلسفة دينية ويعطي للاسرار شرحا فلسفيًا أعمق من الايمان على حد تعبيرهم. أما الكلمة بمعناها الحرفي فهي مشتقة من كلمة يونانية تعني «معرفة» لأن المعرفة تحل محل الايمان بالنسبة للغنسطيّة ولذلك نلاحظ في صلوات الميلاد ترداد كلمة معرفة «ميلادك ايها المسيح الهنا قد اطلع نور المعرفة في العالم...» كانت هذه البدعة منتشرة في سوريا ومصر وامتدت فيما بعد إلى الأمبراطورية كلها مقاومة الدين المسيحي. أما الخطر الآخر الذي كان يتهدد المجتمع المسيحي فكان يتمثّل بجماعة تيار مسيحي ـ يهودي judo-chretien المتمثّل بالذين بقوا على ممارسة

العوائد اليهودية متمسكين بناموس اللاويين، يقيمون العبادة في هيكل اورشليم رغم اعتناقهم الدين المسيحي. هؤلاء كان ينعتهم بولس الرسول بـ «إخوة كاذبين». ولن نعدد التيارات الأخرى وكانت عديدة إلا انها أقل ضررًا من هاتين البدعتين. فنلاحظ إذاً أن أدب الآباء الرسوليّين له طابع دفاعي بسبب البيئة العدائية التي عاشوا فيها.

الآباء المناضلون

أما أهم الآباء الذين مثّلوا هذا الأدب الدفاعي فهو الشهيد يوستينوس Justin الذي عاش في أوائل القرن الثاني واستشهد حوالي السنة ١٦٥ في روما، في عصر كانت الدولة تجعل من الانتساب إلى المسيحية جريمة ضد الديانة الرسمية وعظمة الأمبراطور وتعتبر الدين الجديد كتهديد لسلطة روما على العالم، كان من المفروض أن يدافع المسيحي عن نفسه ويوضح معتقداته ويرد التهم الموجهة إليه.

لم تكتب الكنيسة الاولى لاهوتاً في بدايتها بل كانت تعيش هذا اللاهوت روحيًا من خلال التقليد الرسولي ومن وحي تعاليم المسيح. خلال القرن الثاني الميلادي بدأت تظهر ملامح بعض اللاهوتيين امثال يوستينوس. انطلق من تفكير شخصي فأعدّ اطرا للعقيدة تتوافق مع الفكر الفلسفي او بالحريّ مع الهيكلية الفلسفية المنتشرة آنذاك. هذا التطور لم يكن ممكنًا الا تحت تأثير الذهنية الاغريقية ومفهومها للمنطق مع ثقافتها الواسعة النطاق. لا عجب من ذلك فقد تركت المسيحية وطنها الام المتمثل باليهودية الفلسطينية لتترعرع في احضان الامبراطورية الرومانية. كان لا بد بالتالي ان تلبس حلة تليق بهذا الجو الثقافي لكي تشقّ طريقها وتفرض وجودها. كان ينبغي ان يتقبل الفكر المسيحي هذا الميراث الاغريقي من الداخل لكي يتحقق هذا التفاعل.

هذا ما حاول ان يصنعه يوستينوس. كان فيلسوفًا اصله من

فلسطين، كـان ينتمي إلى بيئة وثنية، فتّش عن الحقيقة عند مختلف المدارس الفلسفيـة ولم يقتنـع بـأي مـذهـب فلسفي الى أن تعـرّف على المسيحيين وأُعجب بشجاعتهـم في مجابهـة المـوت، لا بـل احتقـارهـم البطـولي للمـوت والاستشهـاد. ذهـل بمـا يتحلّـون بـه مـن صفـات في محبتهم بعضهم لبعض ومحبتهم لأعدائهم ومسامحة مبغضيهم وصبرهم على الشدائد. واعجب بنقاوة قلوبهم وصدقهم وطهارتهم الجسدية وعفتهم. هذه الامور جعلته يعترف بتفوق الدين المسيحي على سائر الاديـان. فـأخـذ يـدرس الكتـاب المقـدس ويتعمـق فيـه معتمـدًا على الفلسفة والمنطق. اعتنق الدين المسيحي وتمَّ اهتداؤه في أفسس ثمّ لبس معطف الفلاسفة اليونانيين وأخذ يسافر كمعلّم متنقل حتى وصل إلى روما حيث أسس مدرسة وكثر التلاميذ حوله. دافع عن المسيحيين فكتب عريضة حتى للأمبراطور انطونيوس بيوس يتوسل فيها من أجل المسيحيين الذين كانوا يضطهدون ظلمًا. ترك دراسات قيمة في شرح الكتاب المقدس واتى تعليقه عليه جميلاً، لأنه علاوة عـن إيمـانـه كـان يتحلى بحـدة ذكـاء ومنطـق سليـم وثقـافـة واسعـة، وسمّـى المسيـح «لـوغـوس» الـذي مـن فيضـه وجـد الكـون، مـردِّدًا «ان المسيحية هي الفلسفة الوحيدة الثابتة والمفيدة التي اكتشفها»، إلا أن هذا الموقف الجريء أدى به الى الإستشهاد فختم تعليمه بشهادة الدم.

كتاب «أعمال القديس يوستينوس ورفاقه» وهو مؤلف يُعد من أهم مراجع الكنيسة الأولى، ينقل كيف تمّ استجواب هذا القديس والتقرير الـرسمي الكـامـل عـن الحكـم الـذي أصدرتـه المحكمـة ضـد يوستينوس أهم الكتّاب المناضلين الشرقيين في القرن الثاني.

رُمي هذا الفيلسوف الشهير في السجن مع البعض من رفاقه بأمـر مـن حـاكـم رومـا وذلـك على عهـد الأمبراطـور مارك ـ أوريل. وكان نص الحكم كما يلي: «كل إنسان لا يقدّم ذبيحة للآلهة ولا يخضع لأوامر الأمبراطور يُضرب بالسياط ثم يساق لكي يُقطع رأسه بحسب القانون».

أهم كتاباته التي وصلتنا هي التالية:

«مقالان في الدفاع عن المسيحيين» ومؤلف عنوانه «الحوار مع تريفون»، وتريفون هذا ربما كان معلمًا يهوديًا يحاوره يوستينوس لكي يثبت ماسيانية المسيح ولكي يقنعه بالدين المسيحي وحقيقة رسالته، ومؤلف بعنوان «القيامة» لم يبق منه سوى مقتطفات قليلة.

الفصل الثاني

اغناطيوس الانطاكي

مقتطفات من رسائل اغناطيوس الأنطاكي المتوشح بالله

نصائح الى أسقف

«أرجوك، بالنعمة التي تتوشحها، أن تسرع الجري لتحضّ الجميع لكي يصيروا مخلّصين. برّر سموك بنشاطك الجمّ جسديًا وروحيًا، واهتمّ بالوحدة التي تسمو على كل الخيرات. احتمل الجميع كاحتمال الرب لك، واحملهم بمحبة كما تفعل. أشغل وقتك في الصلوات الدائمة، زد حكمتك واسهر بروح لا تعرف الرقاد... لا تهمل الأرامل، أنك مدعو بعد المخلّص للاعتناء بهنّ. لا شيء يجب أن يتم بدونك، كما انك لا تفعل شيئًا بدون الله. كن ثابتًا. لتكن الاجتماعات متواصلة. أدع الجميع بأسمائهم... كن ثابتًا كالسندان تحت المطرقة. المصارع العظيم هو الذي برغم ثقل الضربات يغلب. يجب علينا أن نحتمل كل شيء من أجل الله حتى يحتملنا هو.»

من الرسالة الى بوليكاربوس

نصائح الى الرعية

«عليكم أن تكونوا برأي واحد مع أسقفكم، الشيء الذي تفعلونه. ان مشيختكم المحترمة جديرة بالله ومرتبطة مع أسقفها ارتباط الأوتار بالقيثارة، لذلك، بتنافسكم وباتفاق المحبة، بيسوع المسيح، يرتفع المديح والتمجيد. ليدخل كل واحد منكم في هذا الجوق لكي تتوّحد نغماتكم، فتأخذوا طابعًا إلهيًا وترتلوا بصوت واحدٍ بيسوع المسيح، المدائح للآب الذي سيسمعكم ويعرفكم من أعمالكم الصالحة انكم أعضاء في ابنه. من

المفيد أن تكونوا في وحدة لا تشوبها شائبة حتى تكونوا في وحدة دائمة مع الله... صلّوا بلا انقطاع من أجل الآخرين لأنكم تقودونهم الى الرب على رجاء التوبة. افسحوا لهم في المجال ليتثقفوا في مدارس أعمالكم. واجهوا غضبهم بالوداعة، وتبجّحهم بالدعة، وشتائمهم بالصلاة، وضلالهم برسوخ الايمان، وفظاظة أخلاقهم بدماثة الطبع. ولا تردّوا لهم شرهم بشرّ... حاولوا أن تكثفوا اجتماعاتكم لتقدموا شكركم وتمجيدكم لله، لأن قوى الشيطان تضمحلّ وقدرته تنحلّ أمام اتفاق ايمانكم!...»

من الرسالة الى أهل أفسس

صرخة الشهيد

«اني أكتب الى الكنائس كلها لأعلن لها اني أموت بمحضِ اختياري من أجل المسيح، اذا لم تمنعوني على الأقل! اني أضرع إليكم راجيًا أن تضعوا عاطفتكم جانبًا لأنها لا تفيدني. اتركوني فريسةً للوحوش! انها هي التي توصلني سريعًا الى الله. أنا قمحٌ لله أُطحَن تحت أضراس الوحوش لأُخبَزَ خبزًا نقيًا للمسيح. أغروا الوحوش لتصير قبرًا لي فلا تترك شيئًا من جسدي... أضرعوا الى المسيح حتى يجعل من الوحوش واسطةً لأكون قربانًا لله! أنا آمركم كبطرس وبولس، انهما رسولاه أما أنا فمُدان. هما حرّان أما أنا فلا أزال حتى الآن عبدًا. لكن الموت سيجعلني معتقًا بيسوع المسيح وسأقوم معه حرًا! اني أتعلم الآن، وأنا مقيد بالحديد، أنْ لا اشتهي أي شيء...»

من الرسالة الى أهل رومية

ما هي هذه الصرخة المثيرة الآتية عبر الأجيال، في غمرة عشق إلهيّ؟ انها تهزّ كياننا بصدقها، وتترك في نفوسنا انطباعًا عميقًا من فرط حرارتها وشعلة حماسها! انها صرخة الشهيد الذي يرجو رعية روما ألّا تقف حجر عثرة أمام استشهاده. لا يريدهم أن يتوسطوا لدى عظماء العالم من أجله. الشهادة بالنسبة إليه باب لتحقيق الوصال. انه يتكلم على جسده وكأنه غريب عنه. صرخته نابعة من القلب ومتجهة مباشرة إليه. محبته للمسيح متأججة في داخله، وكأن المشقات التي يتحمّلُها والتي سوف يتحمّلها لا تمسه ولا علاقة له

هكذا استشهد اغناطيوس الانطاكي

فسيفساء تعود الى القرن الثالث



أسد يفترس رجل حي (متحف سوفيا)

أنظر ص ١٥

بها، يتجاهلها لأن السعادة تنتظره. إنه واثق بأنّ الموت ولادة وتقرّب من النور. إنه أسير المسيحية، المقيد بالسلاسل، المنطلق نحو الاستشهاد بغبطة وسرور، الحامل همّ الرعية التي «اقتُلع» منها وهمّ الرعايا التي صادفها أثناء طوافه من مدينة لأخرى، ناصحًا، راشدًا، بمحبة وتواضع. نادرًا ما نصادف في تاريخ المسيحية شخصية مثله متجردة عن الحياة، لهذه الدرجة. انه إغناطيوس الأنطاكي ثالث أساقفة انطاكية. انه الأسقف والراعي الحقيقي الساهر على الرعية. لم يتربّع على كرسي بطرس وبولس آمرًا ومؤنبًا بل كان يملي النصائح بكل حنان ووداعة، دون أن يجرح القارئ أو السامع. خلاصة تعليمه: «حيث يوجد الأسقف هناك تكون الكنيسة». ومنذ ذلك الحين وضعت أسس الأسقفية. ها هو ذاهب الى الموت برفقة الشهيدين روفوس وزوسيموس.

إنه اغناطيوس الأنطاكي المدعوّ «ثيوفوروس» أي «حامل الإله». أكان حاملاً للإله أم اللهُ حاضِنُه، إنه بلا شك في صميم فؤاد الله. إنه الذبيحة في بهاء من النور. إنه الخبز الذي يعود الى مائدة الرب. لم يكتب إلا سبع رسائل ولكنه خطّها بالدم والألم.

رسائله

تعبّر رسائله عن شكر وإرشاد. كتبها الى كنائس أفسس ومغنيسية وترالّلس وروما وفيلادلفيا شرق الأردن حاليًا وازمير وأخيراً الى بوليكاربوس أسقف ازمير. اغناطيوس هو نهاية الرسل وبداية الآباء. هو الذي أسس هيكل الكنيسة بالنسبة للمراتب الإكليريكية، وأول من تكلم على الأسقف والكاهن والشماس، وجعل كل رتبة تحت إمرة الأخرى ولكن «إمرة المحبة» لا السلطة، وهنا تبرز عظمة اغناطيوس.

من يقرأ رسائل اغناطيوس يُذهل لتلك الشخصية الجذّابة، الملتهبة شوقًا للمسيح وكنيسته. انها فيض من المحبة: المحبة المؤدِّبة

بلطف، الرقيقة برصانة، الحساسة بصلابة. كتب أو بالحري استكتب (لأنه مقيّد بالسلاسل) ليؤدي مهمة رعائية لأنه قلق على كنيسة تركها بدون راع، ليقوّي في الايمان كنيسة تعرّف عليها خلال تطوافه. انه يمثل الألوف من الشهداء الذين قدموا حياتهم ذبيحة على مائدة الرب لكي تتأسس الكنيسة. اغناطيوس ترك وثيقة كتبت باخلاص وبساطة، ولذلك شكّل استشهاده أكبر حادث في القرن الثاني وأمجده. رسائله تفوح بالسكون والسلام، لا اضطراب فيها ولا خوف من الموت. الرجل الذي لا يهاب الموت رجل عظيم، والذي لا يخاف من الاستشهاد أعظم، وأما الذي يذهب إلى الاستشهاد بفرح وشوق فهو معجزة النعمة الإلهية حتمًا! غريزة التمسك بالحياة متأصلة في المرء، والخوفُ من قفزة الموت نحو المجهول أمر طبيعي، ولكنّ اغناطيوس تجاوز هذا الشعور، ساعده على ذلك حبه للمسيح. المسيحية عنده تعلُّق بشخص المسيح لا بدساتير جافّة ولاهوت معقّد وتحديد ايمان كلامي! ايمانه حيٌّ والمسيح فيه حيّ، وكأني به ينتظر بغبطة لحظة هجوم الوحوش عليه بأنيابها الحادة وأظافرها المسنونة لتأكل لحمه! مرض بسيط يكفي لكي يرمي بصاحبه في عالم من اليأس والقنوط والأنانية، فتنصبّ كل حيويته وهمّه الى شخصه منحصرة في دائه وسبُل معالجته. الشجاعة أمام الموت أمر نادر، أقوياء العالم ينهارون أمام المرض والموت، أما اغناطيوس فكان يستقي شجاعته من ايمانه بالمسيح وشعوره العميق بأن المسيح يملأ كيانه. رؤية الوحوش وراء قضبان القفص، وحدها، تكفي لتثير الهول والرعب في النفوس فكم بالحري الشعور بأنها بعد لحظات سوف تنقضّ على الانسان لتفترسه؟ اغناطيوس رائع في جرأته، لا يبالي بشقائه، يستفيد من مسيرته الطويلة المرهقة، مع حرس يُشبّههم أيضًا «بالفهود» لشراستهم، ليتفقّد الكنائس ويرشدها ويهديها الى الطريق القويم ويلحم انشقاقاتها. هنا تبرز شخصية الأسقف، لا بل يبرز البطريرك الجليل الذي يرعى الأسقف والرعية. قلبه الفائض محبة، النابض رأفة، الذائب تماماً من أجل الآخرين،

الساهر على المؤمنين، يحب دائمًا. انشغاله بكنيسة انطاكية التي تركها يتيمة جعله يحث كل كنيسة بأن تصلي من أجلها، لأنه كان يخاف عليها من الهرطقات التي تهزّ الكنيسة وتزعزع أبناءها. كان المؤمنون، حيثما مرّ، يهرولون لملاقاته مستفيدين من اشراقه، شاعرين بأنه دعم لايمانهم وان السلاسل لم تخفّف من جلاله وقوة وفائه. وهكذا تحوّلت محطاته عبر آسيا الى وقفات تعليمية رعائية.

اغناطيوس أسقف مقيد بسلاسل، سائر وسط حراس شرسين يجرّونه وكأنه المسيح على طريق الجلجلة، مجرد من كل مجد دنيوي ولكن النور يشعّ من وجهه، لا يأبه بالألم والاستشهاد الآتي.. وفود من الكنائس يتهافتون لاستقباله أينما حلّ ليستنيروا من قوة ايحائه وايمانه الثابت. لم يكتب مؤلفات في اللاهوت. شخصه كله يفوح لاهوتًا وعقائدَ وايمانًا وتصوفًا. انه، من بعد استفانوس الذي قتل رجمًا، من أعظم شهداء الكنيسة الرسولية لا محال. تواضع عميق، محبة طافحة، رحمة حميمة، تسامح نبيل، عشق الهي، هكذا نحدّد تلك الشخصية الفذّة من خلال رسائله التي تكوّن «درّة الأدب المسيحي».

اسقف انطاكية

بسبب مقتل الشهيد استفانوس تشتّت المسيحيون من أورشليم، ورحلوا الى فينيقية وقبرص وانطاكية وبشّروا بالمسيحية، وخصّوا اليهود فقط بالكرازة. وأرسل برنابا من أورشليم الى انطاكية لتعزيز الكنيسة، خاصة وأنّ بعض الوثنيين دخلوا في الديانة الجديدة. ولما رأى برنابا التقدم الكبير للتبشير الرسولي في انطاكية انتقل الى طرسوس في طلب شاول فجاءا معًا الى انطاكية وكرزا بالرسالة مدة سنة كاملة عام ٤٣ على الأرجح (أعمال ١١: ٢٠-٢٧). ويروي القديس يوحنا الذهبي الفم، في المقالة الثلاثين من شرح الرسالة الى أهل رومية، ان المنزل الذي كان بولس يقيم فيه يستقبل ويجالس

ويحاضر ويحاور، كان باقيًا حتى أيام الذهبي الفم أي في القرن الرابع. هذا الأمر أثّر على اغناطيوس الذي كان دائمًا يستشهد ببولس في رسائله. وفي انطاكية دعي أتباع الديانة الجديدة الذين كانوا يسمون «جليليّون»، مسيحيين لأول مرة (أعمال ٢٠ـ٢٧). هذه هي كنيسة انطاكية. فكانت «أمًا للكنائس» التي من الأمم الوثنية. ومن أجل ذلك انعقد المجمع الرسولي الأول برئاسة يعقوب الرسول لحل مشاكلها. وبعد ذلك توجّه بطرس أيضًا الى انطاكية، وحصل خلاف بين بطرس وبولس لأن بولس أراد أن يحرّر المسيحيين نهائيًا من اليهودية، بينما بطرس كان يسير على سياسة المداراة والتحفظ (غلاطية ٢:١١ـ٢١). وأقام بطرس في انطاكية عاملاً على ترسيخ المسيحيّة وتوطيدها، ولذلك يعتبر بطرس وبولس معًا مؤسّسَيّ الكرسيّ الرسوليّ الأنطاكي. وكانت كنيسة انطاكية تعتبر الرسول بطرس أسقفها الأول، ولذلك اغناطيوس يُعتبر الثالث من بعد «أفوديوس». وفي هذا الصدد يقول الذهبي الفم في مديح شهيدنا العظيم اغناطيوس «وكأني به (المسيح) جعل مدينتنا في كفة ميزان والعالم كله في كفة أخرى... لأن امتياز مدينتنا على كل المدن قائم على اتخاذها، من الأصل، هامةَ الرسل معلمًا وراعيًا للمدينة التي دُعي فيها المسيحيون أولاً بهذا الاسم الشريف...» وكانت انطاكية مدينة مهمة جدًا على حدّ قول ليبانيوس المؤرخ: «أية مدينة تضاهيها؟ فهي أسعد المدن القديمة وأعظمها حجمًا وأوفرها ذوقًا وعمرانًا، وأوسعها تنويرًا، وأمنعها أسوارًا، وأجودها مناخًا في الصيف والشتاء... وأرقاها فكرًا وفلسفةً، وأنجبها في الثقافة اليونانية وعدد الكتّاب». وكانت تسمّى المدينة «العظمى» لأنها كانت عاصمة آسيا الفكرية كما ان أثينا كانت عاصمة الغرب. فهاتان المدينتان هما مشعلان ينيران القارتين معًا، بينما الاسكندرية كانت عاصمة الفكر في القارة الأفريقية. أما في القرن السادس فتغير اسمها لكثرة الزلازل التي كانت تهزّها فدعيت «ثيوبوليس» أي مدينة الله. ولذلك أخذت اسمها الخالد: **انطاكية مدينة الله العظمى**.

الراعي المثالي

اغناطيوس سوريّ الأصل، في الأرجح، هيلّيني الثقافة، ولد وثنيًا حوالى سنة ٣٥. اهتم اغناطيوس بادارة كنيسته، كما ذكر المؤرخون، فوّحد صفوفها وحرص على السلطة الرعائية فقوّاها ونادى برسالة واحدة وكنيسة واحدة في العالم أجمع. كان، اذًا، أول من استعمل اللفظة اليونانية «كاثوليكي» مشيرًا الى كنيسة المسيح بمعنى «الكنيسة الجامعة». لم يروِ التاريخ بوضوح ما هي الظروف التي دعت الى الحكم عليه بالاعدام. مما لا شك فيه أن استشهاده يندرج ضمن سلسلة الاضطهادات التي عصفت بالكنيسة في مطلع القرن الثاني عندما تولّى ترايانوس الأمبراطور أو «طراجان» والذي حكم ما بين ٩٨ ـ ١١٧. وكان هذا الحاكم من أفضل المدبرين للامبراطورية الا انه كان مضطهدًا للمسيحيين لأنه نظر إليهم طبعًا، بصفته وثنيًا، نظرة ريب. لذا ولأجل حفظ الهدوء في الدولة حدد سنة ٩٩ القانون الذي يمنع الجمعيات السرية. وهذا القانون مسّ المسيحيين قبل غيرهم، لأن الانتساب الى المسيحية جريمة ضد الدولة تستحق العقاب. ومن جملة الذين استشهدوا في أيام ترايانوس كلمنت Clément أسقف رومية وقديسنا المتوشح بالله الذي أرسل من انطاكية الى روما وطرح فيها لتمزقه الأسود في المسرح. وكما بدا لنا إغناطيوس من خلال رسائله، فانه كان يتحلّى بشجاعة فائقة، قد قبض عليه إما لأنه كان يبشّر بالمسيح جهارةً غير مبالٍ بأمر السلطة، أو لأنه كان يدافع عن رعيته. اننا لا ندري بالضبط لماذا. كل ما نعلم انه وصل الى اكليل الشهادة وانه في طريقه اليه كان يرعى الكنائس ويوجّهها، وانه وصل الى روما واستشهد في ٢٠ كانون الأول بين ١٠٧ و١١٧. خلال أعياد الختام، وهي أعياد وثنية يلازم الاحتفالات بها الفلتان الأخلاقي والبهجة. «فتقاطر الرومان الى مدرج فلافيانوس الذي عرف باسم «كوليسيوم» فيما بعد، ليحتفلوا بانتصارات ترايانوس في منطقة داقية المعبرَّ عنها بالمجالدات الدموية

والمصارعات بين المجرمين والوحوش، فعُرِّيَ القديس الوقور من ثيابه وطُرح الى الوحوش فمزقت جسده الطاهر والتهمته. ولم تُبقِ مِن عظام جسمه إلا العظام الخشنة. فجمعها المؤمنون الرومانيون بكل احترام وأرسلوها الى انطاكية حيث دفنت خارج السور بالقرب من باب دفنة. وبقيت هنالك حتى أيام ايرونيموس. ثم تحول هيكل فورتونة في قلب انطاكية الى كنيسة مسيحية، فنقل الامبراطور ثيودوسيوس الصغير (٤٠٨-٤٥٠) رفات القديس الى هذه الكنيسة وأطلق عليها اسم الشهيد البار تخليدًا لذكراه». (أسد رستم: آباء الكنيسة).

هذا هو اغناطيوس كما تجلّى أمامنا من خلال رسائله، مجاهدًا في سبيل الرب، يغمره وجود المسيح لدرجة ان جسده أصبح ثقلاً عليه لأنه يمنعه من الاتحاد العميق بالمسيح. الموت عنده غياب عن الأرض واتحاد بالله. مسيحيته مرتكزة على عنصرين أساسيين: الايمان المعيوش والمحبة، مع العطاء الجزيل الذي لا حدود له.

ولكن توقه الى الموت واحتقاره لشخصه لم يوّلدا عنده الخمول بل كان نشاطه يزداد كلما اقترب من الاستشهاد، لكي يؤدي بأمانة رسالته الأرضية. محبته للمسيح تبرز أمامنا وكأنه يرى رؤيا، كأن السيد ماثل أبدًا أمامه ليقوّيه ويبثّ فيه القدرة على تحمّل العذاب. معرفته للمسيح هي كمال الايمان فهي من نطاق التأمل الصوفي. قدم حياته قربانًا معجونًا بدم الشهادة.

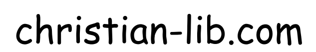
المتوشح بالله

اغناطيوس أتى من الوثنية الى المسيحية. كان اللقاء مع سيده لقاء حب لا قياس له، فائق الوصف. كانت شخصية المخلّص تلبسه الى درجة انه شعر بنفسه متوشحًا بالله. لم يعرف المسيح مباشرة ولكنه استنار من الانجيل ومن الرسل الذين كانوا لا يزالون في حرارة الروح القدس وضياء القيامة. رسائله ليست خيالية،

ومجموعاتُها موجودة في ثلاث فئات قصيرة وطويلة ومختصرة. ويؤكد المؤرخ أسد رستم ان القصيرة هي الأصيلة وقد حفظت في مخطوطة يونانية قديمة تعود الى القرن الثاني ولكنها لا تشمل الرسالة الى الرومانيين. أما تلك الأخيرة فأقدم النسخ التي تحفظ لنا نصَّها تعود الى القرن العاشر. عاش هذا القديس في مدينة تاريخية عظيمة وكان فيها جالية يهودية مهمة. ولذلك كانت مهمته أن يخفف من وطأة الخلاف القائم بين المسيحيين الأمميين، أي من أصل وثني، وبين المسيحيين المتهودين أي من أصل يهودي. ولذلك فعندما تسلم عصا الرعاية التفت الى ادارة الرعية فوّحد صفوفها. ولعله هو الذي أدخل تراتيل المزامير أثناء الخدمات في كنيسة انطاكية كما يظن المؤرخ أسد رستم.

تعلق اغناطيوس بالسيد يترك في النفوس المؤمنة انطباعًا مؤثرًا. تمسكه بإيمانه جعله يشعر بأن سلاسله هي درره الروحية مع أنها أداة عذاب وقهر فيقول في رسالته إلى أفسس:

«سلاسلي هي درري الروحية، عسى أن أبعث بها يوم القيامة بجاه أدعيتكم».



الفصل الثالث

ايريناوس أسقف ليون

١٤٠ ـ ٢٠٢

مقطع من كتابه: شرح البشارة الرسولية

قاعدة الإيمان

«هذه هي قاعدة إيماننا، هذا هو أساس صرحنا، هذا الذي يعطي رصانة لسلوكنا:

أولًا: إن الله الآب كائن غير مخلوق، غير محدود، لا منظور، إله واحد، خالق للكون: هذا أول بندٍ من إيماننا.

ثانيًا: كلمة الله، يسوع المسيح، ابن الله هو سيدنا: لقد أُعلن عنه للأنبياء بحسب نوعية نبوءاتهم وبموجب تصميم الآب. بواسطته كل شيء كان. أما في آخر الأزمنة، ولكي يعيد النظر في كل الأشياء، فقد تنازل، وتأنس، وأصبح إنسانًا بين البشر: منظورًا، ملموسًا، لكي يستطيع هكذا أن يتغلب على الموت، ويبرز الحياة، ويحقق المصالحة بين الله والخليقة.

ثالثًا: الروح القدس: به نطقِ الأنبياء، ومنه آباؤنا تعلموا الأشياء المختصة بالخالق، وبفضله أقتيد الأبرار في طريق الحق. في آخر الأزمنة انسكب على البشرية بطريقة جديدة، لكي يصلحها على الأرض، وذلك من أجل الله.

لذلك، نعتبر أن المعمودية هي ولادتنا الجديدة المركّزة على هذه الثلاثة البنود المذكورة، وهي أن الله الآب منحنا هذا السر المقدس بناءً على تجددنا في ابنه الوحيد وبواسطة الروح القدس. فالذين يحملون في

داخلهم الروح القدس يُجتذبون نحو الكلمة، أي الإبن، والإبن يقودهم حتمًا نحو الآب. أماالآب، فيعطيهم عندئذٍ نعمة عدم الفساد. إذًا، بدون الروح القدس لا مجال لمعاينة كلمة الله، وبدون الكلمة لا نستطيع أن نتقرب من الآب، لأن معرفة الآب هي بالضبط في الإبن، ومعرفة الإبن تحصل بواسطة الروح القدس. أما الإبن فيهب الروح القدس بمقتضى مشيئة الله الآب.

بفضل الروح القدس، إذًا، الله الآب يُسمَّى عظيم الجلالة، ضابط الكل، رب القوات؛ كما اننا، نحن المؤمنين، نتوصل به إلى معرفة الله أي نعلم يقينًا أنه موجود وانه خالق السماء والأرض وكل الأشياء، كما انه مبدع للملائكة والبشرية. ونستوعب أيضًا، بوضوح، انه هو السيد الذي، بفضله، أتت كل الأشياء إلى الوجود وان من لدنه تصدر كل الموجودات، هو الغني بالرأفة والصلاح والنعمة والبر. الرب هو اذن إله الجميع: إله الوثنيين واليهود كما أنه إله المؤمنين. بالنسبة للمؤمنين، يتصف بالأبوة لأنه، في آخر الأزمنة، اقام عهدًا بتبنّيهم. بالنسبة لليهود، إنه يُعتبر السيد والمُشرِّع إذ في الأزمنة الوسطى، بينما كان العالم قد نسيه وابتعد عنه متمردًا عليه، شاء أن يُخضع الشعبَ اليهودي للشريعة معلمًا إياهم أن لهم سيدًا خالقًا ومبدعًا، قد وهبهم نفحة الحياة، ولذلك ينبغي أن يعبدوه باستمرار. أما بالنسبة للوثنيين، فالله يُعتبر كذلك الخالق والمبدع والمعلم الفائق. أما بالنسبة للجميع قاطبةً فالله هو الأب المعيل، والملك العادل، والحَكَمُ في كل شيء. لا يستطيع أحد أن يتهرب من حُكْمِهِ: وثنيًا كان أم يهوديًا، خاطئًا كان أم مؤمنًا أو حتى روحًا ملائكيًا. والذين يرفضون الإعتراف بصلاحه أو لطفه، ففي يوم الدينونة العظيم سيتعرفون على قوته كما ورد في رسالة الرسول القديس (رومية ٢ : ٤-٦).

هذا هو إذن الرب الذي يُدعى في الشريعة إله ابراهيم واسحق ويعقوب، إله الأحياء. أما عظمة جلاله فتفوق كل وصف».

نلاحظ من خلال هذا النص أن المؤلف يركز الإيمان القويم على الثالوث القدوس، محاولاً أن ينورنا إلى وجود الثلاثة الأقانيم وكيانهم والعلاقة المتبادلة بينهم، مشددًا على اشتراك المؤمن في الحياة

الثالوثية، وطريقة تأثيرها الفعّال في العالم. ايريناوس، كاتب هذه السطور، عاش في القرن الثاني، في مدينة ليون في غالية (فرنسا الحالية). إنه شرقيٌ، بشّر في الغرب، فكان لكتاباته الطابع الخاص. في عصره برزت ظاهرة جديدة في الفئة المثقفة التي تلقت البشارة المسيحية، تميل إلى شرح الإيمان بطريقة شخصية تثير الالتباس وتجعل المسيحية كأية حكمة إنسانية أو فلسفة عادية. ولذلك شعر ايريناوس أن من واجبه كأسقف، وبصفته مسوؤلاً، أن يعرض، التقليد الصحيح الموروث عن الرسل، بوضوح وحزم وتفصيل، فشرح ذلك في كتابه الذي اقتبسنا منه هذا النص. أما هذا الكتاب فبقي مجهولاً إلى حين اكتشافه سنة ١٩٠٤. وهذا النص يحلّل لاهوت الثالوث ويدخلنا في سره بطريقة رائعة، يعيش في إطاره ويدعونا للمشاركة.

الشيء الملفت في هذا النص أنه يذكّرنا جدًا بدستور الإيمان الذي وضعه مجمع نيقيا، أول مجمع مسكوني سنة ٣٢٥. ثم أن المؤلف يقسم الزمان إلى أربعة أقسام: **بداية الأزمنة** أي الخلق، **الأزمنة المتوسطة** أي فترة شريعة موسى والعهد القديم، **آخر الأزمنة** أي زمن التجسد (الذي يسميه بولس الرسول «ملء الزمان») **ونهاية الأزمنة** أي يوم الدينونة. ونلاحظ أيضًا أن المعمودية، بالنسبة لإيريناوس، تحتل المركز المتميز، فهي عمدة الإيمان، وهي التي تهبنا الولادة المجددة والمعرفة الحقيقية وعدم الفساد، وبها نندرج في مسلسل تاريخ الخلاص ونستوعب ترابط حلقات الحوادث التي حصلت منذ الخلق حتى التجسد الخلاصي. من هو ايريناوس؟

حياته

يظهر لأول مرة في التاريخ حوالي سنة ١٧٧ في مدينة «ليون» الفرنسية الواقعة على «نهر الرون»، هذا النهر الهائج الذي يصبّ في البحر المتوسط فيجذب الغرب نحو الشرق. كان حينئذٍ كاهنًا في الكنيسة التي رعاها الأسقف «بوتين» مؤسس تلك الأبرشية الناشئة.

ثم يرسل، فيما بعد، بمهمة دقيقة إلى روما وبتوصية خاصة من أعيان المدينة. يوصف بـ «الكاهن المملؤ غيرةً وحماسًا للسيد...». ويبدو أن وجوده في روما خلّصه من الإضطهادات التي تفشّت في غيابه في ليون وجوارها (سنة ١٧٧ـ١٧٨) والتي ذهب ضحيتها الأسقف القديس «بوتين». والظاهر أن إيريناوس كان يتمتع بشهرة إذ ذاك ويشغل منصبًا هامًا في الرعية، حتى أنه، ما إن عاد إلى كنيسته، مضمِّدًا جراحاتها التي حصلت من جراء الإضطهادات الشرسة، حتى وقع الإختيار عليه ليحل مكان الأسقف الراحل ويملأ المنصب الشاغر على مدينة ليون وجوارها.

أصله من الساحل الآسيوي، تلك البقعة من الأرض الأغريقية منذ زمن، من مدينة «أزمير» حيث إكتشف منذ نعومة أظافره نقاوة الأنجيل وشفافيته، والذي طبَعَهُ بطابعٍ لا يمحى. كان سميعًا لتلاميذ الرسل المباشرين، ومنهم الأسقفُ الشهيد بوليكاريس الذي كان هو بدوره تلميذًا ليوحنا اللاهوتي التلميذ الحبيب. هذا يفسر لنا استنفاره كلما حصل تحوير للإيمان المستقيم. هذه المعلومات تجعلنا نحدد تاريخ ولادته ما بين ١٢٥ ـ ١٤٠ ، وإرساله إلى غالية من قبل الأسقف بوليكاريس نحو سنة ١٧٧ .

لا نملك المعلومات الكافية عن وجوده في «أزمير». وبما أنه لا يتكلم كثيرًا على نفسه في مؤلفاته، فلم يصلنا عن حياته إلاّ النتف المبعثرة. ولكن بوسعنا أن نكتشف شخصيته من خلال كتاباته. فهي تبرز قوية مميزة مرتكزة على إرادة قوية. أما الذي يميز شخصيته فهو تعلقه بالتقليد الأصيل النابع من الرسل والمكتسب من احتكاكه العميق بالأسقف بوليكاربوس ومحبتِه للكتاب المقدس الذي كان يعرفه على أكمل وجه، ويستشهد به دائمًا، وطبعًا إيمانهِ العميق الصلب الذي يكلل كل صفاته ويتوّجها. علينا أيضًا ألاّ ننسى مدى ثقافته: نشتمّ من مؤلفاته أنه كان يطالع المؤلفين القدامى الأغريق من أدباء وفلاسفة. وبكلمة فإنّ الكاتب المسيحي ترتوليانوس وصفه بـ«أنه إنسان رائد يحبّ الإطلاع، توّاق إلى التعرف على كل المذاهب».

اهتم ايريناوس خاصة بدراسة الهرطقات ليتمكن من دحضها بقوة وجسارة، وتأمين الانتصار الأكيد للتعليم القويم. ولذلك كانت محاربة البدعة الغنسطية شغله الشاغل. مثّل إيريناوس أيضًا دورًا هامًا في النزاع الذي كان دائرًا حول تاريخ عيد الفصح، وهذا ظاهر في الرسالة التي أرسلها إلى البابا فيكتور (١٨٩ـ١٩٨)، وكان قد قام قبله بمبادرة مماثلة الأسقف بوليكاربس ولم يتوصل إلى نتيجة. فقد كان يُعيَّد لعيد الفصح في كنائس آسيا الصغرى في الرابع عشر من نيسان أي مع اليهود وفي أي يوم يقع، بينما الغرب كان يعيِّد له إلزامًا يوم أحد. وكلا الكنيستين تستند إلى تقليد قديم متبع في كلّ منهما. تلك المراسلة تثبت لنا أن الكنيسة الرسولية كانت كنيسة جامعة، وإن أساقفتها كانوا يتعاملون بروح الأخوة والمشاورة المتبادلة.

أما تاريخ وفاة إيريناوس فيرجح انه في السنة ٢٠٢. وكانت سنواته الأخيرة تحت وطأة الألم لأنه شاهد مدينته المحبوبة منهوبة ومهدمة لأسباب سياسية بأمر من الأمبراطور «سبتيموس شيڤيريوس» سنة ١٩٧. أماّ الرواية التي تخبر بأنه مات مستشهدًا فهي، بحسب أغلبية المؤرخين وعلى الأرجح، غير صحيحة.

مؤلفاته

البحث الذي يشغل المكان الأول بين مؤلفاته هو كتاب في خمسة مجلدات. هذا الكتاب مهم بمضمونه، ومعروف بأسم «ضد الهرطقات»، وهو محفوظ في الترجمة اللاتينية إلى زماننا الحاضر. يفند إيريناوس في هذا الكتاب الطرق الغنسطية ثم يدحضها مستمدًا البراهين من الكتاب المقدس.

أما البحث الآخر، وقد اكتشف مؤخرًا، فهو «شرح البشارة الرسولية». إنّه بحث لاهوتي في الإيمان المسيحي والثالوث والعقائد. وتظهر لغته، من خلال مؤلفاته، لغة بسيطة. أسلوبه تعليميّ جافّ،

رتيب، بلا رونق إجمالاً، وإن تلون من حين إلى حين. أما عبارته فهي غنية، ولهجته أبوية، وقد تعنف وتغضب أكثر من مرة. المؤلف نفسه يقرّ بهذا الأمر، معتبرًا أنه لكثرة أستعمال اللغة السلتية - البربرية مراعاةً لمتطلبات عمله الرعائي، نسي لغته الأم، أي اليونانية، ولم يعد يكتبها بأناقة كما كان ينبغي أن يفعل.

عقيدته

تأثير إيريناوس كان مهمًا في عصره لأنه هو الذي قتل البدعة الغنسطية في صميمها، وأسّس اللاهوت المسيحي موطدًا إياه على أساسين هامّين: الكتاب المقدس والتقليد الرسولي. لن ندخل في تفاصيل تلك الهرطقة التي كانت تفتك في بلاد غالية وإيطاليا والشرق طبعًا حيث نشأت، وإنما نكتفي بالقول إِن كلمة «غنوسيس» في اليونانية تعني معرفة. فالغنسطية تدّعي أنها تحوز المعرفة الحقيقية. ولكنّ هذه المعرفة في الواقع خليط غير منسجم من العناصر الوثنية واليهودية والديانات الشرقية وخصوصًا ديانة زورواسترا، زد على ذلك خلاصة من الأفكار الفلسفية المختلطة، ممزوجة بالأساطير والخرافات. ثم أخذت تعلل كل الأمور الماورائية على طريقة خاصة محرِّفة المبادىء المسيحية، مثيرة البلبلة في صفوف الكنيسة الفتيّة. فهؤلاء الغنسطيون كانو يشوّهون الحقائق، ويبثون الأكاذيب في أذهان المؤمنين مزعزعين عقائدهم، مما أثار غضب إيريناوس وجعله يدافع عن الدين المسيحي بحرارة ومنطق سليم، مؤكدًا أن الكنيسة وحدها هي التي تعمل على شرح المعطيات الإيمانية لأنها تقبلت إنسكاب الروح القدس الغزير: إنها تحفظ الحقائق وتنشرها وتقوّم كل أعوجاج يحصل. وهكذا باشر إيريناوس تلك الحملة الإصلاحية في داخل الكنيسة، فطهّرها من تلك الهرطقة بكتاباته وعظاته وسلوكه.

أما بالنسبة لوالدة الإلّه فيعتبر إيريناوس ان لمساهمتها الدور الفعّال في العمل الخلاصي؛ إذ، بعد أن يبرز مقارنة بين آدم الأول

وآدم الثاني، ينطلق في مقابلة بين حواء ومريم وينعت عمل حواء بالمشؤوم ويقارنه مع عمل مريم الإصلاحي. ويسمي مريم حوّاء الثانية، فيقول: «مريم حلّت العقدة التي حصلت من جرّاء غلطة حواء: الأولى قاومت أمر الله، والأخرى خضعت له. حواء سمعت كلمة المجرب أما مريم فقد أرهفت السمع إلى كلمة الملاك. الجنس البشري الذي قُضي عليه بالموت بسبب إمرأة، أصبح في طريق الخلاص بفضل إمرأة أخرى».

روحانيّته

يعتبر إيريناوس من الآباء الشرقيين وإن عاش في الغرب. لا إدّعاء في تعليمه بل بساطة الإيمان. لم يأت من الوثنية الحاملة معها التساؤلات والشكوك، إنما ترعرع في جوّ مسيحيّ أصيل مفتخرًا بكونه تلميذ الرسل، الأمين على الوديعة المكتسبة من التعليم الرسولي. لم يكتب إلاّ لأبناء الكنيسة. إهتداء الوثنيين لم يكن همه. لم يتميز بالتضلع ولم يبرع بفكره المبدع ولكن نظرياته الدينية أصيلة، واضحة، تعرض بحرارة وعمق ورصانة، وتقدم بحماس وإقناع. إنه مثال للراعي الصالح ذي الضمير الحي، الساهر على رعيته والمدافع النشيط عن تعاليم الكنيسة. العصور اللاحقة اعتبرته الشاهد الحقيقي للتعليم الرسولي في زمن صعب وكثير العثرات. المسيحية في أيامه، وإن انتشرت بسرعة، إنما بقي وجودها غير مستقر بسبب أحتكاكها مع العالم الوثني الغريب والمعادي. الحقائق الإيمانية كانت معرضة للتزوير والتدمير أحيانًا، ولذلك كانت بحاجة لدفاع نشيط وفعال لتثبيت تعاليمها.

ترجمة أسم إيريناوس هي «السلام» وكان، فعلاً، محبًا للسلام رغم محاربته البدع التي كانت تلتف حول الكنيسة كالطفيليات لتأكلّها وتزعزع أساساتها. إنه أول الآباء الشرقيين لأنه يتحلى بخصال المؤسسين المبشرين، المناضلين الصابرين، المثابرين المجاهدين. أتانا بفيض النور الذي شعّ من المسيح فأنار الرسل

وأنتقل إلى تلاميذهم. إنه سلف الآباء الشرقيين. قبله لم يبن أحد من الكتّاب المسيحيين لاهوته على الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. إيريناوس يعلم أن للنصوص الكتابية أهمية بالغة، وهي ثابتة لا يمكن تعديلها، على أن تُشرَح وتفسَّر ضمن التقليد الأصيل الذي تمتدّ جذوره إلى المسيح. إن إيريناوس ممهد للعصر الآبائي الذهبي اللاحق. تُرجمت كتاباته إلى اللاتينية ثم إلى السريانية والآرامية. أدرك إيريناوس التجسد بطريقة رائعة. وإنّ أجمل ما كتَب عن الكلمة المتجسد يوجز بالآتي: «كلمة الله صار إنسانًا، جاعلاً نفسَه شبيهًا بالإنسان والإنسان شبيهًا به، لكي يصبح هذا الإنسان ثمينًا بنظر الله لمشابهته بابن البشر... وهكذا فالشبه الأصلي مع الخالق يُجدَّد نهائيًا، فيصبح الإنسان مشابهًا للآب غير المنظور من خلال الكلمة الذي أصبح منظورًا... لكي نستعيد بالمسيح ما خسرناه بآدم: ذلك الإنسان الذي خلق على صورة الله. فكلمة الله صار إنسانًا لكي يستطيع الإنسان أن يدخل في الشركة مع ابن الله الوحيد».

الفصل الرابع

اقليمس الاسكندري

الاسكندرية، تلك المدينة المتدفقة بالحياة، الواقعة على دلتا النيل ذلك المرفأ المطل على البحر المتوسط، كانت في القرن الثاني للميلاد مركز فكر وازدهار، ثقافة وفلسفة علم وأدب. العديد من الفلاسفة، بنزعاتهم المختلفة، أنشأوا فيها مدارس مهمة. في جوّها المتيقظ كان لا بد للفكر المسيحي من ان يكون ممثلاً خير تمثيل ومحتكًا بهذه التيارات جميعها. أحد هؤلاء المفكرين الذين برزوا في مدينة الاسكندرية، كان اقليمس اليوناني الأصل، الذي أمّن، لفترة من الزمن، لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وجودًا رائعًا. وبفضل اندفاعه وحماسه اتخذت هذه المدرسة انطلاقة قوية وتمتعت بصيت لم يسبق له مثيل. الكنيسة اعتبرته من آبائها وان لم ترفعه إلى رتبة القداسة. وجوده في هذا الجوّ الفكري بالذات كان له أهميّة بارزة بالنسبة للمسيحيين، وبفضله اهتدى الكثيرون من المثقفين إلى المسيحية. كان يُحرِّض كل انسان باحثٍ عن الحقيقة على أن يتابع، جديًّا وبصدق، المجهود الفكري والخلقي تحت راية كلمة الله - «اللوغوس» - وبقيادته لأنه هو الحكمة الحقيقية المتجسدة. من جملة ما ألّف هذا المفكر المسيحي، كتاب يدعى «المربّي»، وفيه يظهر المسيح كمعلم سامٍ لكل فكر انساني ساهرٍ على تحقيق الخلاص من خلال الانجيل. وهذه مقتطفات من الجزء الأوّل، الاصحاح السادس، عن المعمودية.

إشراق المعمودية

«منذ اللحظة التي فيها نعتمد، نصبح مستنيرين، والاستنارة تجعلنا أبناء الله. وما إنْ نصبح أبناء حتى نسير في طريق الكمال، وبالكمال الناجم عن هذه المعمودية ننال الخلود. «اني اقول لكم، هذا كلام الرب، انتم آلهة وأبناء العليّ» (مزمور ٨١ ـ ٦).

للمعمودية أسماء مختلفة: تدعى نعمة أو إنارة أو انجاز أو غسل. هي غسل لأننا بها نُطَهَّر من خطايانا؛ هي نعمة لأنها تخلصنا من العقاب الناتج عن أخطائنا؛ هي إنارة لأننا نتأمل النور المقدس ونكتشف الأشياء الإلهية؛ وأخيرًا هي انجاز لأن كل شيء يكتمل بالمعموديّة.

ماذا ينقص، فعلاً، لمن تعرّف على الرب؟ وكيف نستطيع ان نسمي «نعمة الله» شيئًا لا يكون حتمًا كاملاً؟ الرب لا يعطي إلاّ الكمال لأنه هو كامل. وهكذا أيضًا بالنسبة لكلمته الخلاقة؛ يكفي أن يشاء الله اعطاءَ النعمة حتى تتحقق بملئها في اللحظة ذاتها. إرادته جبّارة لدرجة ان الزمن يتقلص. وما إن يتجدد الإنسان بالمعمودية حتى يجد نفسه مستنيرًا، ويصبح محررًا من الظلمات وَوَارِثًا الضياءَ. مثلاً، عندما يخرج المرء من السبات، في الحال يدخل في اليقظة؛ وعندما نمسح الغشاوة عن العين سرعان ما يعود النظر. فحاسّة النظر لم تأتنا من الخارج. كل ما فعلناه لإبرازها هو أنّنا أبعدنا العنصر الذي كان يحجب الرؤية، وحررنا حدقة العين من الحاجب. وهكذا بالنسبة للمعمودية، نحن بها نتحرر من خطايانا التي كانت كالغمامة تحجب عنا الروح الالهي، وها هي مُقْلَةُ روحنا متحررة، منكشفة، مستنيرة، تلك المقلة التي وحدها تخوّلنا تأمل الأشياء الإلهية. أما الروح القدس، الآتي من السماء، فينسكب فينا كبلسم شافٍ، كما من الضياء الأبدي، فنجسر حينئذٍ على تأمّل النور الأزلي.

وكما ان الجهل يُمحى بالخبرة والنقص يزول أمام البَحبوحة، هكذا، حتمًا، فإنّ الظلام يتبدد بالنور. الظلام هو جهلنا الذي يوقعنا في الخطيئة لأننا لا نستوعب الحقيقة. اما المعرفة فهي النور الذي يبدد الجهل فنستطيع هكذا بالاستنارة ان نرى بكل وضوح.

وما إنْ نهتدي رافضين تكبّد أذى خطايانا وأضرارها، نشعر كأننا مطهّرون بالمعمودية ونسرع نحو النور الأبدي كأولاد منطلقين نحو أبيهم.

«وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح وقال: احمدك أيها الآب ربّ السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء واعلنتها للأطفال» (لوقا ١٠: ٢٠). فمُربّينا ومعلمنا يسوع يسمينا «صغارًا» مع أننا مستعدون للخلاص أكثر من نبهاء العالم. فانهم وان اعتبروا أنفسهم حكماء إلاّ أنهم في الواقع لا يعرفون إلا الضلال».

إن هذا المقطع مهم جدًّا، وان كان أسلوبه معقدًا نوعًا ما، لأنه مترجم عن اليونانية، ولأن الأسلوب الفلسفي في القرن الثاني يتصف بالتعقيد والثقل لقارىء القرن العشرين. إنّنا نستنتج منه معلومات عن سرّ المعمودية، وهي ليست معمودية أطفال طبعًا، بل معمودية بالغين مرّوا بطور الموعوظيّة قبل أن ينالوا نعمة هذا السر العظيم. نستطيع أن نوجز هذا المقطع هكذا: المعمودية نور يُؤهلنا لرؤية الأمور الإلهية؛ الروح القدس بلسم روحي مكوّن من الضياء الأبدي، يجعل الروح جديرة بالرؤيا الصحيحة أما هذه العملية فهي فورية وإجمالية لأن عطايا الله كاملة. أما الحكمة الحقيقية فهي إدراك النور المقدّس والمخلّص الذي يبدد غيوم الجهل.

مَن هو اقليمس الاسكندري؟

ان اقليمس، أكثر من آباء الكنيسة كلّهم، أثار آراء مختلفة في شخصه. لقد أتى إلى المسيحية بواسطة الفلسفة. وكانت كلمة فلسفة تحمل له معاني عميقة وغنية. شخصيتُه فذة، وطبيعته متألقة رغم أنها متشعّبة. لا شك في أنه كان انسانًا موهوبًا وذا أخلاق لينة ومرنة. نلاحظ ان كتابته كانت كثيفة إلا انه كان يتحاشى الصيغ المبتذلة والأفكار التافهة. الذي يميزه عن غيره هو أنه لا يبدي

الاستنتاجات الثابتة والنهائية. يبحث، يتأمل، يثير المشكلة ثم يناقش ويجادل طارحًا الاسئلة، حاثًا القارىء على مزيد من التفكير والتساؤل. لقد أتى من العالم الفلسفي، ولكننا نلاحظ بوضوح ان اقليمس هو قبل كل شيء مسيحي قد تشرّب المسيحية حتى الصميم، لقد اختار المسيح - الكلمة وكان اختياره حاسمًا. المسيح ملأ فراغه وأجاب على تساؤلاته وشفى غليله فأصبح لحياته هدف معين: لقد تعهد الخدمةَ أي ان يقود الإنسان إلى المسيح. هذا الأمر كان هاجسه، كما يظهر في مؤلفاته، وسببًا لوجوده. كيف يصل إلى هذا الهدف؟ ما هي طريقته لتحقيق هذا الهدف؟ يظهر انه يؤدي مهمته هذه بكل مرونة وبطريقة مميزة وفريدة، فلا نبرة قاسية وحازمة. في تعليمه رحابة صدر وصبر أكيد. معلوماته واسعة؛ ولكنّ النقاد لم يعتبروه ضليعًا في اللاهوت بالمعنى العميق للكلمة. انه على العموم رجل المناقشة والخبرة الروحية وقيادة النفوس. في عصره كان له التأثير الصالح، أما في العصور اللاحقة فمال اتباعه إلى شيء من الهرطقة، أو، اذا جاز القول، لامسوها ولكن لم يقعوا فيها علانية. كأني بهم اعتمدوا بطريقة لا واعية أفكارًا بعيدة عن الاستقامة، شاذة في بعض نواحيها.

لا نعرف شيئًا مفصلاً عن حياته، يُروى انه ولد في أثينا مدينة العلم والنور، وانه سافر كثيرًا لطلب المعرفة والعلم وللبحث عن معلّم. لا ندري متى وعلى يد من اعتنق المسيحية. كلِ ما نعلمه انه اجتاز كل المقاطعات الناطقة باللغة اليونانية من آسيا الصغرى وسوريا حتى جنوب ايطاليا ومصر باحثًا عن كيفية تكميل ثقافته وتوسيعها. كان هدفه في تنقلاته هذه أن يحظى بالمعلم الصالح. وجده في آخر المطاف في شخص المعلم المسيحي الذي كان يُدَرِّس في مدرسة الاسكندرية وكان يدعى «بانتينوس»؛ وكان هذا الأخير المعلمَ السادسَ ممن صادفهم، فآثره على الآخرين وثبت عليه وبقي يتتلمذ على يده. أما «بانتينوس» الذي كان من صقلّية، فكان أول رؤساء مدرسة الاسكندرية وكان مبشرًا، ووصل في تبشيره حتى حدود الهند.

أُعجب إقليمس بطريقة معلمه في شرح الكتاب المقدس، ولكنْ، للأسف، كان «بانتينوس» يرفض ان يدوّن عظاته اذ كان يكتفي بالتعليم الشفهيّ، ولذلك لم يصلنا شيء عن تعليمه إلا من خلال تلاميذه. إعجابه لمعلمه جعل اقليمس يستقر في مدينة الاسكندرية، محور العلم والثقافة والفلسفة، ليستفيد من تعاليمه فتفاعل مع جوّها، وكان على اتصال وثيق برعيتها المسيحية فأخذ يعلّم فيها. وكان يجيد فن التعليم. هل أوكل اليه ان يعلم الموعوظين كما يزعم البعض؟ ام كان يلقي الدروس على حلقة أوسع؟ لا نعلم بالضبط. يبدو ان مستمعيه كانوا ينتمون إلى مذاهب مختلفة وعقائد منوعة: منهم الوثنيون واليهود والفلاسفة مع المسيحيين طبعًا. ولكن قاسمهم المشترك كان حبّ المعرفة والاستطلاع والتعرف على المسيحية.

لاهوت اقليمس

لقد كان لاهوته قبل كل شيء دراسات كتابية. كانت هذه دعوته ان يدرس الكتاب المقدس ويعلمه. كان رجل حوار لم يتردّد في محاورة الطرف الآخر فكان ليشركه في النقاش. كان يمدّ اليد للجميع ويريد ان يقنع بالبراهين والاثباتات. حارب الوثنية بدون تهجم. حارب الأساطير الوثنية، وهذا لا يعنِ انه لم يتذوقها. كان يميل إلى الحضارات القديمة وعالمها السحري، إلاّ انه لم يبحث عن نشوة الأوهام. كل ما يهمه هو البحث عن الحقيقة. والحقيقة بالنسبة اليه هي معرفة الله من خلال استيعاب كلمته المتجسد. الأدب القديم طبعه حتى كأني به أحيانًا يدعو القارىء إلى سماع قصيدة جديدة بطلها «اورفيوس» جديد آتٍ من صهيون. على كل حال، كان إقليمس يحب الأصالة والصدق ويقول إنّ المظاهر الخارجية لا تُعرِّف بالمسيحي. المسيحية في عرفه ليست ناموسًا ولا وصايا؛ إنها قضية قلب، إنها تشمل الإنسان بكامله. إنها يقين وإيمان. إلاّ أنه لا يميل

إلى التقشف الزائد بل يشدد على البر والسلام ويتمثّل بأقوال بولس الرسول (رومية ١٤: ١٧، ١ كو ٧: ٣١).

لا شكّ في ان الفلسفة طبعت شخصية اقليمس، ولا عجب في ذلك، ففي القرن الثاني الميلادي كانت الكنيسة الناشئة تجتذب المفكرين، ونلاحظ انهم لم يتمكنوا من الانسلاخ عن الفلسفة دفعة واحدة. يفكرون مسيحيًا وينهجون فلسفيًا؛ يختارون العبارات المأخوذة عن الفلسفة لكي يوفّقوا بين الدين والفلسفة. نلاحظ أن هذه النزعة ظاهرة عند اقليمس ففي كتابه «البُسط» ـ وهو عنوان غريب الاّ انه كان شائعًا في الكتابات القديمة، «بُسط» اي جمع بساط ـ نلمح ان المثل الهلّينيّة كانت مسيطرة على الفكر المثقف: «كل جمال أكان هِلّينيًا أم مسيحيًا، له حتمًا خالق واحد هو الله أي الاله الحقيقي» (البُسط ١ و٢٨). فهو يعتبر ان الكتاب المقدس لا يتناقض مع الفلسفة؛ فأنبياء العهد القديم، حسب قوله، كالفلاسفة الكلاسيكيين، طلائع الحقيقة التي سيعلن عنها المسيح. المسيحية وجدها اقليمس دينًا متميزًا يسمو فوق الوثنية حتى التساهل بالأخلاق، واليهوديةِ حيث صرامة الناموس. إنها حياة جديدة منطلقة من كائن جديد. هي كمال كل انسانية وكل دين. هي اكتمال الحياة في الخالق. ولذلك يعتبر اقليمس لاهوتيًا متحررًا ومنفتحًا، فهو لا يعلّم التقشف القاسي بل يرى أن التمتّع المعقول بالخيرات الأرضية مطابق للطبيعة الانسانية وهذا لا يخالف إرادة الله: «لماذا لا نتمتع بها؟ لِمَنْ وجدت؟ أَلَيْسَت للإنسان؟» (المربيّ ٢).

أشهر مؤلفات اقليمس ثلاثة: «التَنْبيه» و«المربيّ» و«البُسط». «التنبيه» كتاب موجّه إلى اليونانيين لاقناعهم بأن التعبد للآلهة والتمسك بالعقائد الوثنية سخف وتفاهة. أما كتاب «المربيّ» ـ والمربيّ هو المسيح طبعًا ـ فهو موجّه للقراء الذين اعتنقوا النصرانية. هذا الكتاب يحتوي على تعاليم اقليمس في اللاهوت المسيحي، فهو يعلّم أن المعلّم والمربيّ، وهو المسيح، الذي يعتمد على المحبة في تربية

ابنائه، يُعالجُ بالحلم أحيانًا والشدّة أحيانًا أخرى لأن الله خيرٌ وعادل في آنٍ واحد؛ والمعلّم الماهر يوفّق بين المكافأة والقصاص. أما من يريد أن يفهم جيدًا اقليمس فعليه ان يقرأ كتاب «البُسط» وهو حياكة أفكار متناثرة في مؤلف ضخم مسهب واسع. في أول نظرة نلقيها عليه يبدو وكأنه مؤلف غريب يسير بدون تصميم، لا ترابط في الأفكار ولا تسلسل في المعاني. في الواقع، هذا الكتاب ينتمي الى نوع أدبيّ كان شائعًا عند الكتّاب القدامى، والمهمّ فيه هو ما أراد اقليمس ان يوصله للقارىء. يريد الكاتب ان يحثّ القارىء على التساؤل وعلى المزيد من الاستفهام؛ يريد ان يدفعه الى التعمُّق في التفكير، موضحًا في مقدمته انه لا يريد ان يرتبط بقواعد ثابتة. وقد يكتفي بقارىء واحد اذا لزم الأمر. لا يبغي كثرة القرّاء. كل ما يريد هو ايصال الايمان، ولكن يريد ان يؤديه بطريقة سهلة بسيطة. المسيحية لا تُعَلَّم هكذا بسهولة، ولا يَستوعبها إلاَّ الذي وصل الى مرحلة النضوج الروحيّ بفعل النعمة الالهية. فالاعلان عنها بطريقة سطحية فيه خطر التدنيس. ولذلك حمل الينا كتابه هذا افكارًا معقدة، متعذرة الحل، لا يستطيع ان يدركه إلا من مرّ بخبرة الكاتب الروحية. على كل حال، فالكتاب، عامّةً، مهمّ ولكن الكتاب، كما عبّر اقليمس، لا يستطيع ان يحل محل المعلم والأب الروحي. الأب الروحي هو الصديق والقائد والمؤدِّب في آن، وهو الذي يقود ابنه في طريق الصلاة والتأمل والتعرف على السيد. فالكتاب وحده، وان كان ذو اهمية فائقة كالكتاب المقدس، فانه لا يؤدّي الرسالة المسيحية ولا يحلّ محلّ المعلم. فالنور الروحي لا يشتعل إلاّ بالنار الحيّة أمّا إذا وصل المرء إلى أعلى درجات المعرفة فحينئذٍ لا حاجة لمعلم، فثمة معلم آخر أسمى من الإنسان هو الكلمةَ المتجسد، النبراس المنير الذي بواسطته يتّصل المسيحي بالله ويصبح خليله. ومنذ هذه اللحظة تتلاشى وطأة هموم الحياة، والأمور الأرضية لا تعود تجتذبه أبدًا. يزدري بها، فهي لن تخيفه ولن تجتذبه بل إنها لن تمسّه قطعًا لأنه مرتبط بالخالق ارتباطًا وثيقًا؛

واذا صحّ القول، فإنه دخل منذ الآن في جوقة الملائكة بتسبيح دائم. اصبحت حياته صلاة مستمرة. اما الله فيستجيب بحنان لهذا التوق المستمر نحوه، والجواب يحضر وان لم تعبرّ عنه كلمات بشرية. هذا هو المثال الأعلى الذي كان إقليمس يريد أن يُبرزه لتلاميذه؛ هذا هو المستوى الفكريّ الرفيع الذي كان يودّ أن يسمو اليه قرّاؤه؛ مما يدلّ على انه كان يتوجّه إلى جمهور مثقّف بنوع خاصّ، وكان يخاطب نخبة من الشعب.

لا نعرف شيئًا عن نهاية اقليمس، والمعلوم انه لم يُتَوَفَّ في الاسكندرية، فقد تركها نهائيًا حوالى السنة ٢٠٢، لكي يهرب على الأرجح من الاضطهادات التي حصلت في عهد سبتيمُس سيفيريوس، وكانت تهدِّد المسيحيين ونشاطهم التبشيري. افسافيوس المؤرخ يؤكد ان اقليمس كان موجودًا، السنة ٢١١، في كبادوكية حيث كان يثبّت المؤمنين في الصلاة والحياة المسيحيّة. ربما ذهب فيما بعد إلى انطاكية. لا شيء ثابت في هذا الأمر. من سلبياته انه ازدرى الرّتَب الاكليريكية أحيانًا، وهذه النزعة يفسرُّها تفوّقُه فكريًا على بعض الكهنة. ولكن الجماعة المسيحية ليست قضية ثقافة شخصية وفكر، إنها قبل كل شيء كنيسة. هذا رأي في اقليمس الاسكندري أرجو أنْ يكشف ولو جانبًا من شخصية هذا المفكّر المتعددة الجوانب.

ولكن هذا لا ينفي أنّ لإقليمس آراء جميلة جدًا في الكنيسة. فهو يعلّم انه لا يوجد سوى كنيسة واحدة جامعة، وهي أمّنا، أمّ وعذراء في آن، تغذّي بلَبن المعرفة الناجمة عن الكلمة الإلهي. وهو يقول ان على المؤمن الاّ يخاف من الهرطقات بل عليه ان يحاربها بإيمان، لأن السيّد تنبأ ان الهرطقة ستزرع مع الحقيقة كالزؤان مع القمح. نفهم من كتاباته أنّ الرُّتَب الكنسيّة الثلاث كانت موجودة في أيامه، وهي: الاسقف والكاهن والشماس. ويعلّمنا أيضًا أشياء مهمة عن الحياة المسيحية في أيامه، ويبرز الكنيسة كدستور ايمان يعترف به كل مؤمن عند الانضمام اليها.

لم يتزوج اقليمس لأنه أحبّ السيد واراد أن يكرّس له حياته.
فقال ان من يبقى عازبًا كي لا ينفصل عن خدمة السيد يكتسب مجدًا سماويًا. وله آراء متميّزة في الزواج وفضائله، فيعتبره عملاً روحيًا دينيًا مقدّسًا. لم يرضَ عن الزيجة الثانية ولو جاءت بعد وفاة أحد الزوجين، لأنّ الموت لا يفرّق ما ربطه الله. وهذه الآراء السامية نقدر قيمتها اذا ما قارنّاها بالفساد الأخلاقي الذي كان سائدًا في الأوساط الوثنية في عصره. هذا هو اقليمس كما يظهر في كتاباته كان هاجسه الدائم السعي إلى المثل العليا التي كانت دائمًا تقود هذا المفكّر الذي أحب المسيحية وأحب المسيح الكلمة الابن الوحيد، والذي كرّس كل حياته من أجله، ولذلك نستطيع أن نعتبره من أهمّ رجالات الفكر المسيحيّ في عصره.

الفصل الخامس

رأي في العلامة أوريجانس*

مقتطفات من عظته حول تجربة المسيح
(العظة الثلاثون حول إنجيل لوقا)

تجربة الخبز

«إن كنت ابن الله قل لهذا الحجر أن يصير خبزًا...» ما هو نوع هذه التجربة أيها الأبناء؟ «فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزًا أفيعطيه حجرًا؟» (لوقا ١١:١١)... إنه المجرب، الخصم الخدّاع والمنافق المحتال الذي يعطي حجرًا عوضًا عن الخبز! أهذا كل ما كان يبتغيه ابليس؟ أن يتحول الحجر إلى خبز لكي يقتات به البشر؟ كلا! يريدهم الاّ يأكلوا خبزًا حقيقيًا بل حجرًا أشار هو إليه بمثابة خبز. أظن أن المجرّب ابليس، اليوم أيضًا، يجدد تجربته هذه ويحث كل واحد منا على أن يلفظ العبارة نفسها «مُر هذا الحجر لكي يتحول خبزًا». أجل، كل التجارب التي يمر بها الإنسان تحمّلها السيد قبله في جسده... ولكن إذا جُرِّب المسيح نفسه فلكي نستطيع نحن أن نتغلّب بواسطة انتصاره قد تبقى كلماتي هذه غامضة بدون مثل حيّ يوضحها: الهراطقة، مثلاً، هم خير تطبيق لهذه الحادثة، إذا رأيتم هؤلاء المضلّين يأكلون أكاذيب مذاهبهم، بمثابة الخبز، فاعلموا أن أقوالهم هي الحجر الذي يشير إليه الشيطان!

ولذلك أيها الأحباء، لنحرص الحرص التام لئلا نأكل حجر الشيطان ظانّين أننا نتغذى بالخبز الإلهي»...

ـ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» ـ

---

*هناك تحفظًا في الكنيسة الارثوذكسية بالنسبة لأوريجانس فهي لا تعده من آبائها بل من فئة الكتّاب الكنسيين. إلاّ أننا لا نستطيع ان نتجاهله نظرًا لأهميته وضخامة مؤلفاته وتأثيره على آباء القرن الرابع وخاصة الكبدوكيين منهم.

تجربة السلطة

«لك أعطي هذا السلطان كله»... هكذا يتوجه ابليس بكل وقاحة إلى السيد، مع انه كان يدرك جيدًا أن المسيح جاء لينتزع منه مملكته، ولكي يسترجع، تحت سلطته الإلهية، الذين كانوا خاضعين لنفوذه الخدّاع... «وضع نصب عَيْنَيْهِ كلُّ ممالك الأرض». لا تظنوا أيها الأخوة، أن ابليس عرض أمام السيد ممالك حقيقية كبلاد فارس وبلاد الهند مثلاً، كلا، لقد عرض أمامه سلطته الذاتية، أي طريقة سيطرته على هذا العالم. سلّط الأضواء على الدعارة كيف ينجرُّ إليها البعض، على حب المال كيف يتسلّط على البعض الآخر، على حب الشهرة كيف تنفخ عواصفها على كل هؤلاء الأسرى لفرط شغفهم؛ عرض أمامه الذين هم رهائن اغراءات الجمال... الخ.

أتريد أن تحكم على كل هذه الفئات من البشر؟ يقول المجرب عارضًا أمام يسوع الجموع التي لا تحصى من الذين كانوا تحت قبضته... وما ان ألقى السيد النظر على هذا المشهد البائس حتى رأى بوضوح مملكة الخطيئة، مملكة الذين استُعبدوا للرذائل والأهواء... ويفتخر «سلطان هذا العالم» (يوحنا ١٢:٣١) لكثرة الذين يخرون تحت وطأة سيطرته وكأني به يقول للسيد بكل سفاهة: هل جئتَ لتصارعني ولتنتزع أُجَرائي من مملكتي؟ كلا، لا تحاول أن تقيسَ نفسك بي. لا! لا تتعب جهدك، لا تعرض نفسك لمخاطر المعركة! كل ما أطلبه منك بالضبط هو أن تجثو أمامي! أمر سهل. اعبدني وكل مملكتي هي لك!...

لا شك أيها الأحباء أن السيد والمخلص كان يشاء أن يملك، ولكنه كان يهدف أن يكون سيد العدل والإنصاف، يريد أن يحكم على أشخاص يخدمون البر والحقيقة والفضائل كلها. لا يرضى طبعًا ان يُتوج بدون شقاء، فيحكم على الآخرين بخضوعه لقوة الشيطان. لذلك يجيب المجرِّب بكل هدوء «كتِب: تعبد الرب إلهك...» (تثنية الاشتراع ٦:١٣) وكأن السيد يقول: مشيئتي أن يدخل جميع هؤلاء تحت سلطتي أنا لكي يعبدوا الرب فقط ولا يخدموا سواه، هذه هي رغبتي. تريدني أن أدشّن الخطيئة وأنا الذي أتيت إلى العالم لكي أدمّرها وأحرر البشرية من هولها؟!...».

ـ «اذهب عني يا شيطان» ـ

تجربة المعجزات

«إن كنت ابن الله، فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل...» تأملوا أيّها الأحبة بالطريقة التي يستخدمها الشيطان ليجرّب السيد. يستشهد بكل جرأة بالكتب السماوية والمزامير (مزمور ٩١: ١١ ـ ١٢). قل لي أيها المجرّب، كيف علمت أن هذه الآيات هي في الأسفار المقدسة؟ ألعلك قرأت الأسفار؟ أتعلم شيئًا عن كلمة الله؟ أصمت! فإني سأجيب عنك. أجل لقد قرأت مقاطع من الكتب السماوية ولكن لا كوسيلة تطور وسمو نحو الأفضل، بل لكي تقتل بالحرف أصدقاء الحرف! تريد أن تستعمل سلاحهم؟ إنك تعرف جيدًا انك لو خاطبت السيد بواسطة كتب أخرى لما استطعت أن تخدعه كما يجب. تريد أن تضفي على تصريحاتك سلطانًا، فأقرنتها بالآيات السماوية لمآربك الخاصة...

رجاء أيها الأبناء، إذا سمعتم من اناس نظريات تستشهد بالكتاب المقدس، احرصوا ولا تصدقوا للحال أقوالهم. كونوا حكماء وحذرين. تفحّصوا أوّلاً سلوك الإنسان الذي يكلمكم، ونقّبوا عن افكاره ونواياه. فقد يتظاهر بالقداسة ولكن تحت صوف النعجة قد يختبىء ذئب كاسر...».

ـ «لا تجرِّب الرب إلهك» ـ

هذا نموذج من أسلوب أوريجانس في تعليقه على إنجيل لوقا. اسلوب حَيّ ملوَّن يجتذب السامع بما فيه من خيال واسع وقدرة على التصوير. الأشخاص يتحركون بسهولة وكأنهم على مسرح يؤدّون دورهم بكل راحة. اسلوب شيق يعطينا فكرة عن صاحبه فنتعرف عليه قليلاً لئلا يصبح بحثنا جافًا.

حياته

من هو أوريجانس؟ نعرف الكثير عن اوريجانس وحياته بفضل المؤرخ الكنسي افسابيوس القيصري الذي عاش في بداية القرن الرابع، خمسين سنة بعد وفاة الأسكندري الشهير. وقد خصص هذا

المؤرخ كل كتابه السادس تقريبًا، من مجلّد «التاريخ الكنسي»، لأوريجانس.

ولد كاتبنا في الاسكندرية حوالى سنة ١٨٥ في كنف عائلة مسيحية. والده ليونيداس كان أول معلم له. تمرن منذ نعومة أظافره على حفظ مقاطع من الكتاب المقدس. وكان ليونيداس قد اكتشف نبوغه المبكر فكرّس لابنه الكثير من وقته واهتمامه. عندما عصفت موجة الاضطهادات في عهد الامبراطور سپتيموس سيڤيريوس رمي ليونيداس في السجن، لكونه مسيحيًا، فدبت رغبة الاستشهاد في عروق اوريجانس، وكان فتى آنذاك. وتقول الرواية أن حماسه الفائق وعفويته البريئة وفورة شبابه كانت أودت به إلى غمرة الاضطهادات لولا أن أمه عرفت بالأمر وأخفت ثيابه لكي تمنعه من مغادرة المنزل. فاكتفى هذا الفتى المتحمّس بارسال كتابٍ إلى والده مشجعًا إياه على الاستشهاد ومحرّضًا ألا يتراجع عن إيمانه المسيحي. هذه الحادثة الطريفة، وإن كانت مأساوية، تعرفنا على شخصية هذا الكاتب وتعطينا فكرة واضحة عن اندفاعه ومحبته المطلقة للمسيح.

سرعان ما نما هذا الفتى في كل المجالات، فبرز في كنيسته، حتى إن أسقف الاسكندرية اكتشف مواهبه ووثق بمقدرته غير العادية وذكائه المفرط، فأدخله مدرسة الموعوظين، بعد أن تركها اقليمس ورحل خوفًا من الاضطهادات، فقام اوريجانس بهذا العمل بحرارة وشجاعة، غير مكترث بالأخطار، محتقرًا الصعوبات، وكان يبلغ من العمر آنذاك الثامنة عشرة.

كان هذا الشاب يميل جدًا إلى التصوف وحياة الزهد. والاسكندرية لم تخلُ من الإغواءات المتنوعة. فخطر بباله في يوم من الأيام، بفورة عفوية، أن يقتلع التجارب من أساسها. وأوريجانس الذي كان يشرح الكتاب المقدس بالرموز والتشابيه، ذهب به اندفاعه إلى تطبيق الآية التالية بحرفيتها «... يوجد خصيان خصوا أنفسهم

لأجل الملكوت...» (متى ١٩ : ١٢) ولم يجد وقتها رادعًا إذ كان والده قد غاب عنه، فأقبل على هذا العمل الذي كلفه الكثير فيما بعد...

عرف الأسقف بالأمر فلامه جدًا على هذا العمل الطائش وإن كان دافعه التقشف والتهرب من التهم الباطلة. هذا التصرف سبب له النتائج السلبية طيلة حياته فحرمه من سر الكهنوت ومن تحقيق ذاته في الاسكندرية. عمل صبياني تحمّل عواقبه بمرارة وألم.

إلا أن هذا العمل لم يمنعه من ممارسة التعليم، فبقي يدير شؤون مدرسة الاسكندرية ويتعلم في الوقت نفسه. درس الفلسفة علاوة على الكتاب المقدس وتتلمذ على يد أحد أشهر الفلاسفة في عصره أمونيوس ساكاس الذي كان يعلّم الفلسفة في المدرسة الشهيرة التي سيؤسس فيها افلوطين الفيلسوف فيما بعد مذهبه الذي عرف بـ «الأفلوطونية المحدثة». لمع نجم أوريجانس، وذاع صيته إلى أقطار بعيدة، حتى أن والدة الأمبراطور الكسندروس سويريوس واسمها جوليا ماميًا استدعته إلى مدينة انطاكية لكي يحدثها عن الإيمان المسيحي. فلبى الدعوة وسافر بمواكبة حرس أُرسلوا خصيصًا لمرافقته. يُروى أيضًا أن حاكم العربية الوثني أرسل لزميله في مصر رسالة يرجوه فيها أن يسمح للمعلم الاسكندري الشهير القيام برحلة إلى دياره، فيتيح له فرصة سماع محاضراته القيمة. ويبدو أن هذا الحاكم أرسل رسالة لطيفة إلى الأسقف ديمتريوس للهدف نفسه. وصلنا أيضًا أن الامبراطور فيليبس العربي نفسه وكان صديقًا للمسيحيين هو وزوجته، وقد حكم ما بين ٢٤٤ ـ ٢٤٩ ، اهتم بأمر أوريجانس إذ وصلتنا رسائل من كاتبنا هذا موجهة إليه. أما في داخل الكنيسة فلم تقلّ شهرته عن خارجها طبعًا. استدعاه مرة اسقف القيصرية ليستفيد هو ورعيته من عظات الاسكندري الشهيرة فسمح له، وهو العلماني، ان يعظ في الكنيسة. استاء أسقف الأسكندرية عندما عرف هذا الخبر واحتجّ على هذا الشذوذ عن

القانون، وأمر أوريجانس أن يعود إلى كنيسته ففعل مطيعًا ورجع إلى قواعده. ولكن الأجواء بينه وبين رئيسه بدأت تتعكر.

تابع أوريجانس عمله الفكري فأخذ يكتب ويؤلف بغزارة، وكانت مؤلفاته منوعة وغنية ولذلك يُعتبر من أخصب الكتّاب القدامى. ومما ساعده على تحقيق هذا العمل الجبّار وجود أحد أصدقائه امبروسيوس. كان امبروسيوس هذا ثريًا جدًا، وقد تعرّف إلى المسيحية وتعمّد بفضل أوريجانس، فوضع تحت تصرف صديقه ومعلمه مجموعة موظفين من الكتاب والنساخ ليعاونوه ويسهلوا عمله، موفرًا له كل المجلدات التي كان يحتاجها لعمله هذا. ولكن، للأسف، فقد حصلت حادثة أخرى عكرت صفاء هذا الجو إذ نشب خلاف آخر أشدّ خطورة مع أسقفه. فأثناء سفر آخر قام به إلى القيصرية وأورشليم في فلسطين، شاء اسقفا هاتَين المدينتين، نظرًا لقيمة أوريجانس، أن يرسماه كاهنًا. فلم يرفض هذا الأخير لأن هذه الأمنية كانت كبيرة وكان يودّ تحقيقها. ولم يكن في فلسطين قانون واضحٌ يمنع الخصيّ من رتبة الكهنوت. طبعًا، هذا العمل وصل خبره إلى ديمتريوس فغضب ودعا مجمعًا إلى الانعقاد ودان هذه السيامة المخالفة للقانون. ثم عقد مجمعًا آخر قرر منع أوريجانس عن التعليم في الاسكندرية، وكان ذلك سنة ٢٣١.

أما الفلسطينيون فرأوا في هذا التصرف الاسكندري مظهرًا من مظاهر الحسد التافه. وكتب افسابيوس تعليقًا على تلك الحادثة: «ان ديمتريوس شكا من ضعف بشريّ حين وجد أن مرؤوسه كان أعظم منه شأنًا وشهرةً». بعد موت ديمتريوس وانتخاب هيراكلاس على كرسي الاسكندرية، وكان من أعز أصدقاء أوريجانس، استبشر هذا البائس خيرًا. ولكن الأسقف الجديد لم يكتفِ بأحكام المجمعين السابقين بل جرّد صديقه حتى من درجة الكهنوت، مما آلم أوريجانس كثيرًا. وعندما أُقيل من منصبه في الأسكندرية وأقفلت الأبواب أمامه، لم يبق له سوى اللجوء إلى القيصرية حيث استُقبل بالترحاب.

وسرعان ما بادر إلى إنشاء مدرسة جديدة تفوقت بشهرتها على مدرسة الأسكندرية بطابعها العلمي الرصين. فاستقطبت ألمع الطلاب ومن بينهم القديس غريغوريوس العجائبي الذي تتلمذ على يد أوريجانس. وفي جو هذه المدينة الرحبة الهادئة قام أوريجانس بعمله الضخم حول دراسة نصوص الكتاب المقدس وانجزها بنجاح. وبقيت شهرته تزداد، إذ كانت البعثات تتوافد إليه من جميع أرجاء الأمبراطورية لاستشارته في المسائل العقائدية المعلقة التي كانت مدار بحث وجدل، معتبرين إياه مرجعًا مهمًا.

وفاته

قضى أوريجانس معظم سِني حياته في فترة سلام نسبي بين الدولة والكنيسة. وكان على العموم مسالمًا، يتفهم وضع الدولة، يعرف حقوقها ويعي أيضًا مسؤولية كلِّ مواطن وواجباتِه تجاهها. ولكنه كان دائمًا يرفض كل مساومة سياسية بفعل شخصيته الصريحة والنزيهة. فالمسيحيون في نظره هم شعب الله المقدس، يقومون بواجباتهم الوطنية، يصلّون من أجل الحكّام والجيوش ولكنهم يرفضون حمل السلاح لأنهم من نسل كهنوتي لا يتسلّحون إلا بسلاح البر والروح القدس. عندما تسلم الحكم داقيوس سنة ٢٤٩ ولم يكن صديقًا للمسيحيين كفيليبس العربي، حصل تغيير شامل في الحكم واشتعلت نار الاضطهادات من جديد في مختلف أنحاء الأمبراطورية. وكانت الحملات موجهة خاصة ضد الرؤساء الأكليركيين لاجبارهم على إنكار إيمانهم بالتهديد والتعذيب، فتزعزع كنائسهم. وكان أوريجانس يناهز خلالها السبعين فأُوقف، وسجن، وذاق العذاب المر من تطويل الأعضاء وغير ذلك. ولكنه بقي صامدًا رغم المشقات وبقي إيمانه حيًا. لم تتجرأ الدولة على إبادة شخصية بارزة كهذه فأخلت سبيله وخرج من السجن محطّمًا جسديًا ولكنه قوي روحيًا. ولم تفتر عزيمته، ومعنوياته بقيت مرتفعة، فعاش فترة من الزمن لم يتوقف خلالها عن الكتابة. يُروى أنه توفي في مدينة صور ما بين سنة ٢٥٣ و٢٥٥.

مؤلفاته

تقسم مصنفات أوريجانس إلى فئتين: فئة تتناول الكتاب المقدس، وفئة أخرى تتناول المواضيع اللاهوتية والعقائدية والتقشفية.

الأعمال الكتابية

كتب أوريجانس شرحًا للعديد من أسفار الكتاب المقدس بعهدَيْه القديم والجديد، وقد أتت بشكل حواش إمّا لغوية أو تاريخية تزاد إلى النصوص، أو شرح مفصل لاسفار بكاملها، أو تعليق على مقاطع منها أو عظات شعبية كالتي أوردناها أعلاه، يستفيد منها السامع العادي. أما أهم مجلد مطلقًا فهو الذي يدعى «السداسي». وهو ضبط لنصوص الكتاب المقدس جعلها بستة أعمدة متوازية: النص العبري ـ النص العبري بالحروف اليونانية ـ نص لترجمة يونانية منسوبة إلى مترجم يدعى «أكويلة» وهو يهودي عاصر الأمبراطور ادريانوس (أوائل القرن الثاني) ـ نص لترجمة يونانية أخرى ـ نص خامس وهو الترجمة اليونانية السبعينية ـ أما النص السادس فهو أيضًا ترجمة يونانية حصلت حوالي سنة ١٨٠.

إن هذا العمل لضخم، وقد تطلّب جهودًا فائقة؛ وطبعًا كان مفيدًا جدًا لدراسة الكتاب المقدس. كان بوسع القارىء أن يشمل الأعمدة جميعها بنظرة فيقابل بينها ويقارنها بعضها ببعض. وهذا أول عمل من هذا النوع في تاريخ الكنيسة. أما تعليق أوريجانس فكان يعتمد على النسخة السبعينية التي كان يعتبرها من أهم الترجمات.

حُفظ هذا المجلد الضخم لمدة طويلة في مكتبة القيصرية في فلسطين واستفاد منها فيما بعد ايرونيموس الذي ترجم الكتاب المقدس الى اللاتينية. بقي منه نسخة كاملة بالسريانية تعود إلى القرن السادس. وعلى حد قول مؤرِّخ الكرسي الانطاكي الأستاذ أسد رستم

فإنه وجد بعض المزامير من «سداسي» أوريجانس في مكتبة القديس امبروسيوس في مدينة ميلانو الإيطالية وفي كنيس اليهود في القاهرة.

المؤلفات غير الكتابية

منها الكتاب الذي يدعى «الردّ على كلسوس» وكان كلسوس فيلسوفًا ألّف كتابًا شوّه فيه الدينين اليهودي والمسيحي معًا. أمّا الدراسة الثانية واسمها «حول المبادىء» فهي ذات طابع فلسفي وحولها دارت فيما بعد المعارك الاوريجنية. لم يبق من هذا الكتاب إلا المنتخبات القليلة.

مؤلفات تصوفية

تشمل كتابات في التقشف والصلاة، منها شرح جميل للصلاة الربانية، ومؤلف يشجع به المؤمنين على قبول الشهادة.

رسائل: ترك أوريجانس رسائل عديدة اشهرها تلك الموجهة إلى تلميذه غريغوريوس العجائبي.

المعلم

دعي أوريجانس الرجل الفولاذي، نظرًا لصلابة شخصيته ومثابرته على التأليف وصموده أمام المحن. كانت ثقافته واسعة وبلاغته أكيدة، زد على ذلك تواضعًا وطاعةً وسلوكًا مثاليًا. وكل هذا متوج بتقشفٍ وتقوى، ولذلك اشتهر جدًا في حياته، وانتشرت مؤلفاته بسرعة بعد وفاته. لا شك بأنّ هذا الأسكندري البارز كان قبل كل شيء معلمًا وقد أسس مدرسة فكرية. يصفه افسابيوس فيقول: «لم يضيّع لحظة من وجوده سدى ولم يعرف الشك أبدًا». كان من المسيحيين الأوائل الذين انتموا إلى النخبة المثقفة في عصره. مارس التعليم المسيحي على أكمل وجه، وبفضله بلغت مدرسة الموعوظين في الاسكندرية درجة «الأكاديمية». كان تعليمه رصينًا لدرجة أنه كان يوحي بالاهتمام والاحترام حتى لدى أخصامه.

الجديد الذي أتى به هذا العلاّمة إلى الكنيسة، هو منهج في التعليم وقوة في ربط الأفكار ببعضها وحبكها كما يجب، وتشييد هيكلية لاهوتية على أساس متين. تتلمذ الكثيرون على يده وكان يحب تلاميذه وهم يبادلونه المحبة ويقدرون مواهبه وقدرته على تبليغ الرسالة.

كان تعليم أوريجانس على العموم ذا طابع تقشفي يتوق إلى المثل العليا والكمال. كان يريد أن يجعل من تلاميذه جنودًا للروح القدس أي أن يعلنوا الحرب على الرذائل وشياطين هذا العالم، متسلحين بالمعرفة الأصيلة للحقائق الإلهية التي تؤدي إلى الانتصار والخلاص بفضل الاسرار الكنسية. كان له، اذن، التأثير العميق على تلاميذه، وهذا ظاهر في مدح تأبينيّ لعظيم منهم هو غرغوريوس العجائبي الذي أصبح فيما بعد اسقفًا ومبشّرًا في آسيا الصغرى. ففي هذا التأبين الذي يعبّر فيه غريغوريوس عن ودّه لمعلمه ويعترف بفضله، يقول: «إنه الوحيد الذي أدرك في العمق الكلمات الإلهية بصفائها ونقاوتها وعرف كيف يشرحها للآخرين... بقيادة استاذ كهذا، الغموض يزول نهائيًا وكل الأشياء تنجلي...».

كان أوريجانس يستقي تعليمه من الكتاب المقدس والتقليد الكنسي الرسولي. كان يشدد على أن الإيمان ليس تشريعًا كنسيًا جافًّا إنما هو شرح الكنيسة للأمور وتعليمها الحيّ. أما شخصية المسيح فكانت نبراسه، فكان أوريجانس واثقًا تمام الثقة بأنّ تلك الشخصية البارزة، المثالية، هي أساس كل معرفة وتقديس، وان الكتاب المقدس هو المرجع الوثائقي المطلق والحصن المنيع والسند القوي للإيمان.

شارح الكتاب

كرّس أوريجانس حياته كلها لدراسة الكتاب المقدس الذي أحبه من كل كيانه. وجوده كان مهمًا في ذلك العصر الذي كانت الكنيسة

تشق فيه طريقها. كان الفلاسفة آنذاك ينعتون كتب العهد القديم بأنها «أساطير بربرية». ولذلك دافع عنها أوريجانس بحماس مقترن بعلم ومنطق. لم يضطرب لهزئهم ولم يبال بآرائهم بل شرح النصوص باجتهاد وركزها على أساس متين وأبرز علاقة العهد القديم بالعهد الجديد، مُبرزًا وجه السيد المنير كلحمة خفيه تربط الأحداث ببعضها. الكتاب المقدس، بالنسبة إليه، مجموعة رائعة، حيث كل الأشياء لها معناها السري الخفي وأوجدها الله بواسطة الهامات بُثت مباشرة في قلوب الأنبياء والرسل. كان على إيمان وثيق بأن هذه الكتب ليست فقط أثرًا مكتوبًا لتاريخ شعب معين، إنما هي مادة حية تتجاوز الزمان والمكان؛ انها «بحر من الأسرار». على العموم، الجمال الأدبي وحده لم يثر اهتمامه؛ المضمون وحده كان شغله الشاغل؛ التنقيب في النصوص كان هاجسه؛ التفتيش عن المخطوطات ودراستها اجتذباه. يخبرنا أنه في أيامه اكتشفت مخطوطات مهمة في جرّة فخارية بالقرب من اريحا؛ وهذا برهان أكيد على أنه في القرن الثالث اكتشفت نصوص كالتي اكتشفت مؤخرًا في مغاور قمران قرب البحر الميت والتي أثارت اهتمامًا عالميًا. شرحه للنصوص كان عملاً علميًا دقيقًا ومفصّلاً. وشرحه لانجيل يوحنا ملأ اثنين وثلاثين مجلدًا، خُصص مجلد منها بكامله لشرح العبارة «في البدء كان الكلمة».

أما طريقته في دراسة النصوص فكانت فريدة في نوعها. كان يعطي للنص ثلاثة معانٍ: المعنى الأول وهو سطحي يسميه أوريجانس المعنى المادي، المعنى الثاني وهو روحانيّ يتجاوز الكلمة ليعطي البعد الروحيّ، وأما المعنى الثالث فهو البعد الأخلاقيّ ـ اللاهوتي. هذا التصنيف يتلاءم مع تصنيف أوريجانس المسيحيين إلى ثلاث فئات: البسطاء، المتقدّمين والكاملين. كلُّ فئة يناسبها معنى من هذه المعاني الثلاثة للكتاب المقدس. أما الشيء المستحدث الذي أتى به كاتبنا هذا فهو الشرح الرمزي ـ المجازي لآيات الكتاب المقدس. وكان هذا الشرح هو المخرج الوحيد الذي استطاع به أن يشرح ويدافع عن

بعض مقاطع العهد القديم التي كان الهراطقة والوثنيون والفلاسفة يتهجمون عليها. أشياء جميلة أتانا بها أوريجانس في هذا المضمار. فمثلاً، العبارة «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» شرحها قائلاً: «كل من تمثّل بالمسيح يحمل اسم بطرس». ويعلق على يوحنا ساندًا رأسه على كتف المسيح قائلاً: «لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الانجيل ما لم يتكىء على صدر يسوع ويقبل مريم أمًا له».

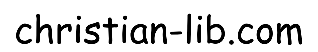
الأوريجانية

كان أوريجانس، علاّمة القرن الثالث، من أخصب كتّاب العصور القديمة. ولكن، للأسف، فُقد الكثير من مؤلفاته عبر العصور. أُخذ عليه أن مؤلفاته تنبسط في المساحة أكثر مما تغوص في العمق. فإذا كان الأمر كذلك فهذا عائد إلى السرعة التي كان بها ينجز نتاجه. وصلتنا أشياء من كتاباته مترجمة إلى اللاتينية في القرن الخامس. أما باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي فنقلا إلينا بالنص أجمل المقاطع من هذا الاسكندري العظيم في منتخبات أدبية دعيت «فيلوكاليا». نقطة الضعف عنده هي سيطرة النظريات الفلسفية على قسم كبير من مؤلفه «حول المبادىء»، ممّا جعله يُتّهم بالهرطقة. لا أظن أن أوريجانس وقع في الهرطقة عمدًا، ولم يكن له نية في التضليل. الذي يحدّد الهرطوقي هو التشبّث والعناد والكبرياء. أما أوريجانس فكان مَرنًا، متواضعًا ومطيعًا.

لا شكّ في أن أوريجانس كان بحّاثًا ضليعًا ومفكرًا عظيمًا، لذلك نتعجب لاصطدامه مع أسقفه. الحسد لم يكن الدافع الوحيد الذي حرّك الأسقف ديمتريوس؛ فلقد اشتمّ من بعض كتابات أوريجانس أشياء مخالفة للاعتقاد المسيحي الأصيل، أقوالاً أقرب إلى الفلسفة منها إلى المسيحية. ولكن علينا الاّ ننسى أن عصره كان عصر الأفلاطونية المحدثة، مما يشكّل فخًا رهيبًا لذوي الفكر، كما حصل لفلاسفة مقربين إلينا في العصر الحالي أمثال كانت وهيجل وهيدغر. الفلسفة والمسيحية تشابكتا في ذهنه إلى حدّ أنه لم ينتبه

كفاية إلى التحولات التي كانت تحصل عندما كان يعبر عن أفكاره. الأفكار المسيحية تنزلق نحو الفلسفة بطريقة لا واعية. ولذلك تساءلت الكنيسة بشخص اسقفها: «لاهوت مطعّم بالفلسفة كهذا أيستطيع أن يبقى مسيحيًّا؟». لن ندخل في تفاصيل هذا النقاش، ولندعه لذوي الاختصاص فنكتفي بابراز الأشياء الإيجابية في تعليم أوريجانس والتي كانت مفيدة جدًا للكنيسة وللأجيال من بعده.

كانت شخصية هذا المؤلف الذي اعتبر من معلمي الكنيسة لا من آبائها، تعكس حتى النهاية استقامته وحزمه. كرّس حياته للعمل الفكري وللتقشف. كان يستطيع أن يبارز أي خصم بسهولة، بفضل علمه وثقافته الواسعة وعقله الرزين. مفكرون من هذا النوع يستقطبون التلاميذ الكثر لأن شخصيتهم جذّابة ونظرياتهم متكاملة ومتناسقة. ولكن الشيء السلبي، وللأسف، هو أن تلاميذه استندوا على نقاط الضعف عنده لكي يبرزوها بنظريات بعيدة جدًا عن النظريات اللاهوتية المستقيمة، دعيت فيما بعد «الأورجانيّة». وهكذا، بفعل التطور التاريخي البطيء، ظهر الشذوذ في صفوف الأبناء والأحفاد الروحيّين، فحكمت الكنيسة في القرن السادس، بفعل المشاجرة الأوريجانية، لا على اوريجانس نفسه بل على النظرية «الاوريجانية» التي، كما قلت، استلهمت بعض نظرياته فوسعتها وحرّفتها فوقعت في الهرطقة. ولكن هذا الحكم لم يُقلِّل قَطّ من قيمة مؤلفاته، فبقي أوريجانس من أهم المراجع لدراسة الكتاب المقدس نستشهد بها حتى اليوم. وعلينا ألاّ ننسى أن هذا الانسان تحمّل العذابات من أجل المسيح. هو لم يمت شهيدًا مع أنه ذاق طعم الشهادة؛ ولم يكن قديسًا ولكنّ تلميذه غريغوريوس العجائبي استفاد من تعاليمه ما يكفي لكي يتقدس. وكان أثره عظيمًا في الأجيال من بعده، لأن آباء الكنيسة في القرن الرابع استفادوا من عمله الكتابيّ الرائع.


christian-lib.com

الفصل السادس

لمحة عن آباء الغرب

أهم آباء الغرب هم: ترتوليانوس - كبريانوس - ايرونيموس - امبروسيوس - أوغسطينوس. وهم، إجمالاً، كتبوا ووعظوا باللغة اللاتينية.

ترتوليانوس (١٥٠ - ٢٤٠) **Tertullien**

ولد في قرطاجة في أفريقيا الشمالية. إهتدى الى المسيحية وكان من عائلة وثنية. دافع عن المسيحية. رسم كاهنًا وكان متزوجًا. فهو رغم كتاباته القيمة في اللاهوت وشرحه الكتاب المقدس ودفاعه عن الكنيسة وتوسله لدى السلطات من أجل الاضطهادات الظالمة التي كانت تلاحق المسيحيين، فقد ابتعد عن التعليم المسيحي القويم ووقع في الهرطقة لأنّه إعتنق المذهب المونتاني. والمونتانية هي بدعة تشدد على مواهب الروح القدس والنبوة الا ان تعاليمها الغريبة وتصرف المنتمين إليها جعلت منها بدعة خطيرة.

كبريانوس أسقف قرطاجة (٢١٠ - ٢٥٨)

Cyprien De Carthage.

كان هو أيضًا من شمالي أفريقيا وكان أسقفًا عظيمًا يتحلّى بروح القيادة والشخصية القوية. جمع حوله كل أساقفة أفريقيا الشمالية وكان عددهم يتراوح بين الستين والمئة أسقف ولذلك دعي «بابا أفريقيا». علّم البلاغة ومارس المحاماة قبل إنتمائه الى الكنيسة.

اهتم برعيته من كل النواحي وخاصة الناحية الانسانية مخففًا من آلام المرض والفقر والجوع. ترك مراسلة مهمة مع بابا رومية كورنيليوس ولم يتردد أحيانًا أن يعطيه النصائح والدروس ويذكّره بواجباته بروح الأخوة والمحبة. نعرف قصّة حياته وتفاصيل استشهاده بفضل رواية شماسه الذي كتبها بطريقة حيّة. قطع رأسه بالسيف أثناء اضطهادات الملك فاليريان Valerien ومات كقديس وكرجل عظيم. ان كبريانوس وإن كان من آباء الغرب الا أن لاهوته شرقي أصيل وهذا واضح في مؤلّفاته ونظريته في الثالوث مستقيمة. (انظر المقال المفصل ص٦٣).

أمبروسيوس أسقف ميلانو (٣٣٠ ـ ٣٩٧)
Ambroise De Milan

كان قبل كل شيء أسقفًا يعرف أن يدير شؤون أبرشيته ويهتم بترتيب أمورها بنظام وجديّة. إدارته كانت رائعة من الناحية العملية. وكان في الوقت نفسه رجل دولة يحفظ حقوق كنيسته. ترك مؤلّفات عديدة في شرح الكتاب المقدّس والمزامير وإنجيل لوقا. له كتب في النسك والبتولة. دافع عن العقائد ضد الهرطقات. مذهبه في وحدة الكنيسة واستقلالها عن الدولة سبّاق في نوعيته. يطالب بحماية الدولة للكنيسة. لاهوته في الثالوث القدوس، يعرضه على الطريقة الشرقية، لا يختلف قطعيًا في شرحه سر الثالوث عن آباء الشرق. كتاباته بالاجمال تشدد على علم الأخلاق. عظاته مشهورة جدًّا. بلاغته تثير الاعجاب. زد على كل هذا شعره الذي كوّن القسم الكبير من مؤلّفاته، وكان هذا الشعر من أجل الترتيل الكنسي. هذا الأسقف كان يعمل في الدولة وله مركز كبير فيها قبل أن يسام، إذ كان حاكمًا لمقاطعتين في إيطاليا مع لقب قنصل وكان مقرّه في مدينة ميلانو. الشيء الغريب هو أن الشعب طالب به كأسقف ثم وافق على هذا الاختيار الاساقفة والامبراطور نفسه. إذن أتى إلى الكنيسة بصوت الشعب كحاكم ولكنّه تصرف كراعٍ ساهر

على رعيته. كان أسقف الجميع، شعبيته كانت عظيمة اهتمّ جدًّا بالفقراء. باع ممتلكاته ووزّعها على المعوزين. امبروسيوس كان من أعظم آباء الغرب وأهمّ كتّابه.

إيرونيموس (٣٤٧ ـ ٤١٩) Jerôme

أصله من بلاد البلقان لكنّه سكن في روما حيث درس الأدب الكلاسيكي. ثقافته كانت واسعة وحبّه للّغات قاد حياته. بعد اعتماده قضى القسم الكبير من حياته في التنقل بين روما والشرق. كان قبل كل شيء راهبًا يحب الحياة النسكية، زار إنطاكية والقسطنطينية حيث استمع إلى عظات غريغوريوس اللاهوتي العظيمة. استقرّ أخيرًا في مدينة بيت لحم في فلسطين حيث بنى ديرًا وكرّس ٣٥ سنة من حياته في عمل مستمر نتيجة خصب أدبي مميز. العمل الجبار الذي قام به هو ترجمة الكتاب المقدّس الى اللغة اللاتينية. ولكي يحقق هذا العمل الضخم، درس اللغة العبرية وتعمّق فيها ودرس أيضًا الآرامية على أيدي معلّمين بارعين ودفع ثمن هذه الدروس غاليًا. وأخيرًا، وبعد جهد كبير، انتهت ترجمته سنة ٤٠٥ ولم تفرض نفسها في الغرب إلاّ بعد قرنين من الصراع. ولم ينسب لها عنوان ڤولغاتا Vulgata الاّ في القرن الثالث عشر. أمّا علاوة عن مقدرته في الترجمة فقد تميز إيرونيموس بطريقته الرمزية في شرح الكتاب المقدّس وينتمي بذلك إلى المدرسة الاسكندرية.

أوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠) Augustin

إذا ما قارنّا أوغسطينوس بأسلافه الآباء الذين ذكرنا، نشعر وكأن مؤلّفات هؤلاء اللاهوتيّين القدامى باهتة أمام بريقه وهزيلة أمام غزارته. لا شك بأنّه تأثّر بهم، وإنّما عبقريته تفوقت على الجميع وجعلته أهمّ آباء الغرب. نعرف شخصيته وتطوراتها بالعمق من خلال كتاب اعترافاته الشهيرة: فهو يظهر لنا ذلك الانسان المثقف المتعلّم النبيه المستقل الذي لا يتقبّل الأشياء إلاّ عن إقتناع

عميق. فكره منظّم منطقيّ مع ميل واضح الى الفلسفة. أحبّ الحياة وملذّاتها، انغمس فيها غير مبالٍ لتوبيخ والدته المؤمنة وتوسّلاتها. كتاب «الاعترافات» الذي هو من أشهر مؤلّفاته يحكي قصة تفاعل هذا الانسان المميز المرهف مع فيض النعمة الالهية، يحكي كيف تطورت حياته الروحية حتى بلغت إلى نور المسيح وكيف، بعد ارتداده مقتنعًا في أعماقه بالمسيحية، غيّر مجرى حياته وباع أملاكه ووزّعها على الفقراء ثم انخرط في الكهنوت ووصل الى درجة الاسقفية.

إنّه من مواليد أفريقيا الشمالية، تلك الأرض التي ارتوت من دماء الشهداء زهاء أكثر من قرنين والتي تمازج فيها التقليد الشعبي البربري مع الحضارة الرومانية مع ما أضيف إليها من تبشير مسيحي فعّال. ولد في مدينة هيبّونا Hippone التي لا تبعد كثيرًا عن قرطاجة. أراده والده رجلاً مثقفًا فصيحًا فلم يخيب أمله. ولمع كأستاذ بلاغة ماهر مع كل ما يتضمّنه هذا المجال من تعبير لغوي أنيق وحسّ فني مرهف. منذ شبابه اجتذبته أجواء اللهو والعبث غير مبالٍ بالمسيحية ونظرتها الرصينة الى الحياة. أمّا والدته التي كانت تدعى مونيك واعتبرت فيما بعد من صفوف القديسات في الكنيسة الغربية، فقد مثّلت الدور الهامّ في توجيهه نحو المسيح. كانت مونيك امرأة مؤمنة، طيبة، شجاعة. حبّها الذي لا حدّ له لولدها وهمّها بتوبته جعلاها تناضل كل حياتها من أجل خلاصه. كانت تنظر بأسى وحزن الى نوعية حياة هذا الولد الذي وضعت فيه كل آمالها. لا نصيحة تؤثر عليه ولا توبيخ يهز كيانه. ومع ذلك لم تيأس، فلجأت الى الصلاة والدموع. إلاّ أن الجواب الالهي كان بطيئًا، وانقضت سنون طويلة قبل أن تستجاب الصلوات وتجف العبرات.

يخبرنا أوغسطين عن مدى تأثير والدته في توبته فيقول انه رضع إسم المسيح مع حليبها وبقي هذا السحر متغلغلاً في أعماقه

استشهاد القديسة بار اسكيفي PARASKEVI



جزء من أيقونة روسية تعود الى القرن السادس عشر

استشهدت هذه الفتاة في عهد الأمبراطور أنطونيوس المدعو ANTONIN LE PIEUX بقطع رأسها سنة ١٤٠ بعد ان تحملت العذابات الأليمة

أنظر ص ٧١

بطريقة لا واعية حتى شبّ وكبر. إلاّ أن الحياة كانت دائمًا تبعده عن الكنيسة، والتيارات التي كانت تتجاذبه تغريه وتنسيه إيمان طفولته. أول مرحلة جعلته يفكّر بالإيمان جديًا هي زيارته الى ميلانو وسماع عظات أسقفها الشهير أمبروسيوس الذي نصحه بادىء ذي بدء أن يطالع سفر اشعياء بتمعّن. هذا الواعظ اخترق قلبه، فكان يتردد إلى الكنيسة لسماعه فقط، فأخذت النعمة تتسرب إلى أعماقه رويدًا رويدًا بفعل كلام امبروسيوس المؤثر والصادق. أما الخطوة الثانية على طريق الرب فكانت اكتشاف رسائل بولس الرسول التي أعجب بها والتي القت الاضواء على ظلمات عقله وروت ظمأ نفسه العطشى. وأخيرًا، وبعد نضال عنيف بينه وبين نفسه، اكتشف الحقيقة وانضم إليها كليًا. حينئذ اعتمد على يد الاسقف امبروسيوس ثم قطع علاقته تمامًا مع ماضيه مغيرًا نمط حياته ومبتدئًا مسيرة العودة الى الله مما أفرح قلب والدته التي توفيت بعد هذا الحدث بقليل مطمئنة البال على ولدها. وله في وصف هذه الحادثة المؤلمة صفحة خلاّبة.

بعدئذ عاد الى مدينته ووجد نفسه في سلك الكهنوت وكأنّه فرض عليه فرضًا. شخصية كهذه لم تبقَ بالطبع في الخفاء، فما إن توفي أسقف مدينة هيبّونا حتى وقع الاختيار على أوغسطينوس كخلفٍ له. قام بمهمّته الجديدة بجديّة ونشاط. وهكذا تابع حياته الأسقفية محوّلاً قلاّيته إلى دير، فارضًا على كهنته وشمامسته حياة زهد وصلاة وقواعد رهبانية، ساهرًا على رعيته بالوعظ والتعليم والادارة الصحيحة لمدّة ثلاثين سنة تقريبًا. إلاّ إنّه في أواخر حياته شعر بالحزن العميق عندما ابتدأ الغزو الفاندالي يجتاح بلاده مع كل ما يرافق ذلك من ويلات وكوارث. فدُمِّر معظم ما شيّده أوغسطينوس من مبانٍ لعمله الاجتماعي ومؤسسات وعمّ بالتالي الخرابُ المنطقةَ. وبقيت مدينته المحبوبة محاصرة من الأعداء لفترة من الزمن، سعى من كل قوته أثناءها أن يهتم برعيته ويستقبل اللاجئين ويعين الفقراء منهمكًا بشؤون رعاياه، لا يعرف للراحة معنى. فلم يتردد في

تذويب أواني الكنيسة الذهبية وبيعها وتوزيع ثمنها للمعوزين. أمّا في الشهر الثالث من حصار تلك المدينة وكان قد شعر باقتراب أجله، انعزل عن العالم وأخذ يقرأ المزامير في معظم أوقاته ويصلّي باستمرار حتى مات سنة ٤٣٠.

ترك أوغسطينوس مؤلّفات عديدة أهمّها «الاعترافات» و«مدينة الله». له أيضًا مؤلّفات غزيرة في الدفاع عن العقائد واللاهوت ودراسة الكتاب المقدس. عظاته رائعة ومتعددة. إلى جانب ذلك ترك كتابات متنوعة في شتى المواضيع وخاصة في موضوع علم الاخلاق.

أوغسطينوس هو إذن من أعظم آباء الغرب ومؤسس لاهوته وهو من أشهر قديسيه أيضًا. كان تأثيره عظيمًا جدًّا عبر الأجيال التي كانت تعتبره اللاهوتي والفيلسوف والمفكر والمؤمن. اكتشف المسيح بعد معاناة فأحبه كما أعلن في كتاب اعترافاته: «أيها السيد، لقد طرقت على باب قلبي بكلمتك فأحببتك» وكان مخلصًا في حبه فارتدّ وتاب وكانت توبته صادقة عميقة تاركة الوقع العظيم على القارىء.

الفصل السابع

الشهيد كبريانس القرطاجي

ولد كبريانس في مدينة قرطاجة، قرب تونس الحالية في أفريقيا الشمالية. يبدو أنّه اهتدى إلى الإيمان المسيحي واعتنقه بعمق، وتقبل سر المعمودية مع الموعوظين في الليلة الفصحية لسنة ٢٤٦. كان إنسانًا مثقفًا وحازمًا بطبيعته، ولذلك سرعان ما استخدمته الكنيسة لنشر تعاليمها واعتبرته فيما بعد من آبائها اللامعين الذين برزوا في القرن الثالث ممهدين الطريق إلى القرن الرابع الذهبي. رسم إذًا كاهنًا في السنة التي تلت معموديّته، ثم انتخب أسقفًا على المدينة بالاجماع، وحيّاه الشعب بالهتاف (ما بين سنة ٢٤٨ و٢٤٩). ما إن دشن مهمّته حتى جابه بشجاعة صعوبات جسامًا: اضطهادات عنيفة عصفت في ذلك الحين بالكنيسة، ومؤمرات تصحبها الدسائس في داخل الكنيسة. مات شهيدًا في ١٤ أيلول سنة ٢٥٨.

الشهيد كبريانوس وجه نبيل، من أنبل الأساقفة الذين إجتازوا تاريخ المسيحية. اشتعل قلبه بحبّ للكنيسة متّقد وحيّ. كان هاجسه اللحمة الداخلية للكنيسة، وترابط أعضائها وتماسك مؤسساتها. كان على يقين هو والكثيرون من أساقفة القرون الأولى المسيحية أن كنيسة المسيح هي بالأساس الكنيسة المحلية المجتمعة حول أسقفها: كل راعٍ مسؤول أمام الله عن وحدة رعيته، وعن وحدة الجسم الأسقفي. في نظره أولوية بطرس تقوم على هذا الأساس أي أن بطرس هو أول الذي تقبل المهمة الأسقفية أي قبل الرسل الآخرين، وإن هذه الأوّليّة تضمنها وحدة الكنيسة فقط. وهذا الأمر لا ينفي أن كل

رسول من الاثني عشر تسلّم المهمة بملئها كما حصل لبطرس. إذن هي صدارة المحبة والوحدة. بطرس هو الأول بين الأخوة.

له مؤلف قيّم في وحدة الكنيسة الجامعة، إليك مقطعًا مقتبسًا من كتابه هذا (اصحاح ٤ ـ ٦) وهو ذو أهمية كبرى نظرًا لدقة هذا الموضوع في أيامنا هذه، حيث الانشقاقات في داخل الكنيسة جرح نازف، وألم مستمر لمن يغار على كنيسة المسيح.

وحدة الكنيسة

«أيظن انه متمسك بإيمانه من لا يتمسك بوحدة الكنيسة؟ هل هو متأكد من أنه يبقى ضمنها من يقاوم الكنيسة ويعارضها؟ ألم يعلّمنا المغبوط بولس الرسول عندما أعلن عن سر الوحدة بقوله: «جسد واحد وروح واحدة، ورجاء واحد... رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة وإله واحد» (أفسس٤: ٤ ـ ٦).

هذه الوحدة، علينا، نحن أي الأساقفة الذين نشرف على الكنيسة، أن نسعى إليها بحزم، أن نطالب بها، مبرهنين بذلك أن الأسقفية هي أيضًا واحدة لا تتجزأ. حذار أن يضلّل أحدكم بالخداع أخوتَه المجتمعين، احترسوا أن تُشوّه بخبث حقيقة الإيمان. فريدة هي الأسقفية، وكل أسقف يمتلك مع أخوته الآخرين على كلّ حصة منها. فريدة هي الكنيسة، التي، بخصبها المتزايد دائمًا، يشمل حشدًا دائم الاتساع.

النور واحد رغم تعدّد شعاعات الشمس، جذع الشجرة واحد رغم تزايد أغصانه: واحد أيضًا ذلك الجذع المرتبط بصلابة بالجذور المتينة الصامدة. كثيرة هي الجداول ولكنْ واحدٌ هو النبع. واحدة هي نقطة انطلاقها. أتستطيع أن تفصل شعاعًا واحدًا عن الجسم الشمسي؟ هذا المنبع المنير لا يتحمل التجزؤ. إقتلع غصنًا من شجرة، الغصن المكسور لن ينبت أبدًا. إقطع الجدول عن النبع تجده ينضب بسرعة.

هكذا بالنسبة لكنيسة السيد: إنّها تبث في العالم كلّه أشعة نورها، إنّما واحدٌ هو هذا النور المنتشر في كل الأنحاء، كما انه واحد هو الجسد ووحدته لا تتجزّأ في امتداده. تبسط الكنيسة أغصانها المحملة بالأثمار في كل أرجاء العالم، تسكب بسخاء مياه جداولها إلى أقصى الأماكن ولكن

واحد هو النبع وواحد هو الأصل. واحدة هي الأم المثقلة بثمارها الكثيرة: منها ولدنا، من لبنها نتغذّى وبروحها نحن نترعرع ونتحرّك.

هل من الممكن أن تكون زانية عروس المسيح؟ كلا، إنها بدون عيب، طاهرة نقية. الكنيسة لا تعرف إلاّ مقرًا واحدًا، إنّها تحافظ بطهارة وقداسة على مضجعها الوحيد. إنها هي التي تحفظنا من أجل الرب، ناقلةً إلى الملكوت الأولاد الذين أنجبتهم.

كل من ينفصل عن الكنيسة ويتحد بزانية، يعتزل حتمًا عن وعود الكنيسة. لن يستأهل مكافآت المسيح من يتخلّ عن كنيسته. يصبح غريبًا عنها، منتهكًا لحرماتها بل عدوًا لها.

لا يستطيع أن يتخذ الله أبًا من لا يتخذ من الكنيسة أمًا له. إذا صحّ القول أن كل من بقي خارج سفينة نوح قد هلك، هكذا كل من يبقى خارج كنيسة المسيح لا يستطيع أن ينجو.

المسيح نفسه حذرنا قائلاً: «من ليس معي هو ضدي ومن لا يجمع معي يفرق» (متى ١٢: ٣٠). من يحطّم سلام المسيح ووفاقه، هذا يعمل بالضبط معارضًا له. من يجمع خارج الكنيسة فهو يشتت أبناءَها. السيد نفسه قال «أبي وأنا واحد» (يو١٠: ٣٠). وكتب عن الثالوث «هؤلاء الثلاثة هم واحدٌ» (١يو٥: ٧).

هذه الوحدة إذن، النابعة من قوة الله بالذات والمرتبطة بأسرار السماء، أيعقل أن تتجزأ هذه الوحدة ضمن الكنيسة بسبب الإرادات الهدّامة المتجابهة المتصارعة؟ من لا يحافظ على تلك الوحدة لا يحفظ إيمان الربّ ولا يحفظ إيمان الآب والابن ولا يحفظ الحياة ولا الخلاص».

من هذا النص نستخلص الحقائق التالية:

١ ـ إن الكنيسة هي، في عرف كبريانوس، جماعة المؤمنين المتحلقين حول أسقفهم.

٢ ـ ايماننا بالكنيسة يشترط حتمًا ايماننا بالثالوث، نستقيه من الله الآب.

٣ ـ المسؤول الأول عن وحدة الكنيسة هو الأسقف.

٤ ـ الكنيسة واحدة في أصلها ومتفرّعة بانتشارها.
٥ ـ إن ما نعترف به في دستور الإيمان، بأن الكنيسة مقدسة لأنها عروس المسيح وأم لأولاد الملكوت، جامعة لأنها شاملة رغم تنوعها، رسولية لأن الرسل أسسوها ـ وهذا القول من القرن الثالث هو خير دليل على هذه الحقائق ـ هي معطيات عاشتها الكنيسة الأولى وليست تردادًا لكلمات وعبارات عقائدية فقط.

حياته

نحن نعلم الكثير عن أسقفية كبريانس من خلال رسائله التي كتبت ما بين سنة ٢٤٨ وسنة ٢٥٨. ومن مؤلّفات شماسه وتلميذه بونتيوس الذي كتب عن استشهاده. إلاّ أننا نجهل كل شيء عن الفترة الأولى من حياته. نعلم أنّه كان ينتمي إلى عائلة عريقة وثرية في قرطاجة. كتاباته تعطينا معلومات تاريخية هامّة عن البيئة الوثنية في أيامه والعادات المتفشية فيها. حصلت في داخله ثورة حركت كيانه بعد معموديّته فنتج عنها تغيير جذري في حياته مما أدّى به إلى بيع القسم الكبير من ممتلكاته وتوزيعها على الفقراء. أول موجة اضطهادات عكرت صفو عمله الرعائي، فوجد نفسه مجبرًا على الابتعاد عن رعيته لئلا يعرّضها إلى الخطر ولكي يستطيع أن يمارس إدارة شؤونها ولو من بعيد.

حصلت هذه الاضطهادات سنة ٢٤٩ أي في بداية أسقفيته، عندما تولى الحكم الامبراطور الجديد داسيوس. أمرت السلطات بأن يشترك جميع المواطنين بالصلاة وبإقامة الذبيحة للآلهة الوثنية من أجل نجاح الأمبراطور الجديد وازدهار دولته. أما كل من يرفض هذا العمل فكان يعرض نفسه لاجراءات تأديبية: إهانات، حجز أموال، تعذيب، سجن الخ... فكل من ساهم بالاحتفالات التي تفرضها الدولة ثُبّتَ في وظيفته، ومن لم يشترك تتدنّى درجته في وظيفته أو يُطرد منها. لا شك أن هذه الاجراءات كانت موجهة ضد المسيحيين لكي يجبروهم على إنكار دينهم. فتنحلّ بالتالي الكنيسة. هذا الجو

خلق موجة ذعر وبلبلة في صفوف الرعية الناشئة، ولكن في الواقع كان الأسقف مهددًا أكثر من غيره، حتى أن الشعب الثائر في قرطاجة كان يصرخ «كبريانس للأسود». كانت السلطات تصوّب حممها نحو الأساقفة لكي تفقد الرعايا رؤساءَها فتضمحل. ففي هذه الفترة بالذات، استشهد أساقفة روما وانطاكية وأورشليم والقيصرية. وجد كبريانس نفسه أمام مأزق حرج، أيواجه الشهادة أم يتهرب منها؟ كانت له ظروفه الخاصة التي أجبرته على الهرب، وقد لامه البعض لعمله هذا، ولكن لكل امرئٍ هفواته وضعافاته وربما من أجل صلاح الكنيسة فضّل اسقفنا الابتعاد عن رعيته ولو لفترة.

علاقته بكنيسة روما

ترك كبريانس رسائل ودية إلى كورنيليوس بابا رومية، يكتب له وكأنّه صديقه الحميم حتى انّه لا يتردد أحيانًا في إعطائه النصائح في كيفية أداء واجباته الرعائية على أكمل وجه.

أمّا علاقته بكرسي روما فساءت مع البابا استفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧). نعرفها من خلال تسع رسائل وجهها إليه؛ وأمّا الخلافات فكانت رعائيّة، تدور أحداثها حول الجدل في صحة معمودية الهراطقة هل هي صالحة أم باطلة، وهل تستطيع الكنيسة ان تعتبرها شرعية أم لا. لن ندخل في تفاصيل هذه المشكلة، إلا أننا نكتفي بالقول أن كبريانس وكل أفريقيا اللاتينية وانطاكيا وكبادوكية اعتبروها باطلة وإنّه ينبغي أن يعتمد من جديد من أراد أن يلتحق بالكنيسة، بينما كنيسة روما تساهلت في هذا الأمر.

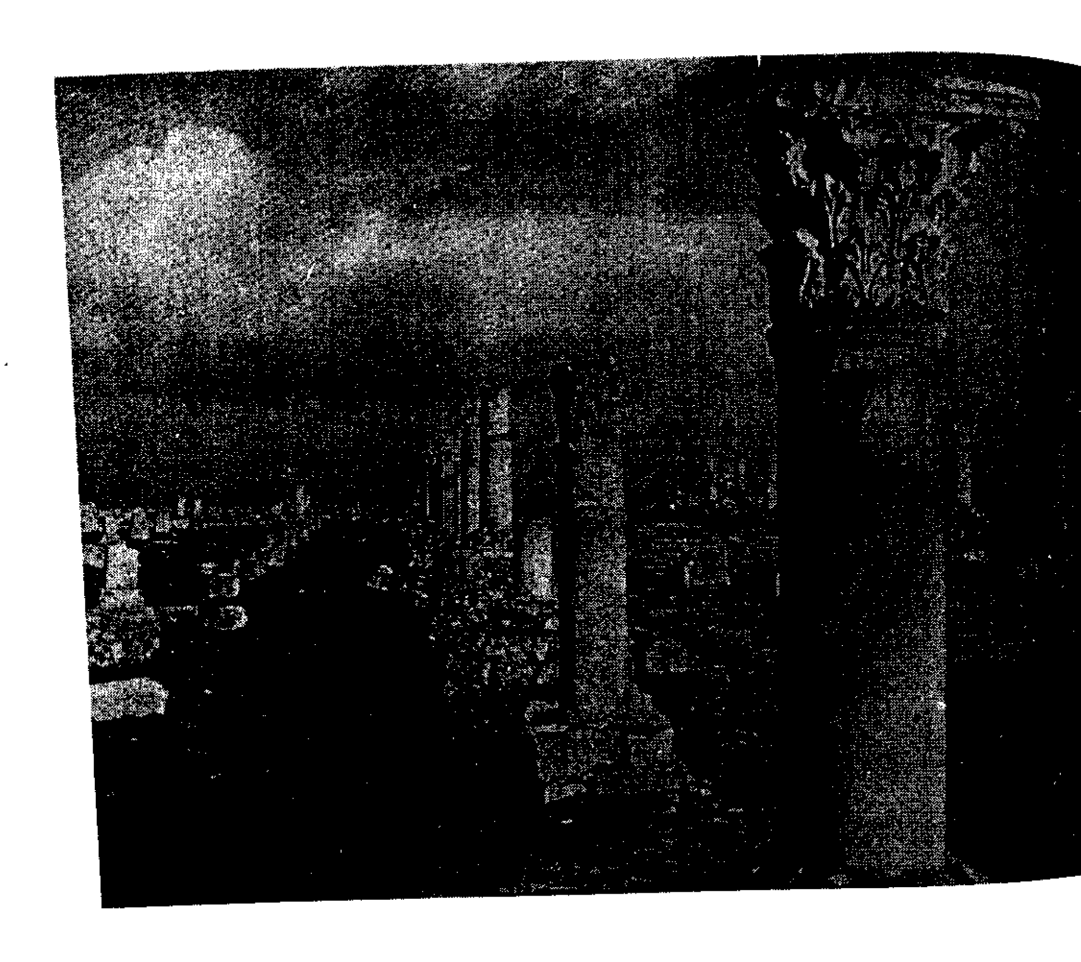
أمّا كبريانس فلم يتردد ثانية واحدة للتصريح بأن الموقف الأفريقي هو الصحيح، ثم عقد مجمعًا أفريقيًا في السنة التالية ضمّ سبعين أسقفًا، وافقوا جميعهم على هذا القرار، تبلّغه رسميًا البابا، بصورة رسالة مجمعية، نصّها كبريانس بنفسه (الرسالة ٧٢) خاتمًا رسالته هذه بحزم، شارحًا أن الأسقفية الافريقية لا تريد أن تفرض

نظريتها على أحد، ولكنها بالتالي لا تقبل بتغيير مبدأ موقفها لأن كل أسقف حرٌ بتصرفه داخل كنيسته. وأمّا هذا النقاش فاصبح تافهًا حين عصفت موجة ثانية من الاضطهادات استشهد أثناءَها البابا استفانوس وفيما بعد كبريانس.

استشهاد كبريانس

ألقي القبض على كبريانس في ٣٠ آب ٢٥٧، ولكنّه نُفي إلى مكان لا يبعد عن قرطاجة، فبقي يراقب أعمال رعيته ويهتم بها ولو من بعيد. وهذا البعد لم يمنعه عن التأليف إذ كتب في «واجبات المسيحيين أثناء الاضطهادات» وألّف كتيبًا آخر موضوعه «الغيرة والحسد». أمّا فيما بعد فقد صدر أمر من قبل الأمبراطور ڤاليريان مشددًا على ألاّ يرحم رجال الأكليروس، فأوقف الأسقف في ١٣ أيلول سنة ٢٥٨ بعد أن قضى بأمان عشر سنين في رعاية كنيسة قرطاجة، وقطع رأسه أمام كل الشعب في ١٤ أيلول في اليوم التالي. لقد عرفنا كل تفاصيل استشهاد كبريانس من شماسه، كما سبق أن قلنا، وهو يروي لنا أن الحشود من المؤمنين طرقوا المنزل الذي أمضى فيه ليلته الأخيرة وهم يهتفون «نريد أن نموت معه»، وأمّا في اليوم التالي وبعد إستجواب شكلي قصير، فقد قاده جلاّده إلى موضع التعذيب. فخلع الأسقف معطفه، ثم انحنى على ركبتيه لصلاة أخيرة بعد أن أوصى أبناءه كي يثبتوا في السلام وأن يعمّ السكون بعد ذهابه ويبقوا مواظبين على الصلوات راسخين في الإيمان.

ثم انتصب بصمت موجّهًا نظره نحو السماء، منتظرًا أن يقوم الجلاّد بعمله. وفي انتفاضة مسيحية أخيرة أظهر فيها نبل أخلاقه وشهامته وروحه المشبعة بالشيم المسيحية، أوصى بأن يُمنح للجلاد خمسة وعشرون قطعة ذهبية لأجل عنائه. بعدئذٍ عصّب كاهنان عينيه بقطعة قماش لئلا ينظر إلى المشهد الرهيب، بينما جمهور المؤمنين كانوا يبسطون أقمشة ليتلقوا دم استشهاده الثمين ولكي لا يدعوا جسده الطاهر عرضة لحشرية الوثنيين. ثم دفن الجسد مؤقتًا في مكان



آثار قرطاجة

آثار لأحدى الكنائس الثلاثة التي شُيّدت لذكرى

الشهيد القديس كبريانوس في قرطاجة

أنظر ص ٦٨

الاعدام. وفي ساعة متأخرة، بعد سدول الظلام، أتى المؤمنون بالمشاعل والشموع ليقيموا خدمة الجناز، بموكب صلاة واحتفال لائق، وتراتيل الأخوة تتناوب في فرح القيامة.

هكذا توارى أسقفنا هذا متحليًا بهالة القداسة، فدخل إلى فرح ربّه... يبدو أن أوغسطينس نفسه لم يصل إلى درجته من حيث محبة الرعية له وحظوته لدى الشعب الفائقة.

وهذا يعود إلى إحساسه ببؤس أبناء رعيته، وجهده المتواصل للتخفيف من آلامهم كما حصل عندما فتك مرض الطاعون بمدينته، فبذل كل ما في وسعه من أجل مكافحة هذا الوباء الرهيب. يُعتبر كبريانس من أهم آباء الكنيسة الغربية. وما ينبغي أن نعلمه عنه إنّه كان قائدًا وحازمًا تحلّى بشخصية قوية. ترأس مئات الأساقفة الذين كانوا يتولّون شؤون الكنائس الأفريقية. لم يكن أسقف قرطاجة فقط، بل كان ملقبًا «بابا أفريقيا». مؤلّفاته كانت قبل كل شيء رعائية، مستقاة من الكتاب المقدس. لا شكّ بأن ترتوليانس من قبله شقّ له الطريق، رافعًا راية أفريقيا المسيحية وفاسحًا لصوتها المجال. إلّا أن هذا الأخير لم يبقَ في استقامة الفكر العقائدي كما حصل لمعظم المفكرين الذين برزوا من المجتمع الوثني، ولم يكن عندهم الوقت الكافي لهضم التعاليم المسيحية ونفض الغبار الفلسفي عنها. كبريانس، بالنسبة للعقائد، من أبرز الآباء. طُبع بالمسيحية حتى أعماقه، ومن بعده تفتحت أفريقيا الشمالية لحياة مسيحية جديدة ملؤها الحيوية، وبقيت لقرون من الزمن تطبع الغرب بطبعها الروحي المميز.

الفصل الثامن

القرن الثالث

الاضطهادات وموجة الشهداء

صفحة تاريخية*

في القرن الثاني حكمت عائلة الانطونيين الممثلة بأشهر الأباطرة: تراجان انطونان الصديق (الذي استشهد في زمنه يوستينوس)، مارك اوريكل وكومودیوس. هؤلاء الحكام سهروا على مصلحة الامبراطورية، وكان معظمهم يميل إلى الفلسفة. أما في القرن الثالث فنوعية الحكام اختلفت اذ ابتدأ التفكك يتسلّل إلى الدولة. أخذ ضباط الجيش يغتصبون الحكم ويتنازعون في سبيله. القائد الذي ينتصر في القتال يُعلنُهُ جنودُه امبراطورًا. من سلسلة ٤١ امبراطورًا الذين تسملوا الحكم في هذه الفترة، ستة فقط ماتوا موتًا طبيعيًا والآخرون كانوا يغتالون. وأحيانًا كان الكرسي لمن يدفع ثمنه أغلى، حتى انه في فترة من الفترات كان أربعة ضباط يتنافسون على الحكم في آن وكل منهم يدّعي انه هو الحاكم الشرعي.

أما بالنسبة للكنيسة فقد عانت في القرن الثاني من العنف الشرس الذي كان يتهددها بصورة دائمة. فقانون تراجان الذي يقرُّ بأن الانتساب الى المسيحيةِ جريمة ضد الدولة تستحق العقاب، والذي بموجبه استُشهد القديس اغناطيوس، بقي ساري المفعول حتى أوائل القرن الثالث. إلا ان هذا القانون لم ينصّ على مطاردة

* انظر لائحة الاباطرة ص ٧٨ لقد اعتمدت احياناً الترجمة الفرنسية لأسماء الأباطرة نظراً لكثرة المراجع الفرنسية

المسيحيين والتفتيش عنهم. فكانت هذه الاضطهادات محدودة في مناطق معينة وفي بعض مقاطعات من الامبراطورية الرومانية. وكان قد تخللها فترات أمن نسبي كتلك التي استفاد منها المسيحيون في أيام كوموديوس (١٨٠ ـ ١٩٢) الذي وإن كان حاكمًا طاغية مستبدًا إلا انه لم يتابع الحملة التي أقامها ابوه مارك اوريل. أما في القرن الثالث فقد تغيّرت علاقة الدولة مع الكنيسة. أُمر بالبحث عن المسيحيين واقناعهم برفض ضلالاتهم، وان اصروا فليتعرضوا للتعذيب، وهذا التعذيب يستمر حتى ينكروا المسيح ويسجدوا للآلهة. أما سبتيم سيفير فقد ألغى مرسوم تراجان واستبدله بمرسوم آخر يقضي بمطاردة المسيحيين بطريقة بوليسية منظمة. وكان هذا المرسوم يشمل اليهود أيضًا ويطالُ قبل الكل المسؤولين في الكنيسة. وهكذا استُشهد اقليمس أسقف روما وسمعان أسقف أورشليم وليونيد والد اوريجنس الذي قطعت هامته الخ...

الحالة الاجتماعية في القرن الثالث وانتشار الكنيسة

في بداية القرن الثالث أصبح للكنيسة أعضاء في كل طبقات المجتمع. أما انتشارُها السريع رغمَ الاضطهادات فقد أثار تساؤلاتٍ لدى الشَعب: أية من الأثنتين يجب ان تبقى الوثنية أم المسيحية؟ والمعروف انه علاوة على الوثنية كانت عبادة الشمس منتشرة آنذاك وعبادة «ميترا» اله النور وبدعة المنيخية Manichéisme وهي خليط من الفلسفة والمسيحية والديانات الشرقية. وقد استشهد اتباعها أيضًا. وقد كتب عن هذه البدعة الكاتب امين معلوف في كتابه «بساتين النور» Jardin de lumière الذي ظهر مؤخرًا. وغيرها من النظريات الدينية الفلسفية كانت متفشيّة في العالم الروماني المتعطش الى الماورائيات. أما امتداد الكنيسة فبلغ مقاطعات بعيدة بواسطة العلاقات التجارية بين سكان آسيا الصغرى وغالية الجنوبية. تغلغلت المسيحية إلى هناك بفضل المبشرين. وفي نهاية القرن الثالث ظهرت كنائس مسيحية في بريطانيا ايضًا.

أما في أفريقيا الشمالية فكانت كنيسةُ قرطاجة مزدهرة والتأمت فيها مجامع مهمة ضمّت الكثيرين من الاساقفة المحليين. وكانت العلاقة الدائمة بين هذه الكنيسة وكنيسة روما تدلّ على أن هذه الأخيرة أرسلت مبشرين إلى أفريقيا الشمالية في البدء لتأسيسها، وكذلك بلغت الكنيسة اسبانيا في أواخر القرن الثالث بفضل البعثات التبشيرية.

وقد انتشرت المسيحية ايضًا عند شعوبٍ لم تعرف السيادة الرومانية. فقد كانت مدينة إديسّا مثلاً مركز اشعاع وهي مدينة مزدهرة كانت في منطقة ما بين النهرين، وقد أسس المسيحية فيها الرسول تدّاوس مرافق الرسول توما. ومنها امتدت الى بلاد فارس وغيرها. وفضلا عن ذلك فإن معلمي الاسكندرية المشهورين «بانتين» وتلميذه اوريجنس ساحا لأجل نشر البشارة في الهند والعربية. والتاريخ يذكر ان اوريجنس استُدعي لتبشير احد امراء العرب الموجودين على الارجح تحت السلطة الرومانية.

اسباب اضطهاد المسيحيين

في بداية الظهور المسيحي لم يميّز سكان البلاد اليونانية ـ الرومانية بين المسيحيين واليهود، فتمتع اثناءها المسيحيون، على مثال الطائفة اليهودية في الشتات «الدياسبورا»، بتساهل الوثنيين التامّ. ولكن لما تعاظم عدد افراد الدين الجديد واخذت الكنيسة تفرض وجودَها انقلب هذا التساهل الى عداء. وكان المستفيدون من وجود الديانة الوثنية في طليعة المعتدين: مثلاً كهنةُ الأصنام والمنجمون وصانعو التماثيل الخ... فهؤلاء لاحظوا ان الشعب المسيحي لا يترددُ على الهياكل ولا يسجد للاصنام ولا يقدّمُ لها الضحايا كما إنهم كانوا يرفضون كل ما هو وثني مع العلم ان الوثنية هي دين الدولة الرسمي.

أما الذين كانوا يطاردون المسيحيين ويشُون بهم، فكانوا

يخترعون شتى الاكاذيب لتهييج السلطة. كانوا يدّعون مثلاً ان اتباع هذا الدين الجديد يستسلمون للفجور في اجتماعاتهم السرية ويقتلون الأطفال ويتغذون بلحمهم ودمهم. وفيما يتعلّق بالشعب البسيط فقد كان يعتبر ان هؤلاء النصارى خطرون جدًا على الحياة العامة ويقلقون راحة المجتمع.

الوثنيون المثقفون لم يكن رأيهم بأفضل اذ كانوا ينظرون الى الدين الجديد بسخرية واحتقار، ذلك لأن فلاسفة العصر والمفكرين كانوا يهاجمونه بشدة. فالمدارس الفلسفية كلها حاربت المسيحية: منها الستويسية Stoïcisme والابيكورية Epicurisme والأفلاطونية المحْدَثة Néo - Platonisme. أما أول من بدأ النضال الصريح فكان بورفيروس وهو تلميذ افلوطين وهو من مواليد مدينة صور وقد كتب عدة تآليف ضد المسيحيين، يهاجم العقيدة المسيحية ويجتهدُ بالبراهين ان يقللَ من شأنها ويحجب الثقة عنها. وقد بقيت الى زماننا مقاطع من تآليف الوثنيين محفوظة من خلال الأدب الكنسي، وخاصة في مؤلفات الكتّاب الذين جاوبوا لدحضها بطريقة منطقية مقنعة.

أهم الأباطرة الذين حكموا في القرن الثالث وعلاقتهم بالمسيحية.

سبتيموس ـ سيڤيريوس

دشن ولايته بمرسوم ظهر في سنة ٢٠٢، يسمح بمطاردة المسيحيين بطريقة منظمة والتفتيش عنهم في أمكنة اجتماعاتهم. وهكذا ابتدأت اضطهادات شرسة ضد المجتمع المسيحي. وكان سبتيم ـ سيفير من مدينة قرطاجة متزوجًا من امرأة سورية ابنة كاهن بعل في مدينة حمص وتدعى جوليادومنا التي حاولت تنشيط الوثنية لكي تناقش الدين المسيحي.

أيقونة الشهيد الفتريوس



هذه الأيقونة موجودة في المتحف البيزنطي – أتينا وتعود الى القرن السادس عشر وتنتمي الى المدرسة الكريتية.

استشهد هذا القديس على الأرجح سنة ٢٢٦ وكان أسقفاً على مدينة روما عندما عانى المسيحيون من موجة العنف القاسية على عهد الأمبراطور ادريانوس – ايليوس.

أنظر ص ٧٣

الكسندروس ـ سيڤيريوس

هذا الامبراطور كان ابن جوليا ماميّا Julia Mamméa السورية الاصل ايضًا وكانت امرأة ذكية نشيطة تحب العلم والفلسفة، ويبدو انها تتلمذت على يد العلامة اوريجنس. بفضل تأثيرها على ولدها خفّت الحملات ضد المسيحية فكان حكمُه فترة هدنةٍ طويلة سمحت للكنيسة بأن تنتظم وتنتشر.

مكسيمينوس

بعد وفاة الامبراطور السابق اندلعت من جديد موجة العنف لأن مكسيمينوس كان طاغيةً مستبدًا ظالمًا؛ ولكن الاضطهادات لم تنتشر في كل انحاء الامبراطورية بل حصرت في البنطس وكبادوكيا. ولحسن الحظ لم يحكم لِسِوى ثلاث سنوات.

جوليان الثالث وفيليبس العربي

كان لهذين العاهلين عطف خاص على المسيحيين حتى شاع ان فيليبس كان في سرّه مسيحيًا. في أيامه اعتنق العدد الكبير من الأشراف والاغنياء الدين المسيحي. ولكن حزب الوثنيين المتعصبين ازداد بغضًا وكان ينتظر انتقال السلطة الى حاكمٍ جديد يشاطرُه الرأي حتى ينهضَ بكل حزم لابادةِ المسيحيين.

داسيوس ـ تريانوس

حكم ثلاث سنوات فقط، ولكن هذه السنوات كانت فترة ظلمٍ على الكنيسة اذ فاقت الهجمات بقساوتها كل الهجمات السابقة ما عدا تلك التي حصلت في إيام مارك ـ اوريل. حُجزت املاك المسيحيين وخسروا حقوقهم الوطنية، والبعض استعفوا من الكنيسةِ لقساوة العذابات، وكان هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية في زمن الهدوء. وقد ذاق طعم مرارتها اوريجنس في الاسكندرية.

ڤاليريانوس

بقي الأمر كذلك مع فاليريان الذي تولّى الحكم والذي تقهقرت الامبراطورية في زمنه بطريقة ملحوظة. وفي أثناء حكمه ازدادت غزوات الغوط واهوالها على بلاده. أصدر مرسومًا سنة ٢٥٨م أمر فيه بإعدام جميع الأساقفة والكهنة والشمامسة. أما أعضاء مجلس الشيوخ فاذا أصروا على مسيحيتهم بعد إلغاء جميع حقوقهم وحجز أملاكهم فلتقطع هاماتهم بالسيف. وإذا أصرت النساء الشريفات على المسيحية بعد حجز الأملاك فليرسَلْنَ إلى المنفى. أما الشعبُ البسيط فكان يُعامل بقساوة فائقة. وهكذا بدأت مذبحة المسيحيين الضارية. وكان من جملة من استشهد أسقف روما سيكست SIXTE II والقديس كبريانوس وغيرهما. أما نهاية هذا الطاغية فكانت رهيبة اذ أنه اثناء الحرب ضد الفرس سنة ٢٥٩ ، وقع أسيرًا لديهم وأصبح موطىء قدمي الحاكم الفارسي الذي نال منه شتى العذابات والاهانات.

غاليانوس

بعد فاليريان تولى الحكم ابنه غاليان الذي لم يكن ميالاً في طبعه إلى الوسائل القسرية، فرأى أنه من المستحسنِ أن يغيرَ سياستَه مع المسيحيين. فأعلن بموجب مرسومين وقف الاضطهادات وأُعيدت للنصارى الأموال المحجوزة وبيوت الصلاة والمدافنِ وغيرها. فتنعّمت الكنيسة بفترةٍ راحةٍ تمتد من سنة ٢٦٠ الى آخر القرن الثالث.

اوريليانوس

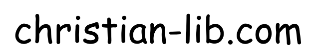
أما اوريليان الامبراطور فاجتهد لتجديد موجة العنف ثانية، ولكن محاولته فشلت بموته. وبقي الحال كذلك حتى ولاية ديوكليسيان الذي حصلت في نهاية عهده، أي في بداية القرن الرابع،

آخر موجة اضطهادات رسمية في التاريخ الروماني. في نهاية القرن الثالث، إذن، أخذت الكنيسة تجدّد نشاطها وتتوسعُ بطريقة سريعةٍ وبنجاح ملحوظٍ، وانضمّ إليها شخصيات لهم مكانتهم في الدولة وشُيدت كنائس حسنة البناء. أما أعضاء الكنيسة فلم يُضطروا إلى الاختباء مخافة بل مارسوا نشاطاتهم علنًا، وأصبح أساقفة الكنائس يبرزون في المجتمع، والبعض منهم ذاعَ صِيتُهم في الأوساط الوثنية. بيد أن الحزب الوثني المتعصب كان لا يزال قويًا وذا نفوذ، وكان يستاءُ من هذا الازدهار المسيحي اذ يشعر ان مصير الامبراطورية الرومانية مرتبط بدينه وإن زواله يعني زوالها. ولذلك سيقوم بشتى المحاولات وسيستخدم كل نفوذِهِ في بداية القرنِ الرابع للقضاءِ المبرم على هذا الدين الجديد المنافس.

ثبت تاريخيّ بأشهر أباطرة القرن الثالث

الامبراطور	مدة حكمه	حالة المسيحيين في أيامه
سبتيموس سيفيريوس SEPTIME-SEVERE	١٩٣ ـ ٢١١	اضطهادات
كراكلا CARACALLA	٢١١ ـ ٢١٧	المنهاج نفسه
اليوغابال HELIOGOBALE	٢١٨ ـ ٢٢٢	فترة راحة
الكسندروس سيفيريوس ALEXANDRE SEVERE مع والدته جوليا ـ ماميا	٢٢٢ ـ ٢٣٥	فترة راحة
مكسيمينوس MAXIMINUS	٢٣٥ ـ ٢٣٨	اضطهادات في البنطس وكبادوكيا
غورديانوس الثالث GORDIEN III	٢٣٨ ـ ٢٤٤	عشر سنوات سلم وازدهار الكنيسة
فيليبس العربي PHILIPPE L'ARABE	٢٤٤ ـ ٢٤٩	
داسيوس ـ ترايانوس DACIUS TRAJANUS	٢٥٨ ـ ٢٥١	٣ سنوات اضطهاد
ڤلاريانوس VALERIEN	٢٥٣ ـ ٢٦٠ انحطاط الامبراطورية وانقسامها الى قسمين شرقية وغربية	اضطهادات رهيبة

غاليانس GALLIEN	٢٥٣ ـ ٢٦٨	أوقف الاضطهادات
اوريليانس AURELIEN	٢٧٠ ـ ٢٧٥	محاولة شن حملات عنف توقفت بموته
ديوكليسيانس DIOCLETIEN	٢٨٦ ـ ٣٠٥	بقيت الكنيسة تعيش في سلم من سنة ٢٦٠ ـ ٣٠٠ آخر موجة عنف حصلت في اوائل القرن الرابع



الفصل التاسع

اثناسيوس الاسكندري الكبير

(٢٩٥ ـ ٣٧٣)

من أقوال القديس اثناسيوس
مقتبسة من كتابه «حول التجسد»

«جعل نفسه إنسانًا لكي نتأله نحن، جعل نفسه منظورًا بجسده لكي نستطيع أن نكوّن فكرةً عن الآب غير المنظور، تحمّل إهانات البشر لكي ننال نصيبنا من الخلود.

نظرًا لأن البشرية ذاهبة الى هلاكها وأن فساد الموت مسيطر علينا، نظرًا لخطر الخطيئة التي توطّد هذه الوطأة... نظرًا أنه لا يجوز أن يدع عالمًا، هو صانعه، يسير نحو الضياع، نظرًا لخبث البشر المتضخم والمتصبب تدريجيًا كحاجز حيال خلاصهم، نظرًا أن البشرية كلها مذنبة وتستحق الموت، تحنن «كلمة الله» على جنسنا العليل، تأثر لهذا الفساد الذي هو فسادنا، ولم يعد يتحمل، لفرط تحننه، أن يتغلب علينا الموت. أراد أن يتجنب، بأي ثمن، هلاك هذا العمل العظيم الذي أنجزه الله الآب، وخشي أن يذهب عبثًا خلق الإنسان. فلذلك كله اتخذ «الكلمة» لنفسه جسدًا بشريًا، مشابهًا لجسدنا.

أجل هو الضابط الكل، مبدع الكون، بنى لنفسه، بتنازله الفائق، هيكلاً في أحشاء فتاة عذراء، وهذا الهيكل هو جسده... وبما أنه مرتبط مع جميع البشر بهذا الجسد بالذات المشابه لجسدهم، استطاع ابن الله أن يلبسهم عدم الفساد الخاص به، فأعطاهم عربونًا للقيامة الآتية، لكي لم يعُدْ يسيطر عليهم فساد الموت فيما بعد.

عندما يدخل ملك قوي الى مدينة كبيرة، ويتخذ من إحدى بيوتها

مسكنًا له، تعتبر كلها أنها مكرَّمة، فالأعداء واللصوص يكفّون عن إزعاجها ومحاربتها. وبسبب الملك الساكن في أحد بيوتها، الجميع يعتبرونها أهلاً للاحترام الرفيع. وهكذا ملك الكون، عندما حلّ في أرضنا ولبس جسدًا شبيهًا بجسدنا، توقفت كل دسائس العدو وحتى أنه زال فساد الموت القديم. فلو لم يأتِ ملك الكون نفسه ليقتلع البشرية كلها من البلى ويخلصها لكانت هلكت نهائيًا».

من هو اثناسيوس؟

قبل أن نتطرقَ الى القرنِ الرابع - مع كل ما رافق بدايتَهُ مِن انقلاباتٍ سياسية وتطورات تاريخيّة هامة لمصلحةِ الكنيسة: من تنصر الدولة بعد تنصر الأمبراطور قسطنطين وإعلان مرسوم ميلانو سنة ٣١٣م الذي بفعله تنفست الكنيسة الصعداء وتوقفت الاضطهادات - قبل ذلك إذن ينبغي أن نتوقف عند محطةٍ مهمة جدًا في تاريخ الكنيسة وهذه المحطة ممثلة بشخصٍ واحد هو أسقف الاسكندرية اثناسيوس الذي قال عنه يوحنا الدمشقي «هو حجر الزاوية في كنيسة الله». اسم اثناسيوس ملأ أجواءَ المسيحية في بداية القرن الرابع وكتاباتُه انتقلت بين الشرق والغرب ناشرةً الفكر القويم الرسولي في العقيدة الأصيلة التي استوعبها بفضل حسه التقليدي الذي يميز بين الصح والخطأ، بين المذهب والفلسفة، بين الحقيقة والخيال. إنه رمزٌ للكفاح المستمر ضد الهرطقة. شخصيتُه مرادفة للقوةِ والمقدرة. حياتُه كلها كانت حركة دائمة. لا يرتاحُ ولا يتوقف طالما الحقيقة لا تزال مهدَّدة. موقفُه الشجاع وَجَلدُه على المشقات وجرأته أمام السلطة، كل هذا جعله بالنسبة لمعاصريه إنسانًا محاطًا بهالة المجد وكأنه في عالم الميتولوجيا، حتى أن البعض أطلق عليه اسم «فرعون القرن الرابع». وهذه التسمية لها مبررُها لأنه عاش في حقبةٍ تاريخية تحالفت فيها كل قوات الشرق لمحاربة ألوهية المسيح.

كان هو الانسانُ الوحيد الذي يقاوم ويعارض ويحارب هذا



أتناسيوس الأسكندري

لوحة مصنوعة من الفسيفساء تمثل اتناسيوس القديس بطل مجمع نيقيا. هذه اللوحة موجودة على جدار كنيسة تدعى بالاتينية Papatine في مدينة باليرما Palerme في جزيرة سقلية وهي تعود الى القرن الثاني عشر.

أنظر ص ٨٢

التيار العنيف الممثل بالسلطات الزمنية والكنيسة أيضًا: لولاه لاستيقظت الكنيسة في يوم من الأيام آريوسية! كان بعد في درجة الشموسية حينما لفت الانتباه في مجمع نيقيا يتنقلُ من أسقف الى أسقف ليصحح ما يظهرُ له مخالفًا للعقيدة، ليقنع البعض بأخطاء نظرياتهم. يطوفُ كالنحلة النشيطة في أروقة قاعة الاجتماع، في كواليسها، ينصح، يراقب، يقوّم فكرة، يعيد النظر في النصوص، كل هذا ببركة أسقفه القديس الكسندروس حتى قال عنه غريغوريوس النازينزي فيما بعد أنه كان «أعظم المرافقين للأساقفة». قصةُ حياتِه هي قصةُ الآريوسية وتفشّيها في الكنيسة، والحملاتُ الموجَهة ضدَه كانت حملاتٌ موجهة ضد الكنيسة، والاتهامات التي اتُّهم بها كانت للمسيحية جمعاء. ففي وقتٍ ما اندمجت قضيتُه بقضيتها وشعرَ كأنه هو يحمل راية الحقيقة، وحده يريد أن يفرُضها بمختلف الوسائل. يُقال أنه استوقف مرةً الامبراطور مع وفده في الطريق ليبلغَه رسالة شفهية. اثناسيوس هو الذي دشّنَ القرن الرابع الذهبي والذي شقّ الطريق أمام عظماء كتّاب الكنيسة. إنه قديسُ الشرق والغرب وهو أول من كُرّم تكريماً شعبيًا وإن لم يُستشهد، لأن ألم النفي يعادلُ ظلم الاستشهاد! ومع هذا بقي شجاعًا مقدامًا يتحملُ المشقات ولا يبالي بها، يغوصُ في الأخطار لا يهابُها، لا يخاف من شيء ولا من عظيم من عظماء الدنيا. الأهوالُ لا ترعبه. يقال أنه اختبأ في مقابر الاسكندرية مرة ليبقى بقرب رعيته يديرُ شؤونها عن كثب. قضى فترةً طويلةً يُطرد من أبرشيته ثم يُستدعى اليها ثم يُبعد ثانية ثم يعودُ منتصرا ويُجبر على الهرب، وهكذا دواليك... اثناسيوس هو إذن من بين أواخر الكتّاب المدافعين وأوّل من مهّد الطريق لأدب القرن الذهبي. وصفه الأب متى المسكين، وهو كاهن قبطي معاصر، قائلاً أنّه «صعيدي قبطي صميم (بمعنى أنه من سكان مصر القدامى. قبطي = Egypto)».

في أية لغة كتب؟ إنه يعبرُ عن الفكر المصري ولكن باللغة اليونانية ويعلنُ عن مضمونِ لاهوت القرن الرابع في أصالته، علمًا

أنه توجد في كتاباته ألفاظ لاتينية أيضًا. طروبارية عيده في ٢ أيار تختصر حياتَه وتلخّصُها كما يلي: «لقد صرت عمودًا للرأي المستقيم موطّدًا الكنيسة المقدسة بالعقائد الالهية، يا رئيس الكهنة اثناسيوس لأنك كما كرزتَ بمساواةِ الابنِ للآبِ في الجوهر، خذلتَ آريوس أيها الأب البار. فأبتهل الى المسيح الإله أن يمنحنا الرحمة العظمى».

من هو آريوس؟

إنه عدو اثناسيوس اللدود والذي سبّب هذا الخراب كلّه في العقيدة المسيحية.

آريوس ليبي الأصل، ولد سنة ٢٥٦ وتوفي سنة ٣٣٦. ولكن الآريوسية لم تنتهِ بوفاته. عاشَ في الإسكندرية ورُسم شماسًا سنة ٣٥٨ أي ١٠ سنوات قبل اثناسيوس عمل كاهنًا في كنيسة الإسكندرية. كان هذا الرجل يدّعي الفلسفة والعلم ويعيشُ حياة تقشف لكي يضفي على تعاليمِه صبغةَ الاستقامة. إلاّ أنه كان بعيدًا كل البعد عن التعليم القويم. هذا الشذوذ عن الحقيقة لم يخفَ عن أسقف الإسكندرية الكسندروس الذي ابتدأ يحترس منه وأخذ يستجوبه ليتحقق من صحة نظرياته. أمّا اثناسيوس فكان يسندُ أسقفَه واقفًا بالمرصاد أمام ادّعاءات هذا الكاهن الخبيث.

ما هي تعاليم آريوس؟

علّم:

١) إن الابن الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس، الكلمة يسوع، ليس بإله.
٢) إنه أولُ المخلوقات وأرفعُها مرتبةً.
٣) إنه ليس مساويًا للآب في جوهره.
٤) إنه ليس بإله في الحقيقة بل بالاسم فقط.

كان آريوس يُبدي هذه النظريات بقالبٍ منطقي فلسفي من

أخذ يعلّم الشعب ويزرعُ الشكوك فيه. أما الفئة التي كانت تسانده فكانت من أتباع ملاسيوس الأسقف المنشقّ عن الكنيسة المصرية.

الأسقف الكسندروس شعر بخطورة آريوس ولكنه لم يتصرف وحده بل عقد مجمعًا يضم كل أساقفة أفريقيا وحكم عليه سنة ٣٢٠. ولكن آريوس لم يبالِ بهذا الحكم بل فرّ هاربًا الى القيصرية (في فلسطين) حيث استقبله أسقفها أفساڤيوس وإن لم يشاركه الرأي تمامًا، ولكن نظرًا للمنافسة بين الكرسيين الإسكندري والقيصري استقبله بحفاوة. من هناك انتقل الى نيقوميدية في آسيا الصغرى حيث ألف كتابًا لينشر أفكاره وحيث وجد أرضًا خصبة لزرع هرطقته وأسقفًا ذا نفوذ شاركه الرأي تمامًا والذي بقي العدو المعلن لألكسندروس أسقف الاسكندرية. أما هذا الأخير فازداد يقينًا بخطورة هذه البدعة الجديدة وأعلن الحرب عليها.

في هذه الأثناء أي سنة ٣٢٤ انتصر قسطنطين على خصمه ليسينيوس أمبراطور الشرق بعد أن اهتدى الى المسيحية، وأصبح هو المتسلط الوحيد على الأمبراطورية الرومانية كلها*. وبما أن تعاليم آريوس كانت تثير البلبلة في الكنائس حيث الآريوسيون كانوا يشاغبون ويزرعون الفوضى أراد الامبراطور الجديد أن يحل هذه المشكلة لكي يعمّ السلام في مملكته نهائيًا.

مجمع نيقيا

قرر قسطنطين الأول أن يَعقُدَ مجمعًا مسكونيًا يرئسه هو بذاته «كأسقف من الخارج» على حد قوله. فالتأم المجمع وضمّ كل أساقفة «المسكونة» أي حوالي ٢٢٥ أسقفًا من جميع أنحاء الأمبراطورية، وكان ذلك في ٢٥ تموز ٣٢٥. واستُدعي آريوس طبعًا الذي شرح أمام وحي

*انظر التفاصيل في الفصل العاشر.

أفلوطين الفيلسوف مرتكزًا على آيات كتابية. وبأسلوب مقنع الجميع نظريته وعرضها ببلاغة، متأملاً إقناع الأساقفة الموجودين، إلاّ أنه بفضل نشاط الكسندروس أسقف الإسكندرية وشماسه اثناسيوس الذي كان يعملُ بطريقة غير مباشرة، انتصرت الحقيقة إذ لم يدعم آريوس سوى ١٧ أسقفًا أما الأكثرية الساحقة فكانت ضده. ولكي يتبدد الشك الى الأبد نُصَّ دستور الإيمان «أؤمن بإله» الذي يدعى «الدستور النيقاوي القسطنطيني» والذي ينتهي بالعبارة «الذي لا فناء لملكه». وهذا هو نصه:

اؤمن بإله واحدٍ، آبٍ ضابط الكل خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يرى. وبربٍ واحدٍ يسوع المسيح، إبن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، نورٍ من نور، إلهٍ حق من إلهٍ حق، مولودٍ غير مخلوق، مساوٍ للآبِ في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد الى السماء، وجلس عن يمين الآب، وأيضًا يأتي بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه.

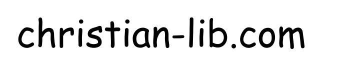
أما اثناسيوس، الشماس البسيط، فلم يكن يحقّ له التدخّل في النزاع ولا إبداءُ رأيه ولكنه كان هو في الواقع بطل نيقيا. محبته للمسيح أكلته. كانت نارًا تتأجج في داخله وتفرض تحركاتِه. قضية ألوهية الابن كانت هاجسَه وقضية حياتية عميقة بالنسبة اليه. كان يعلم يقينًا أن نظريات آريوس تهدفُ الى زعزعة الكنيسة من أساسِها بتحطيم الابن الوحيد الذي ترتكز عليه المسيحية. كما أنه كان مؤمنًا بمرتبةِ الابن بالنسبة للثالوث، فهذا واضح في الإنجيل وفي تعاليم الآباء الذي أتوا من قبله والذين لم يشكّوا لحظةً بهذا الموضوع، فالتقليد صريح في هذا المضمار. وأما من جهة تعليم آريوس بأن الكلمة «اللوغوس» هو نصف إله فهذا يقود حتمًا الى تعدد الآلهة وبروز الوثنية المبطنة بالفلسفة من جديد. تعليم آريوس، باختصار،



مجمع نيقيا

لوحة جدرانية في دير ايڤيرون IVIRON (جبل آتوس) تمثل آباء المجمع المسكوني الذين التئموا في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥. نرى الأساقفة يتفحصون النص بالتدقيق ويتباحثون ويتشاورون.

أنظر ص ٨٦


christian-lib.com

طعن بالتجسد والفداء. هذا كله كان يعيه اثناسيوس بكل وضوح، ولذلك كان يعمل بنشاط بقرب أسقفه، يهيىء له القرارات، يساهم في نصها، يصحح أخطاءها بتواضع، يقترح ولا يأمر، ينصح لا يفرض، حتى أضحى روحَ المجمع والآلةَ التي تديرُ المناقشات. وفيما بعد، لم تكن حياة اثناسيوس إلا للدفاع عن هذا الدستور والسهر على ألاّ يتزعزع ولا ينقص منه حرف واحد. لأنه ما أن انتهى المجمع حتى بدأت الدسائس تعمل للطعنَ بمقرراته، وبدأ زملاء آريوس يسعون ليقربوه من قسطنطين الأمبراطور لكي يستعيد اعتباره بعد المجمع.

ونعلم انه، لإزالة الالتباس وبعد محاولات عديدة، وصل المجتمعون في نيقيا الى إيجاد كلمة «Homoouseous» أي مُسَاوٍ للآب في الجوهر. واثناسيوس ساهم فكريًا ولاهوتيًا في إبراز هذه العقيدة، وهذا واضح في كتاباته عندما يقول مثلاً: «إن الابن ليس هو كالآب فحسب ولكنه، وهو صورته، هو نفس الشيء الذي هو الآب... وأنه هو والآب واحد، والجوهر هو ذاته كما قال الابن نفسه: إن الكلمة هو دائمًا في الآب والآب هو دائمًا في الكلمة، كما أن الشمس وبهاءَها هما غير منفصلين أحدهما عن الآخر كما ورد في يو ١٤: ١١ «آمنوا أني أنا في الآب وأنّ الآب فيّ». باختصار توصل المجمع الى تحديد الابن الكلمة كما يلي:

ـ الإيمان بالمسيح كربّ واحد وإله، «إله حق من إله حق»، المسيح هو ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور أي لم يكن وقت وجد الله الآب فيه بلا ابنه.

ـ مولود غير مخلوق أي ليس له بداية.
ـ مساوٍ للآب في الجوهر.
ـ مساهم في الخلق «الذي به كان كل شيء».

ويلي هذا الدستور في مقررات المجمع الملاحظة التالي: «كل من يقر بأنه كان وقتٌ لم يوجد فيه الكلمة وأن الابنَ خلقَ من العدم أو

من أي مادة أخرى، وأنه مخلوق متغير أو متبدل، فالكنيسة تبسله إبسالاً».

وقد أكمل الدستور في المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية فيما بعد.

حياة اثناسيوس*

لم يمضِ وقت طويل حتى نال آريوس رضى الأمبراطور. وللبرهان على صدق نيته وقّع على دستورٍ آخر مشبوه يقترب من دستور نيقيا وظن أن الانتصار قريب، فأخذ يهيىء نفسه للرجوع الى الإسكندرية. في هذه الأثناء انتخب اثناسيوس أسقفًا على مدينة الإسكندرية سنة ٣٢٨ وبالإجماع الشعبي رغم المعارضة الآريوسية ومناصريها، فملأ الفرح المدينة بأسرها وقرعت أجراس الكنائس. فابتدأ بزيارة أبرشيته لا سيما صحراء مصر حيث التقى بالأنبا باخوميوس St Pacôme وهو مؤسس الرهبنة «الجماعية» Cénobitique. وكان باخوميوس يحترم الأسقف الجديد ويسميه «أبا الإيمان القويم». إلا أن الأحوال تأزمت وخاصة عندما رفض اثناسيوس بعزم دخول آريوس الإسكندرية.

ازدادت الشكاوى ضدّ اثناسيوس وكان من نتيجتها عقد مجمع في صور سنة ٣٣٥ كان فيه كل أعدائه على موعدٍ ليقهروه. وتحولت المشكلة الى مشكلة وطنية إذ ادّعى الحاضرون أنه يريد منع شحن القمح من الإسكندرية الى القسطنطينية متذرّعين بشتى الأكاذيب.

نفي اثناسيوس نتيجة مقررات مجمع صور الى مدينة Trèves في المانيا سنة ٣٣٥ وتوفي آريوس سنة ٣٣٦ تاركًا لأتباعه الهراطقة مطاردة بطلنا هذا وأهمهم أسقف نيقوميديا.

* انظر ص ٩٥

بعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧

بقي اثناسيوس بلا خلف وكرسي الإسكندرية شاغرًا الى أن توفي قسطنطين وتولى مكانه ولداه:

- كونستانس الثاني Constance II على القسم الشرقي وكان يميل الى الآريوسية.
- وكونستان Constantعلى القسم الغربي.

سمح الأمبراطور الشرقي، بعد مفاوضات، أن يعود أسقف الإسكندرية الى أبرشيته. فعاد وازداد نشاطه في هذه الفترة واستعان بأباء الصحراء الذين دعموا نشاطه بالصلاة والنفوذ. أما أسقف نيقوميديا، الذي خلف آريوس في عداوته للبارّ اثناسيوس فلم يفتر حقده فعقد مجمعًا في أنطاكيا سنة ٣٣٩ اشترك فيه عدة أساقفة قرروا خلع اثناسيوس فعينوا مكانه غريغوريوس الكبادوكي الذي دخل الى الإسكندرية بمعاونة فرقة من الجيش واقتحم الكنيسة اقتحامًا وسط معارضة شعبية عنيفة. لجأ حينئذ اثناسيوس الى روما حيث التقى البابا يوليوس وهو إنسان تقيّ وعادل والذي جمع مجمعًا يضم ١٠٠ أسقف برأ أسقفنا القديس من كل التهم، ومجمعًا آخر في سرديقية سنة ٣٤٣ أعاد الى اثناسيوس حقوقه الشرعية.

تدخل أمبراطور الغرب لدى أخيه ليعاد اثناسيوس الى أبرشيته ولتنفيذ مقررات المجمع المذكور، إلا أن الأمر لم يحلّ إلا بعد وفاة غريغوريوس الأسقف البديل سنة ٣٤٦ حيث عاد أثناسيوس منتصرا الى مدينته.

عشر سنوات راحة

كل مؤلفات اثناسيوس اللاهوتية تعود الى هذه الفترة الهادئة. بالنسبة لحياته الأسقفية تُعدُ هذه السنوات مرحلة خصب روحي وازدهارِ رعائي في كل المجالات لمدة عشر سنوات. ولكن

سنة ٣٥٠ مع وفاة البابا يوليوس وأمبراطور الغرب أصبح كونستانس الآريوسي وحده حاكمًا على الأمبراطورية كلها. تنفس الصعداء أعداء اثناسيوس وعادوا يتآمرون. عُقِد مجمعان في Arles سنة ٣٥٣ وفي ميلانو سنة ٣٥٠. وطلب الأمبراطور من الأساقفة أن يوقعوا على حكم ضد اثناسيوس وإلا اختاروا النفي. أما البابا ليبريوس أسقف روما الذي أبى أن يوقع فقد نفي الى حدود بلغاريا. وهكذا نلاحظ أن تعاون الشرق والغرب في الكنيسة كان رائعًا.

حُكِمَ على اثناسيوس بالنفي للمرة الثالثة وانتخب مكانه أسقفٌ مشاغب اسمه جيورجيوس. ولكن هذا القرار لم ينفذ في الإسكندرية إلا بمساعدة فرق الجيش وسط ضوضاء شعبية عظيمة. والعجيب أن اثناسيوس تمكن من الفرار بمساعدة إلهية الى الصحراء قبل أن تنفيهِ السلطة، فطاب له السكن مع النساك. إلا أنه بقيَ يدير شؤونَ رعيتِهِ من بعيد حتى لُقِّب بـ: «البطريرك المخفي عبر القفر».

مجمع ريميني

أثناء غياب اثناسيوس أخذ الأمبراطور يشنُّ حملة اضطهادات واسعة على كل من بقيَ على إيمان نيقيا والتأمت مجامع ضمت كل الهراطقة الذين حاولوا أن يحرقوا دستور الإيمان ويشوهوه. منها مجمع في مدينة ريميني في الغرب وآخر في سلوقيا في الشرق سنة ٣٥٩. وارتفع صوت هيلاريون البارّ Hilaire de Poitiers في الغرب الذي لقب بـ«أثناسيوس الغرب» للدفاع عن إيمان نيقيا ولكنه نفي مع الكثير من الأساقفة المعارضين. وبقي الأمر كذلك حتى وفاة الأمبراطور كونستانس سنة ٣٦١ ونادت كتائب الجيوش المنتصرة في غاليه بيوليانوس كقيصر جديد ودخل الى القسطنطينية.

نهاية حياة اثناسيوس

عاد اثناسيوس الى الإسكندرية في السنة التي تولى فيها هذا

الأمبراطور الحكم إذ سمح لكل المنفيين بالعودة الى بلادهم. وبقي في أبرشيته حتى وفاته سنة ٣٧٣. وخلال هذه الفترة (١٢ سنة) أبعد أيضًا مرتين عن مدينته. ما إن علم الشعب بخبر عودته سنة ٣٦١ حتى هجم على الأسقف جورجيوس ولولا الشرطة لأرداه قتيلاً. وما إن وصل اثناسيوس حتى دعي مجمع المعترفين لتثبيت مجمع نيقيا. ولكن الأمبراطور يوليانوس الذي حاول أن يعيد تراث الوثنية (ولذلك دعاه التاريخ المسيحيّ يوليانوس الجاحد Julien l'Apostat والمؤرخون سموه يوليانوس الفيلسوف)، غضب من نشاط اثناسيوس التبشيري فأمره بترك المدينة فورًا سنة ٣٦٢ ، وألا يقاصص بقساوة. فهرب عندئذٍ الى الصحارى من جديد وهناك تعرف عن كثب على القديس العظيم انطونيوس الكبير. وكم كان هذا الاحتكاك عظيمًا ومثمرًا. لحظة تاريخية جمعت بطلين، بطل الكفاح الدنيوي وبطل الصلاة الرهبانية. وهكذا بقي انطونيوس طيلة حياته الصديق الأمين لبطريرك الإسكندرية. قتل يوليانوس سنة ٣٦٤ فعاد اثناسيوس ثانية الى مدينته ومع ولاية ڤالنس Valens الآريوسي اضطر أيضًا الى الهرب للمرة الخامسة! وكانت هذه آخر مرة ينفى فيها من أبرشيته. وأخيرًا ولأسباب نجهلها أعيد الى الإسكندرية نهائيًا هذه المرة. فواكبه الشعب من مكان انعزاله الى كرسيه بجمهور عظيم وبقي فيه الى آخر أيامه. وهكذا انتهت حياته بسلام بوفاته سنة ٣٧٣.

كانت حياته حياة مناضل لم يعرف التاريخ الكنسي مثله. غطت حوادث حياته معظم أحداث القرن الرابع، رافق عدة حكام، تفاعل مع أحكامه بحكمة ورباطة جأش. ترك الدنيا وذهب بفرح لمناجاة المسيح الكلمة الذي كرس حياة بكاملها للدفاع عن ألوهيته بعد أن قضى عشرين سنة في المنفى على مدى ٤٦ عامًا من الأسقفية.

إلا أن النصرَ النهائي لم يحصل إلا بعد وفاته بسبع سنين عندما فرض الأمبراطور تيودوسيوس إيمان نيقيا على الأمبراطورية بكاملها وهكذا طويت صفحة الآريوسية عبر التاريخ. . .

مؤلفات اثناسيوس

إن حياة اثناسيوس المضطربة لم تَحُلْ دون انتاجِه الفكري. لقد تركَ مؤلفات عديدة محورُها كلها العبارة «محبة المسيح فوق أي شيء آخر». أما منهجه اللاهوتي فيتمركز دائمًا حول شخص المسيح. نشعر أن في كتاباته حاسة مميزة لا تخطىء تميز التعليم الكنسي التقليدي من الهرطقة. لاهوته هو لاهوت الخلاص والفداء والتجسد. وبذلك حوّل اثناسيوس نظرة الفلاسفة من «لوغوس» الفلسفة الى «لوغوس» انجيل يوحنا ومن «إله الفلاسفة» الى «الإله المعلَن في يسوع المسيح». لن نعدد كل مؤلفاته بل نذكرُ أهمها: كتاب «ضد الوثنيين»؛ كتاب في «تجسد الكلمة»؛ «احتجاج ضد الآريوسيين»؛ «دفاع عن مجمع نيقيا»؛ «حياة انطونيوس الكبير». له عدة رسائل الى الرهبان والأساقفة وواحدة الى الأمبراطور جوفيان. له عدة مؤلفات عقائدية في الثالوث وفي الروح القدس وفي التجسد وفي الايمان وفي شرح المزامير وفي إنجيل متى وإنجيل لوقا، وغيرها. وله كتاب في البتولية. وكان الاهتمام شديدًا في القرن السادس لجمع كتاباته بأية وسيلة حتى أن أحد الرهبان كان ينصح تلميذه بأن ينسخ في الحال أي شيء يصادفه من أعمال اثناسيوس وإذا لم يتيسر له ما يكتب عليه فليكن ذلك على ملابسه.

تعليمه

إن مؤلفات اثناسيوس تختلف عن مؤلفات آباء القرن الرابع من حيث جمال اللغة والاسلوب. ولم تأتِ بالغنى والمبنى والتعبير الصحيح واللاهوت المنظم الذي أتت به مؤلفات آباء النصف الثاني من القرن الرابع. إنما في عصره تفوق على الجميع ومهّد الطريق لهؤلاء الذين أتوا من بعده. أما اللاهوت الذي نستخلصه من كتاباته فهو سهل واضح: اثناسيوس لم يكتب من أجلِ جمال اللغة وإبراز جمال الإنشاء وتنميقِ الكلمات واختيارها من أجل البديع.

المؤلف مقتنع ويريدُ الإقناع فقط. يردد ويردد ثمّ يعود الى فكرتِه الأساسية ليثبتها: بالنسبة اليه التجسد هو أساس المسيحية. ملخصُ تعليمِه كما يلي:

أحبَّ الله الانسان ولم يشأ أن يتركه في سقطتِه. أراد أن يعطيه حياة أبدية. توبةُ الإنسان لا تكفي. المصالحة تقتضي ذبيحة كاملة... تقتضي تنازلاً كليًا... التحامًا وثيقًا بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية. هذا ما حققه الله بواسطة كلمته.

لو فتش آريوس عنِ الحقيقية بكل إخلاص لوجدها، ولكنه فضّل مصلحته الشخصية وآراءه الخاصة. لو قرأ الكتب لوجد الأدلّة الكافية التي تثبت ألوهية المسيح وفهم معنى العبارة «والكلمة صار جسدا وحل بيننا». سر التجسد يفوق منطق الفلاسفة لأن المسيحية لا تبرز الإله كمنزَّه عن المادة بل إلهًا قدَّس المادة بتجسده، إلهًا لم يحتقر إذن المادة بل اتخذ له جسدًا في أحشاء العذراء مريم، ولكن بدون أن ينفصل عن ألوهيته. «بتجسده لم يتغير بل بقي على جوهره» يقول اثناسيوس.

وكما أنه بسبب علاقتنا بآدم الأول ورثنا الموت، كذلك بعلاقتنا مع الإنسان النازل من السماء انتصر بنا على الموت وورثنا الحياة. فالخلاص بالنسبة لأثناسيوس خلقٌ ثانٍ، ولادةٌ جديدة تجعلُنا أبناء الله فيقول «بتجسده جعلنا أبناءَ الآب وألّه الإنسان عندما صار هو نفسه إنسانًا». لاهوت التجسد عنده هو اللاهوت الكنسي الأصيل إذ يقول أن المسيح أخذ على عاتقه هذا الجسد المائت ليرفع بطبيعته الإنسان الخاطىء الى الله الآب ويُشركهُ... في الطبيعة الإلهية الخالدة.

من خلال كل مؤلفات اثناسيوس نشعرُ بهذا الإيمان العميق الثابت المبني على الكتاب المقدس وشخص المسيح. لا يتمادى في التأمل اللاهوتي. إنه رجل عملٍ ونشاط يتحلى باتزان عميق. يكتب

من أجل التعليم والدفاع عن العقيدة. كل من لا يؤمن بالمسيح الإله المتجسد يثير غضبه. فالنتيجة المنطقية من تعليم اثناسيوس هي أن المسيحية تهدفُ الى التقشف الذي يطهّر الجسد وينقي النفس ويسمو بها الى الحياة في إطار الثالوث الأقدس.

فإذا اتحدنا بالمسيح على حد قوله وصلنا الى نقاوة القلب وإذا ما تقشفنا وصلنا الى معرفة الله ودخلنا في محبته. ولذلك يشجع اثناسيوس على الحياة الرهبانية. أما الثالوث فهو حقيقة واقعية حاضرة عنده لا أفكار لاهوتية فقط. الثالوث يحرك كيانه محبةً ويضرمه. اثناسيوس لا ينتمي الى مدرسة فلسفية. وطنه الروحي هو الكنيسة، وشخصيته تكونت في مكاتب الإدارة الأسقفية. إنه حرر اللاهوت المسيحي من أفلاطون ونظرياته وبناه على تجسد المسيح. عندما أوشكت الكنيسة أن تتزعزع من أساسها كانت بأمسّ الحاجة الى أبطال. اثناسيوس كان هذا البطل.

تواريخ مهمة في حياة اثناسيوس

سنة ٢٩٥	ولد في الاسكندرية
سنة ٣١٨	رسم شماسًا
سنة ٣٢٥	مجمع نيقيا: رافق الاسقف الكسندروس اليه
سنة ٣٢٨	اثناسيوس أسقف على كرسي الاسكندرية
سنة ٣٣٥	نفي لأول مرة الى مدينة تريف Trèves في المانيا
سنة ٣٣٦	وفاة آريوس واستمرار الآريوسية
سنة ٣٣٧	وفاة قسطنطين. أثناسيوس يعود من منفاه.
سنة ٣٣٩ ـ ٣٤٦	نفي للمرة الثانية الى روما Constance IIكونستانس الثاني. Constant كونستان امبراطور الغرب
سنة ٣٤٦ ـ ٣٥٦	فترة هدوء وخصب روحي
سنة ٣٥٠	وفاة كونستانس محبذ اثناسيوس وحاميه
سنة ٣٥٦ ـ ٣٦٢	يفرّ الى الصحراء للمرة الثالثة.
سنة ٣٦٢	عاد الى الاسكندرية: عقد مجمع المعترفين نفي للمرة الرابعة ٨ اشهر الى الصحراء في أيام يوليانوس
سنة ٣٦٥	نفي للمرة الخامسة لمدة خمسة أشهر في جوار الاسكندرية
سنة ٣٧٣	وفاة اثناسيوس

الفصل العاشر

القرن الرابع وتنصر قسطنطين الأول

لمحة تاريخية

عهد ديوكليسيانوس والحكم الرباعي

المسيحي الذي عاش في بداية القرن الرابع شعر بأن الجحيم فتحت أبوابها لتبتلعه، شعر بأن نهاية المسيحية على الأبواب وأن الأمل في حياة هادئة يتلاشى. الإضطهاد يعمّ كل انحاء المملكة. الخوف والرعب مسيطران على النصارى. يُطاردون من كل جهة لإجبارهم على إنكار دينهم. كثيرون من المسيحيين ومن كل سن وجنس وحالة إجتماعية أحرقوا بالنار أو أُغرقوا في البحر، تحملوا الجلد والتعذيب والسجن وقطع الهامات، وتنوعت وسائل التعذيب وتفنن الظالمون في هذا المجال: صُلبَ بعضُ الشهداء على صلبانٍ رُؤوسهم الى أسفل. افساقيوس المؤرخ الذي وصفَ بدقة هذه المرحلة يعطينا بالتفاصيل وصفًا لشتّى وسائل العذابات منها أنهم كانوا يربطون النساء بإحدى أرجلهن ويعلقونهن في الهواء ورؤوسهن الى أسفل، وأن في الإسكندرية ضرب البعض بالعصي والبعض الآخر بالأسواط وغيرهم بالحبال المجدولة الخ. . . حتى أنه بلغ عددُ القتلى أحيانًا من عشرة أشخاص إلى مائة شخص في اليوم الواحد. ولذلك

في هذا الجو من الهول والرعب لم يكن المسيحيون يتوقعون المفاجأة التي حصلت سنة ٣١٣م والتي أثبتت أن أبواب الجحيم لم تقوَ عليها كما قال المسيح. أي عندما أوقفت الإضطهادات. والمفاجأة الثانية كانت تنصُّر قسطنطين والدولة معه وكيف أن المسيحية، بفعل عصا سحرية وبعد كل هذه السنين من الألم والمعاناة، تصبح دين الدولة! فالمسيحي الذي عاش هذه التطورات ذُهل وفهم معنى الموت والقيامة وأدرك ما معنى النزول الى الجحيم والصعود منها. الكنيسةُ عاشت هذا الحدث كمعجزة حقًا، وكثُرَ الكلام على هذه الفترة واجتهد المؤرّخون في التحليل وكثرت النظريات ورافقت حياة قسطنطين الأول الأساطير والحكايات.

كيف كان الحكم في أوائل القرن الرابع؟

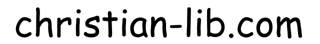
دُشّنَ القرن الرابع بحكم ديوكليسيانوس الذي يعتبر حكمه مرحلة انتقال بين روما القديمة وروما الجديدة. مرور الحكم من الغرب إلى الشرق. في هذه الفترة كانت روما كمدينة قد بدأت تفقد أهميتها في الأمبراطورية الجديدة. أصبح للحكام إقامات ثانوية منها نيكوميديا في آسيا الصغرى حيث كانت إقامة ديوكليسيان والتي وقّع فيها مرسوم سنة ٣٠٣م بخصوص اضطهاد المسيحيين. ولذلك مثّل اسقفها اقساقيوس فيما بعد الدور المهمّ في حوادث حياة اثناسيوس نظرًا لأهمية تلك المدينة في بداية هذا القرن. تلاشت قيمة العاصمة ليحلّ محلها إقامات حكومية مؤقتة. بداية القرن الرابع تكون آخر إنتفاضة للدين الوثني قبل إحتضاره النهائي. مع أن الإحتضار في الواقع كان للنصرانية. **ديوكليسيان** لم يحكم وحده في هذه الفترة ولم يكن هو هذا الحاكم الظالم المستبد بل من شاركه الحكم. وبما أن مملكته كانت شاسعة وكانت تتوالى على حدودها الهجمات البربرية «الجرمان» المستمرة رأى أنه من الأفضل أن يختار مساعدًا لع أحد قواده الشجعان مكسيميان الذي لقبه بإسم اوغست وسلمه القسم الغربي من المملكة. وفيما بعد عَيّن مساعدين آخرين بلقب «قيصر»



قسطنطين الأمبراطور

هذا التمثال موجود في متحف اللوفر في باريس

أنظر ص ٩٧


christian-lib.com

كونستانس كلور (والد قسطنطين الكبير) على بريطانيا وغاليا وإسبانيا وغالير على ايليريا، وارتبط مع هذا الأخير فزوّجه إبنته ڤاليريا.

إذن كـــان أربعـة حكـام يترأسهـم ديـوكليسيـانـوس كمـا يلي:

بلقب اوغست	اوغست	بلقب قيصر	قيصر
ديوكليسيانوس	مكسيميانوس	غاليريوس	كونستانس كلور
في الشرق	في الغرب	في ايليريا (البلقان)	في بريطانيا وغاليا واسبانيا
مقره نيكوميديا	مقره في ميلانو	صهر ديوكليسيان	هو والد قسطنطين الأول

ديوكلسيان نفسه لم يكن هو الذي أثار الإضطهادات مع أنه شخصيًا من أتباع الديانة الوثنية، ولكن بما أنه كان عادلاً وحكيمًا كان يرى ويقدر تصرف النصارى الذين كانوا يؤلّفون خيرة رعاياه. فالمجتمع المسيحي كان يختلف تمامًا عن المجتمع الوثني. المحبة الأخوية المتبادلة كانت العلامة الأولى المميزة في حياة المسيحيين بغضّ النظر عن الطبقات الإجتماعية، محبة تعبّر عن نفسها بالمساعدات المالية للمحتاجين كما كانت الحالة في أيام الرسل (أعمال ٤ : ٣٢ - ٣٥). فالغريب المسافر من كنيسة الى أخرى والفقراء والمرضى والشيوخ والأرامل والأيتام وجميع المتألمين كانوا يجدون مساعدة ومساندة عند المسيحيين. يصف القديس ديونيسي الإسكندري سلوك المسيحيين المفعم بالمحبة التي ظهرت أيام تفشي مرض الطاعون ويقارنه بسلوك الوثنيين فيروي أن المسيحيين كانوا يزورون المرضى بلا خوف ويعتنون بهم ويخدمونهم بلا ملل من أجل المسيح بينما الوثنيون كانوا يطردون مَن دَبَّ فيه المرض ويهربون من أقرب أحبائهم ويطرحونهم في الشارع نصف أموات خوفًا من العدوى ويتركون موتاهم بلا دفن. زد على ذلك رحمة المسيحيين مع العبيد، إذ انه في الإجتماعات الكنسية كان السادة والعبيد متساوين تمامًا وطبعًا تقشفهم وطهارة آدابهم، إذا قيست بفجور الوثنيين، كانت

تفرض الإعجاب. كل هذه الخصال جعلت من المسيحيين طبقة مميزة فرضت الإحترام حتى لدى الوثنيين والحكام.

كونستانس كلور كان هو أيضًا إنسانًا رحومًا، صالحًا، محترمًا. ويُقال أن زوجته غير الشرعية هيلانه كانت تنتمي الى المسيحيين في هذه الحقبة، وكان ينظر الى المسيحيين بتجرد ويحترمهم لثباتهم في الإيمان ولإخلاصهم للدولة. ولذلك خفف من وطأة الإضطهادات في مقاطعاته.

عكسه كان غاليريوس الذي وجد في الحزب الوثني المتعصب دعامة متينة، فوقف على رأس هذا الحزب وكان مستعدًا أن يمحو المسيحيين بالنار والسيف لو أن السلطة كانت كلّها بيده. ولكنّه كقيصر خاضع لعمه ديوكليسيان لم يستطع أن يفعل شيئًا. أما عندما شاخ هذا الأخير ومرض فقد ضغط عليه وجعله يوقّع مرسوم الإضطهاد في سنة ٣٠٣.

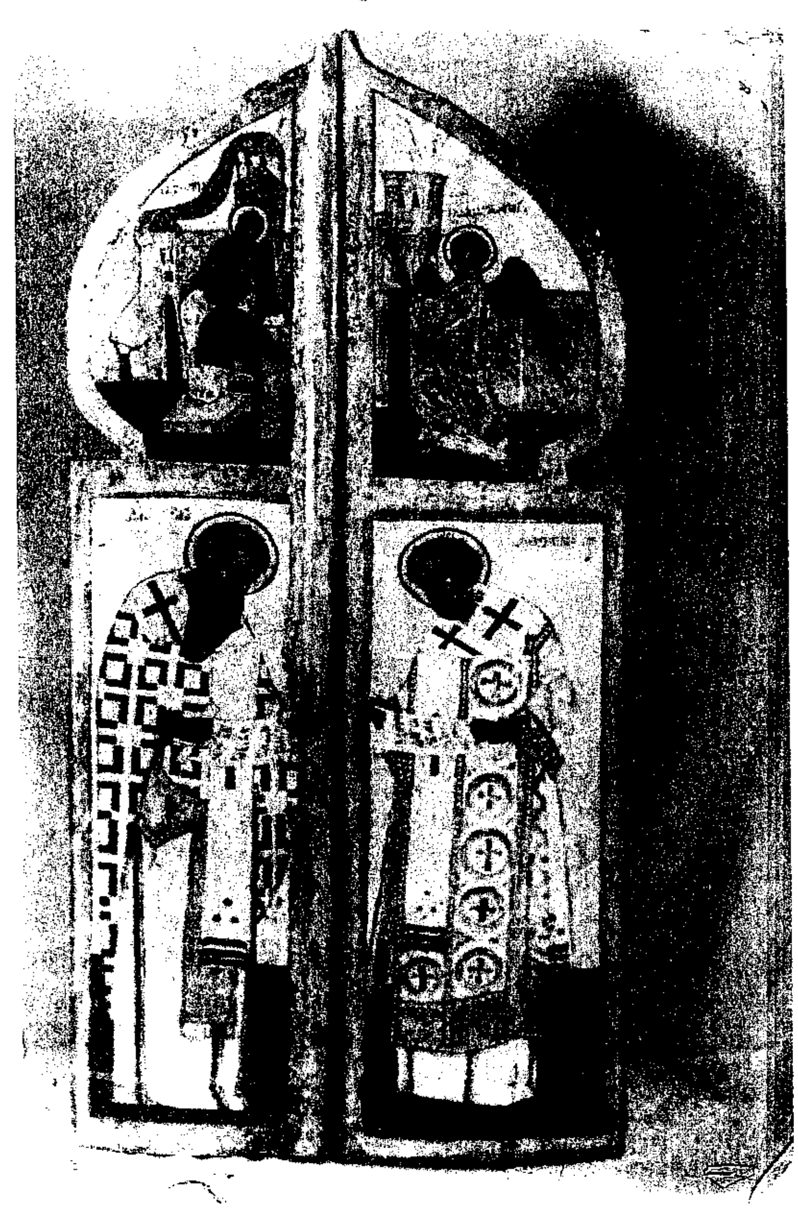
أمّا مكسيمينيانوس فكان مستعداً لاضطهاد المسيحيين لأنه كان جنديًا خشنًا ولم يدخل في اعتبارات سياسية تهدف الى التخفيف من القلاقل الداخلية كديوكليسيان والسعي الى فرض الهدوء والأمن. والذي كان يزعجه كثيرًا هو وجود عناصر مسيحية في جيشه إذ كانوا مخالفين للنظام الحربي برفضهم تقديمهم ذبائح وثنية.

قسطنطين ينفرد بالحكم ويوحّد الدولة

بعد وفاة كونستانس كلور سنة ٣٠٦ خلفه ابنه قسطنطين القائد الشجاع إذ أعلنه جنودُه اوغست على الغرب وهكذا برز على المسرح السياسي.

خفّت وطأة الإضطهادات في الغرب لأن قسطنطين الأول تابع سياسة أبيه المسالمة في هذا النطاق. أما بعد موت مكسيميان خلفه ابنه مكانس الذي لم يتبع خطة والده في البداية في رتبة اوغست على

باب ملوكي



باسيليوس الكبير ذو اللحية الطويلة بحلته الأسقفية يتصدر الكنيسة مع القديس يوحنا الذهبي الفم. هذا الرسم الروسي يعود الى القرن السادس عشر.

أنظر ص ١٠٧

الغـرب. وبقـي غـالير على الشرق ومعـاونـه القيصر مكسيمـان دايـا اللـذيـن استمـرّا في الإضطهـادات حتـى قبيـل وفـاة غـالير الـذي اقتنـع بعـدم فـائـدة هـذه الطـريقـة الشرسـة، فـاختـار أحـد قـواده المسمـى ليسينوس خليفةً له، وأصدر معه ومع قسطنطين مرسومًا سنة ٣١١ أوقف بموجبه الإضطهادات. وسيستند قسطنطين فيما بعد على هذا المرسوم بالذات ليحقق طموحاته في الحكم. وهكذا تحرر المسيحيون من المطاردة وعادوا من المنافي وأخذت الخدم الإلهية تُقام من جديد وازدادت شعبية قسطنطين في الشرق لدى المسيحيين. إذن سنة ٣١١ بعد وفاة غالير أصبح المربع الحاكم كما يلي:

ليسينوس	مكسيمان دايا	قسطنطين الأول	مكسانس
اوغست	قيصر	اوغست	قيصر
في الشرق	في سوريا ومصر	في الغرب	في ايطاليا وافريقيا

فلكي يتفـرد قسطنطين في الحكـم، كـان عليـه إن يتخلـص من ثـلاثـة حكـام منـافسين: مكسـانـس، مكسيمـان دايـا وليسينـوس. سنة ٣١٢م إنتصر على مكسـانس تحت أسـوار رومـا في معـركـة جسر ملفيوس Melvius. ويروي التقليد الكنسي أن قسطنطين قبل معركته هـذه ظهـرت لـه رؤيـا عجيبـة: رأى الصليـب محاطًا بهالـةٍ من نـور وسمع صوتًا يقول: «بهذه العلامة ستغلب»، ممّا ثبت قسطنطين في عزمِه على قبول المسيحية والإفصاح علنًا عنها. والمعروف أنه دخل في نزاع مع خصمه بسبب تطبيق مرسوم ٣١١ لصالح المسيحيين الذي لم يبالِ بـه مكسـانـس. وهكـذا بعـد أن خسر المعـركـة وانتحـر آخـر أمبراطور في روما ورمى بنفسه في نهر التيبر، أصبحت مدينة روما عاصمة المسيحية منذ ذلك الحين. وأمر قسطنطين بعد هذا الإنتصار أن يـوضـع لـه تمثال في رومـا والصليـب في يمينـه مع الكتابة التـاليـة «بهـذه العـلامـة الخـلاصيـة، برهـان الشجـاعـة، أنـا خلصـت وحـررت مدينتكم من نير الظالم».

وفي سنة ٣١٣ ظهر في مدينة ميلانو منشور وقّعه قسطنطين الأول مع حاكم الشرق ليسينيوس، سمح بحرية الدين لكل إنسان في الأمبراطورية وسمح بحرية التحوّل الى المسيحية لكل من يشاء. إلّا أن ليسينيوس الذي عُرف في التاريخ بشراسته واستبداده، وقّع المنشور مرغمًا. ولكي يثبت نفسه في الحكم السنةَ نفسَها استنند معاونه في الشرق دايا فحاربه وانتصر عليه واستولى على ممتلكاته ولم يبقَ أمام قسطنطين سوى منافس واحد وهو ليسينيوس في الشرق والذي كان يغتنم الفرصة للتخلّص منه. بقيت الحالة هكذا منافسة بين العاهلين لمدة عشر سنوات حتى سنة ٣٢٣. وسبب الخلاف هو أن حاكم الشرق أخذ يضغط على المسيحيين في مقاطعاته ويسيء الظن فيهم لأنهم كانوا يميلون الى قسطنطين. وحصلت معركة كبيرة بين الحاكمين قررت نهائيًا قضية المسيحية في الشرق وطوت صفحة مهمة في التاريخ. وكان ليسينيوس يأمل بأن يهزم خصمه ومن بعده كان مصممًا ان يعلن الحرب على المسيحيين. ولكنه انكسر في عدة معارك وقتل على أيدي جنود قسطنطين بعد معركة Chrysopolis (كريزوبوليس)

حينئذٍ أصبح قسطنطين الأمبراطور المطلق للشرق والغرب للأمبراطورية اليونانية - الرومانية، ثم أعلن في مرسوم أنه يرغب في أن يكون كل الخاضعين له مسيحيين، فاعتنق للحال المسيحية الكثير من الوثنيين هكذا بدون تهيئة، إلّا أنه لم يضطهد أحدًا منهم. ثم منح الكنيسة إمتيازات وقدّم لها هبات قيمة وشيّد عدة كنائس وخاصة في فلسطين، وسهّل للمسيحيين الوصول الى وظائف ومراكز ذات أهمية في الدولة. وكانت أُمه هيلانه مساعدة مخلصة له في هذا العمل. ويروى أنها فتشت على عود الصليب فوجدته في أورشليم سنة ٣٢٥ مخفيًا في الأرض.

ثم قرر قسطنطين هجر روما الوثنية في سنة ٣٣٠ ونقل عاصمتَه الى مدينة بيزنطيا على الضفة الغربية من البحر الأسود فدُعيت بأسمه قسطنطينية. وطبعًا لهذا الإنتقال أسباب سياسية منها:

أهمية الشرق في الأمبراطورية واقتراب بيزنطية من حدود الدانوب حيث الضغط البربري المتكاثف، وموقع المنطقة الستراتيجي هذه منطقة التي تسمى بالقرن الذهبي وهي شبه جزيرة قابلة للتحصين. ولكن كان لهذا العمل فيما بعد عواقب خطرة على العالم المسيحي، فأنه عجّل في انفصال الغرب الروماني عن الشرق اليوناني وهدد بانقسام المسيحية الى فئتين أصبحتا مع الوقت غريبتَين إحداهما عن الأخرى.

تنصُّر قسطنطين توبة حقيقية أم مصلحة سياسية؟

نظرة المؤرخ الكنسي لقسطنطين مختلفة عن نظرة المؤرخ السياسي. لم يكن قسطنطين ذلك الإنسان التقيّ الورع الذي صوّره افسافيوس المؤرخ والذي يبرزُ حسناته ويسكتُ عن أخطائه التي كانت جسيمة ولم يجهلها سائر المؤرخين. لا شك في أنه يستحق لقب «الكبير» وهذا يعود الى أهميته من الناحية السياسية وعبقريته كرجل دولة لا لأسباب دينية فقط. الصورةُ المثاليّة التي أعطتها الكنيسة لقسطنطين لها مبرراتها فلا عجب من ذلك، فهو نقلَها من الجحيم الى السلام وعَزّزها ورفع شأنها، ولذلك غضّت النظر عن سلبياته وسلّطت الأضواء على ايجابياته وكانت كثيرة. لا ينكرُ أحد أن سلوك أمه القديسة هيلانة في بلاطه كانت قدوة حسنة وأنها هي التي كانت تحثه على الإهتمام بالكنيسة والتوبة. فالإعتراف الشرعي بالكنيسة كمؤسسة دولة هو منطلق عظيم في التاريخ ولكن يبدو أنه بحسب بعض المؤرخين في البدء لم يكن السبب الرئيس لهذا التحول هو تعاطف قسطنطين مع الدين المسيحي كما زعم البعض، وإنما تبصر الأمور لرجل دولة حريص على مصلحتها: أدرك فائدة انضمام شعب يمثل قوة مهمة الى دولته وقفت بشجاعة أمام هجمات الإضطهادات وبقيت صامدة مما فرض إحترامها. على كلّ حال، مما لا شك فإنّ معركة جسر ملفيوس هزت كيانه ودفعته الى مساندة الكنيسة.

وهكذا بعد أن استولى قسطنطين على كل السلطات، ترأس

المجمع المسكوني الأول الذي تكلمنا عليه، بالضبط ليظهرَ علانيةً تسلط الدولة على المؤسسةِ الدينية، وهكذا وُلدت روما جديدة استبدلت الوثنية التي تلفظُ أنفاسَها، بالمسيحية النابضة بالحيوية والقوة. إلاّ أن سنة ٣٢٦ كانت سنة مؤسفة في حياته ارتكب فيها جرائم أنّبته الكنيسة الممثلة بأسقفهاعلى هذا التصرف. فهل تاب حقيقة الى الله «فاحص القلوب والكلى؟» الشيء الأكيد هو أنه اعتمد على فراش الموت، والذي عمّدهُ كان أسقف نيكوميديا الذي حارب اثناسيوس القديس بشراسة كما ذكرنا في الكلام عن اثناسيوس والمهم ان كانت نهايته نهاية انسان مؤمن تائب ولذلك رفعته الكنيسة الى رتبة القداسة.

القرن الرابع بالنسبة للكنيسة

بالنسبة للأدب الكنسي، هذه الفترة الممتدة من بروز اثناسيوس حتى وفاة أوغسطين تعدُّ من أخصب الفترات فكريًا ولاهوتيًا وأدبيًا. عصر تألق بأسماء تفتخر بهم الكنيسة وتعتبرُهم عباقرةً في تاريخها، لأنهم تركوا مؤلفات رائعة. ففي الشرق بعد اثناسيوس تسلّم المشعل الثالوث الكبادوكي المؤلف من باسيليوس الكبير وأخيه غريغوريوس وصديقه غريغوريوس اللاهوتي، وهم ينتمون الى منطقة كبادوكيا في آسيا الصغرى والتي قال فيها غريغوريوس النيصصي: «التقوى الحقيقية نجدها في كبادوكيا أكثر من أماكن الحج...» كتب هذا عندما زار أورشليم. ففي هذا العصر حيث ارتاحت الكنيسة من الإضطهادات، أخذت تجذب إليها وتستقطب كل الطاقات الحية الفكرية في الشرق كما في الغرب.

كان لهؤلاء الآباء تأثيرٌ عظيمٌ في الكنيسة. حتى أنه في بداية القرن الثاني عشر أخذ المؤمنون يتنازعون ويتحزبون لآباء القرن الرابع. وكان ليوحنّا الذهبي الفم شهرة عظيمة فاستبدل الثالوث الكبادوكي بثالوث آخر عرف بالأقمار الثلاثة: باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي والذهبي الفم. فقد عينت لهم الكنيسة عيدًا

خاصًا في ٣٠ كانون الثاني بفضل حكمة اسقف القسطنطينية آنذاك الـذي اقترح أن الثـلاثـة متسـاويـن في المجـد والمـرتبـة ليضـع حـدًا للنزاعات الحاصلة. وهكذا ارتبطت أسماء هؤلاء الثلاثة العظام الى الأبدية. إلّا أن ثمة غريغوريوس النيصصي لا يقل أهمية عنهم كما سنرى في الفصل الثاني عشر.

الفصل الحادي عشر

باسيليوس الكبير

٣٢٩ ـ ٣٧٨

هول المجاعة

مقطع من عظة باسيليوس السادسة

كيف أصف لكم معاناة البائس؟ كيف أروي لكم مصيبته؟ ها هو إنسان أدّى به الفقر الى حالة يأس قصوى فهو لا يستطيعُ أن يؤمنَ قوتَ يومه، وشبحُ الجوع يهددُ أبناءه. بعد أن راجع حساباته وعدَّ كل ما يملكه وجد أن كل شيء زهيدُ الثمن. محتويات بيته لا قيمة لها. ثيابه، مقتنياته، ثمنها لا يتجاوز الدريهمات. ولكن، ما العمل؟ كيف سيشتري خبزًا ليطعم ذويه؟ أخذ يفكر، فكّر مليًا وفتش عن حلولٍ فلم يجدها. إلتفت الى أولاده الذين كانوا ينظرون اليه بثقة وأمان، وعلامات الإستفهام ظاهرة في نظراتهم الحزينة. أخذ يرتجفُ أمام هذه الفكرة التي راودت ذهنَه. لا! لن يلجأ الى هذا الحل الفظيع! تساءل بحزن: أيذهب بأولاده الى سوق بيع العبيد؟ كلا! ولكنْ واقعُه مريرٌ ولا مالَ عنده ولا أمل في الحصول عليه. قد يقتني بهذه الطريقة المأساوية موردًا يخلّصه من الموت الأكيد.

تأملوا هذا النزاع الحاصل في قلبِ هذا المسكين، نزاعٌ بين العاطفة الأبوية وعذابُ الجوع! الجوعُ يهدد بالموتِ القريب الهائل الذي ينتظرُه وأما تعلقُه بأولاده فيدفعُه الى الموت معهم بدل أن ينسلخَ عن أحدهم. أخذت الأفكارُ تتقاذفه من جهة ومن أخرى فيترددُ ويدورُ في المنزل لاتخاذَ

قرار مناسب ولكن لا نور في الأفق يبشرُ خيرًا، اضطرابُه يزداد ويزداد. وأخيرًا وتحت وطأة الحاجة الملحة لم يجدْ سوى هذا الحل الأليم: توجه الى السوق مع أولاده.

أما وهو سائرٌ في طريقه أيُ صراع جديد يختلجُ في داخله؟ إنه يقاسي الآن أشد الألم، والحيرة تتملكُه. أخذ يتساءل مَن سيبيع من بين أولاده؟ أي واحد سيختارُه بائع الحنطة؟ من سيبيع أولاً؟ هل سيختار المشتري الولد البكر؟ ولكن هذا ولدي الأول كيف أتنازلُ عنه؟ ربما سيفضل الصغير؟ ولكن يا حسرتي على طفولته أنه لا يعرف للبؤس معنىً. وهذا الثاني؟ لا لن أعطيه أنه صورةٌ حيةٌ عن والدته. وهذا الآخر؟ علامات الذكاء ظاهرة في عينيه وقد يكون مؤهلاً للعلم، لنِ أتخلى عنه! يا لها من حيرة! يا له من إرتياب؟ يا ليتني أستطيع أن أتخذَ طبيعة وحشية شرسة بدل طبيعتي الإنسانية فأنسى عاطفتي الأبوية. الى اين التفت ومن أين المعونة؟ على من يقعُ اختياري؟ من أجل من سأبّدل غريزتي بغريزة البهائم؟ إذا أبقيتُهم كلهم معي سأراهم حتمًا يموتون جوعًا أمامي، أما إذا بعتُ أحدَهم لأنقذ الآخرين بأي عين سأنظر للآخرين؟ سيعتبروني حتمًا خائنًا وخداعًا! يا لهول الكارثة أن أصل الى بيع أبنائي كالسلع! كيف سأسكنُ بيتًا أفرغته انا بيدي؟ كيف أقتات بخبزٍ أشتريه بهذا الثمن؟ كيف سأقترب من مائدة امتلأت نتيجة فعل تعيس كهذا؟

وأخيرًا، وبعد أن أفرغ هذا البائسُ حزنَ قلبه بدموعِ عينيه الغزيرة، اتخذ القرارَ الحاسم الذي يدمي قلبَه: سيعرض للبيع أغلى وَلدٍ على قلبه!

أما أنت أيها المشتري، يا من لا يعرف هذه المعاناة، ألا تتأثر بمشهدِ هذه المأساة؟ ألا يهزُّ مشاعرك حزن كهذا؟ عندما يشتدُ الفقر على إنسانَ بهذه الصورة ويحثهُ على الإقدام بعمل أليم أُجبرَ عليه، أيجوزُ لك أنت أن تطيل عذابَه بترددك وحيلِك؟ هو الذي يقدم لك فلذَة كبده وخيرة أحشائه بدل لقمة العيش!

وعندما تمدُ يدَك لتدفع الثمن، إنك تساوم أيضًا بسعر البضاعة مجتهدًا أن تقتني زيادة من الربح من هذه الصفقة القبيحة. أتساءلُ كيف لا تُشلَّ هذه اليد بمعجزة سماوية. ألا يؤثر عليك دموع هذا البائس؟ ألا يحن فؤادك لأنين هذا المتوجع؟ ألا يُذيب قلبَك مشهدُ يأس كهذا؟

تعليق على النص

قلةُ رحمتك، وانعدام شفقتك، كثرةُ طمعك وشدة جشعك، كل هذه الرذائل المعششة فيك تجعلك في الواقع لا ترى في الوجود إلاّ شيئًا واحدًا: حبُّ الذهب! (ترجم بتصرف)

هذا نموذج من أسلوب باسيليوس في عظاتِه. نتخيل وقعَ هذه الكلمات القوية على المستمعين الحاضرين في كنيسة القيصرية. هذه الصورة التي يرسُمها كافيةٌ لهزّ مشاعر الأغنياء من رعيتِه. هذا المشهد كان مألوفًا في مجتمع كبادوكيا في القرن الرابع خصوصًا عندما حصلت مجاعةٌ رهيبة نتجت عنها مآسٍ كهذه. هذا الأسلوب الخطابي الرائع يؤثر علينا بطريقة فعّالة رغمَ كل هذه العصور التي تفصُلنا عن صاحبه. باسيليوس هو ذلك الإنسان الذي يحرك بشجاعةٍ الحديد الحامي في الجرح المدمّي الذي يؤلم مجتمعه. هذه العظة نالت شهرة كبيرة في أيامها حتى أن أمبروسيوس أسقف ميلانو لم يتردد أمام مأساة إجتماعية مشابهة عن ترجمتِها بأسلوبه الخاص مضيفًا اليها كل ما تُمليه عبقريته ومواهبه الخطابية المميزة. باسيليوس يتحسس للبؤس ويتألمُ أمامه، يريد أن يذّوب هذه القلوب المتحجرة بحب المال، يلجأ الى كل وسائل الإقناع. أسلوبه شديد اللهجة أحيانًا ويرقُ أحيانًا. يحرّضُ على الإحسان بدون ملل. يؤنّب البخيل، ينتهر الجشع. نشعرُ أن هذا النداء المستغيث ينبعث من قلب محب يتوجع ويتألم مع المتألمين، يصف مأساتهم بريشةٍ ماهرة، رسمُه حي ولوحاته مؤثرة. لنسمعه يؤنّب بغضب بعض أعضاء رعيتِه الذين يقومون بواجباتهم الدينية على أكمل وجه ويطبقون فرائضهم العبادية بحذافيرها ويتناسون الأهم!

«أعرف الكثيرين الذين يصومون ويصلون ويتحسرون على خطاياهم ويقومون بكل أعمال التقوى التي لا تكلفُهم شيئًا ولكن، أعمال الرحمة والتصدق، فيتجاهلونها يبتعدون عنها. فلا يعطون شيئًا للفقراء» (من العظة نفسها).

باسيليوس يستنفرُ أمام طغيان الأغنياء واستبدادهم، إنه لا يرحم الظالم بل يُبرز أمامه لوحةَ اليوم الأخير، فيتابع في العظة السادسة «اينما التفتوا تلاحقهم صورُ جرائمهم: هنا دموعُ الأيتام هناك أنين الأرامل هنا الفقراء الحاملون آثار الضرب هناك العبيد الظاهر على أجسادهم علامات التعذيب...» ويتابعُ فكرته في عِظته السابعة فيقول «ما هو جوابك للسيد الديان أنت الذي تلبس جدرانك ولا تكسو قريبك؟ يا منٍ يزين خيلَه ولا يرمي نظرةَ شفقة على أخيه البائس؟ أنت الذي تتركُ قمحك يفسد ولا تطعم الجائع، أنت الذي تدفن ذهبك ولا تساعد المعذب...»

باسيليوس يصف مجتمعًا حيث الطبقة الوسطى غائبة: هناك الأغنياء المحتكرون والفقراء المقهورون. إنه محامي الفقير، يدافع عنه بكل قواه المحتكر والبخيل بغضب «هذا الخبز الذي تحفظه عندك هو لاشباع الجائع، هذا الثوب الذي تخزنه في صندوقك هو لأخيك المحتاج، هذا الحذاء الذي تدعه يهتري عندك هو لحافي القدمين، هذا المال الذي تكدسه هو لقريبك المتألم (من العظة السادسة) نظريتُه في المال هي نظرية المسيح أي أن الإنسان لا يملك شيئًا، هو مؤتمن على أمواله، ما يفيضُ عن حاجته هو للمحتاج. ولذلك يحارب شراهة المال والطمع وإرهاق الفقراء، واستخدامهم بقساوة، ويبدع بتصوير لوحات اليوم الأخير والدينونة: لوحاتٌ ملونة أخاذة متحركة استلهمها رسامو القرون الوسطى ليبرزوها على جدران الكنائس.

باسيليوس لا يكتفي بالإحسان فقط، إنه يريد أن يعيدَ للانسان كرامتَه مهما كان فقيرًا. طريقةُ العطاء أكثر من كمية العطاء أنْ يحترمَ البائس، أن يساعد في استرجاع ثِقتِه بنفسه، الآ يجرحُ شعوره إذا تصدقت عليه، ألا ينظر إليه باحتقار وتكبر! في عصرٍ لا صحافة فيه ولا قوة أعلام، كانت كلمة المنبر المسيحي هي التي تحكم، فاعليتُها مضمونة تنشر الأفكارَ، توجّه القلوب تؤدب الجموع. باسيليوس تصدَّر المنبر الكنسي، استخدمَه من أجل المصلحة

العامة خيرَ استخدام! لم يمارسْ فنَ الخطابة من حيث جمال الكلمة بل للتأثير وللوصول الى أهدافِه. كلامُه جريء حازم، قوي لاذع، أحيانًا قاس. الكثير من أبناء رعيته شعروا أن سهامه موجهةٌ اليهم فانضموا اَلَى عدد أعدائِه وطعنوا به. لكنه لم يخشَ أحدًا، ولم يهب ذوي سلطان ولم يتساهلَ مع أحد، طبّق ما كان يعلم به بسهولة مذهلة. لم يتردد لحظة في بيع كل أرزاقه وتوزيعها على المحتاجين، بنى مؤسسات من أموال عائلته، عرف الجوعَ بفعل صياماته المتواصلة، أرهق صحته بحياته التقشفية، ساهمَ بحل المشاكل الإجتماعية. استعطى من أجل مشاريعه الخيريّة واستحصل الكثير ممّن جعلهم يفتحون صناديقهم للمصلحة العامة. الأمبراطور نفسه أعطاه عقارًا لكي يبني فيه مجمّعًا ضخمًا دعي باسم «باسيلياد» بالقرب من مدينة القيصرية. روحه الخلاقة جعلته في طليعة المصلحين الإجتماعيين. لم يفكر أحد قبله بمشاريع كهذه. كان هذا المجمّع الذي بناه في الواقع مدينةَ رحمةٍ حقيقية حيث كل مرض وكل نوع من الشقاء له دواؤه ومسكّنه وعنايته الخاصة.

كانت الكنيسة في قلبِ هذه المدينة، حولها بيت الأسقف الذي ينبغي أن يجاور المرضى والفقراء، ثم بيوت الكهنة التي أرادها متسعة للضيافة، ثم نزل المسافرين والحجاج، ومأوى للعجزة ثم بيت للأيتام ومستشفى للمرضى. كان للبرص حي خاص ينعمون فيه برعاية دقيقة. بالقرب من هذه المجمعات كانت بيوت الأطباء والممرضين والممرضات والموظفين في هذه المؤسسة. زدّ على ذلك مدرسة فن وحرف لتعليم الأيتام الذين أخذت الكنيسة تعتني بهم وتؤمن حياتهم. كان هاجس باسيليوس أن يجد لهم وسيلة لكسب معيشتهم بطريقة محترمة. عالج أيضًا مشكلة السكن، حاول أن يجد لها الحلول، بنى المساكن الشعبية. في أيام المجاعة أنشأ مطعم الفقير وهو كناية عن حساء يطبخ في دسوت ضخمة توزّع مجانًا للفقراء كصحن يومي ساخن يسكب للشعب في الشارع.

إنجازات كهذه في القرن الرابع تثير الإعجاب وتدل على مقدرة محققها وعن طاقة في إدارة شؤون رعيته بطريقة فريدة، وعن حسّ عملي تطبيقي نادر. إنه بعيد عن النظريات التي لا تتجاوز حدود ذهن صاحبها. باسيليوس يفكر وينفذ ويحقق على الأرض، يصمم ويفصل، يتصوّر مشروعًا ويبنيه. لنتعرف على هذه الشخصية المميزة وأحد أعظم آباء التاريخ الكنسي.

حياة باسيليوس

نعرف الكثير عن حياة باسيليوس وبالتفاصيل، نادرًا ما نجد وثائق بهذه الكثرة عن قديس في تاريخ الكنيسة. المصادر متوفرة متنوعة وموقعة بأسماء جبارة. لا عجب في ذلك فباسيليوس هو شخصية عظيمة مكتملة جمع بين النسك والعمل الرعائي بين الرهبنة والعمل الإجتماعي بين اللاهوت والبلاغة. غريغوريوس أخوه يقول عنه أنه «تحفة المسكونة» معتبرًا إياه الأب والمعلم وغريغوريوس الصديق لم يقلّ عنه حماسًا حتى أنه قال لإخصامه «من عارض باسيليوس فهو يعارض الله» فالمصادر التي تعطينا المعلومات عن حياة باسيليوس هي التالية:

- رسائله (تقريبًا ٣٥٠ رسالة) تعطينا صورة واضحة عن فترة حياته الممتدة ما بين سنة ٣٥٧ الى سنة ٣٧٨ وهي تكشف لنا عن شخصيته وتعرفنا على نفسيته وتطلعنا على كل الأشياء التي شغلت حياته في مرحلة نضوجه الروحي، وعلى علاقاته العديدة مع أشخاص ينتمون الى مختلف الطبقات الإجتماعية.

- عظة تأبينية لغريغوريوس اللاهوتي قيلت في ذكر وفاته سنة ٣٨١ والتي يسرد لنا فيها الكثير عن مراحل حياته، وقد كتبت بقلم معلم بارع أضف الى ذلك آراء في باسيليوس تتخلل الكثير من كتاباته وشعره.

- عظة تأبينية لأخيه غريغوريوس القيت سنة ٣٨٠ وهي لا تقل أهمية عن الأخرى من حيث الأسلوب والعاطفة المنبعثة من سطورها.

- إيرونيموس خصّص لباسيليوس إصحاحًا كاملاً من كتابه «مشاهير الكتاب».

- المؤرخون الكنسيون اهتموا بنوع خاص بباسيليوس واعتبروا وجوده في القيصرية حدثًا هامًا في تاريخ الكنيسة بفضل إنجازاته في شتى الميادين.

- عظة منسوبة للقديس افرام السرياني نجدها في أعمال افرام اللاتينية مخصصة للكلام على باسيليوس وقد روى لنا أحد المؤرخين لقاء هذين القديسين حين قال له افرام «أيها الأب باسيليوس لقد رماني اليك ربّ الأرواح لكي تعتني بروحي وتحميني ضد الكسل والجمود وتقودني نحو الطريق المستقيم ولكي تخترق «قلبي المتحجر».

ولد إذن باسيليوس في قيصرية كبادوكيا سنة ٣٢٩ وكبادوكيا هي مقاطعة في آسيا الصغرى على حدود البنطس وأرمينيا أي تركيا الحالية في عائلة عريقة وثرية. يروى أن جده ترك أملاكه وهرب مع عائلته الى الغابات أثناء إضطهادات ديوكليسيانوس في مقاطعة البنطس. نشأ في أحضان والدته البارة إميليا التي ربّت هذه العائلة المقدسة المؤلفة من عشرة أولاد خمس بنات وخمسة صبيان. وأما جدته ماكرينا التي طبعت مخيلته غذت طفولته وأثارت فضوله بقصص تبشير الكبادوكيا على يد غريغوريوس صانع العجائب (وهو غير غريغوريوس الكبير مبشر أرمينيا) أبوه كان رجل خطابة وقد اهتم جدًا بتربيته. أخذ العلوم الأولى عنه، وبعد موته، ذهب الى القسطنطينية لمتابعة دروسه، ثم الى أثينا المدينة المشهورة بالخطابة وتعليم البلاغة. وهناك تعرّف على غريغوريوس مواطنه وتوثّقت عرى الصداقة بينهما. أما الذي جمع بين هذين الشابين فكانت الرغبة

المشتركة في درس الفلسفة الحقيقية والتوق نحو هدف واحد هو حب المعرفة واكتساب الثقافة. كانت هذه الصداقة تنمو وتترسخ يومًا بعد يوم وبقيت حتى نهاية حياة باسيليوس. وتميّزَ الصديقان في جامعة أثينا وتمتّعا بشهرةٍ عظيمة لدى الطلاب والأساتذة فنهلا ما استطاعا من ينابيع العلم والفلسفة والأدب والخطابة.

عند عودتِه الى القيصرية بعد هذا النجاح الكبير، شغل باسيليوس منصبَ معلّم خطابة فوقعَ لفترة في شباك الغرور والكبرياء إلّا أن أخته ماكرينا التي دعتها الكنيسة فيما بعد بأم النساك نبّهَته وحذرته من تفاهةِ أمجاد العالم الباطلة. فاقتنع وتمّ التحول بصورة سريعة. ويصفُ غريغوريوس صديقه هذا التغير قائلاً عنه: استفاق كمن نوم عميق وأدرك الحقيقة بعد أن ظهر أمامه نورُ الإنجيل جليًا فذرفَ دموعَ حزن على الوقت الذي أضاعه هدرًا. حينئذٍ ترك منبرَ الخطابة ودشّن حياتَه الجديدة باعتماده على يد أسقف القيصرية. في هذه الأثناء شعرَ بميل الى الحياة الرهبانية وأراد أن يتعرّف على أديرة الشرق فقام بجولة طويلة. زار مصر وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وأعجب بحياة التقشف والعبادة عند نساك البادية فيقول عن الرهبان «كانوا يحتقرون الجوعَ والعطش والبرد مثابرين على الصلاة المستمرة وكأنهم غرباء عن أجسادهم، زوار على هذه الأرض ومنذ الآن مستوطنون السماء».

في فترة غيابه انعزلَت والدته مع أخته ماكرينا الى حياة رهبانية في أحدى ممتلكات العائلة في منطقة «أنيسي» على ضفاف نهر الإيريس الذي تحول مع الأيام الى دير رهبنة نسائية. ولذلك بعد عودته من سياحته الطويلة، باع باسيليوس كل ما ورثه عن والده ووزع المال على الفقراء والمعوزين ثم انصرف للإختلاء في مكانٍ بجوار القيصرية وقريب من مسكن أمه وأخته. اختار هذه البقعة لجمالها وسكونها وكثيرًا ما تغنّى بها كاتبًا «جبلٌ عال تكسوه الغابات من جهة وتتدفق الشلالات من جهة أخرى، سهلٌ محاط بالأشجار وكأنه جزيرة في

بحر من الخضار... نسيمات عليلة... زهور تفوح بالعطور... زقزقة عصافير، نهر مملؤ بالأسماك بكلمة مكان فردوسي يولد الصفاء في النفوس».

لم يبقَ زمنًا طويلاً منفردًا بل انضم اليه الكثير من المسيحيين الراغبين في العزلة وحياة التنسك، فأنشأ لهم ديرًا ونظامًا لا يزال متبعًا في بعض الأديرة حتى اليوم. وقد أتى لزيارته فيما بعد صديقُه غريغوريوس. وخلال هذه الزيارة وضع الصديقان في جو من السكون الهادىء كتاب «فيلوكاليا» وهو مجموعة مقتطفات أدبية مختارة من أعمال المعلم أوريجنس.

باسيليوس الكاهن

لم يكن أفسافيوس الأسقف الجديد على القيصرية قادرًا على ضبط الوضع الكنسي المتأرجح في رعيته كما يجب وذلك بسبب التحدّيات الكبيرة التي كانت تواجهُه من جهة البدع التي تعكر صفوَ الأمن في الأبرشية خصوصًا وأنه لم يكن ضليعًا في شؤون اللاهوت والعقيدة. فما كان منه إلاّ أن استدعى باسيليوس وسلَخه عن عزلته ورسمه كاهنًا معاونًا له في سنة ٣٦٤. وهكذا ابتدأت حياتُه الرعائية. ولكن، سرعان ما تسلطت الأضواء على هذا الكاهن الشاب الرصين الواعظ ذي الشخصية القوية فتعلقَ به المؤمنون وكسف بنوره الأسقف الضعيف وحلَّ مكانه في قلوبِ الناس، مما أثار حسدِ الأسقف. فأبعده وأعاده ثانية الى حياته النسكية. ولكن هذا التصرّف لم يكن حكيمًا فندم افسافيوس واستدعى باسيلوس ثانية بعد فترة من الزمن ولكنّه رفض الدعوى. توسط حينئذٍ الصديق غريغوريوس بينهما واقنع صديقَه أن يضع مصلحةَ الكنيسة فوقَ كل الإعتبارات. فرجع باسيليوس الى القيصرية مقتنعًا من حجة صديقه وشرحَ لأسقفه بحزم أن هدفه ليس البروز في الرعية بل الدفاع عن الإيمان والعمل الرعوي والتبشير بالانجيل. فاطمأن الأسقف واعترف بخطأ تصرفه ومنذ ذلك الحين أصبح باسيليوس يده

اليمنى والمعين والمستشار له. وكانت الآريوسية في هذه الأثناء قد استفحلت بمجيء الأمبراطور ڤالنس الى الحكم في القسم الشرقي من البلاد والذي كان يميل صراحة الى الأريوسية. وحصلت أيضا في هذه الفترة تلك المجاعة التي لم يسبق لها مثيل والتي حاول باسيليوس معالجتها في اندفاع ومحبة وسخاء كما ذكر أعلاه.

باسيليوس الأسقف

عند وفاة اڤسافيوس اقترح الجميع بالكاهن اللامع ليحل محله. فانتُخب باسيليوس رغم معارضة الحزب الآريوسي المتشدد وبفضلِ الأسقف الشيخ غريغوريوس النازينزِي والد غريغوريوس صديقه. هذا الأسقف الذي أتى بنفسه ليحضر الإنتخابات بالرغم من كبر سنه والذي مثّل دورًا هامًا في الإنتخاب، مما أثار فرح المؤمنين وخاصة القديس اثناسيوس بطل إيمان نيقيا الذي شكر السماء عندما علم بنتيجة الإنتخابات، فتنفس الصعداء وقال أنه يستطيع أن يرقد بسلام لأن شعلة الإيمان وجدَت الخلافة، وأن شخصًا جديرًا سيستلمُ رايةَ الإيمان القويم من بعده. لم تدمْ فترة أسقفية باسيليوس أكثر من عشر سنوات إلا أن عمله كان منظمًا مدروسًا مثمرًا ومنوعًا، مع أنه كان يصارع على عدة جبهات نظرًا لتعدد الأعداء والحساد حوله.

ابتدأ بتنظيم الحياة النسكية في الكبادوكية والبنطس، رتّب مهمات مختلف الدرجات الإكليريكية في أبرشيته. كتب الأفاشين نجح في إصلاح الليتورجيا. ضبط القداس الإلهي وطوره، وهو المسمى بإسمه، ويقام عادة في آحاد الصوم والخميس العظيم والسبت العظيم وبارمون الظهور وفي عيد القديس باسيليوس. وضع حجر الأساس لمؤسسته الإحسانية التي غدت مدينةً قائمة بذاتها بالقرب من القيصرية. ومع هذا كان يعلم الشعب بعظاته وبتفسيره الكتاب المقدس بأسلوب خطابي جميل مع بساطةٍ في التعبير غير خاليةٍ من

أيقونة غريغوريوس اللاهوتي



أيقونة روسية من القرن السادس عسر.

الرسم ينتمي الى مدرسة المعلم ديونيزي الشهير.

أنظر ص ١٣٧

الفصاحة ووضوح في الأداء. بعد هذا العمل الكثيف، ذاع صيته في كل أنحاء المنطقة وتجاوز حدودها ونال شهرة لا مثيل لها.

مواجهتُه للأمبراطور ڤالنس زادت من نفوذه ودلّت على شجاعة نادرة، فقد رفضَ أن يناوله من الذبيحة الإلهية أثناء مروره في مدينة القيصرية وهذا عمل جسور جدًا.

كان ڤالنس مصممًا أن يفرض الأريوسية بالقوة في جميع المقاطعات وينتزع الإيمان القويم بفرض توقيع عريضة تتسم بالايمان الآريوسي الخاطىء يقدمها للأساقفة. كان يجولُ من منطقة الى أخرى مع مفوضه ومعاونيه ليحث الأساقفة على التوقيع تحت وطأة التهديد. وعندما وصل الى كبادوكيا، حلّ الذعرُ في المدينة وانتظر الكل ردةَ فعلِ باسيليوس. أرسل المفوض موديستوس اليه وجرى بينهما الحوار الآتي. هدّد موديستوس القديس بالنفي فأجاب:

- «المكان الذي أنفى اليه سيصبح وطني وما أنا سوى سائح وغريب على هذه الأرض».

هدّد بحجز الأموال فأجاب:

- «لا أهمية للحجز لمن لا يملك شيئًا»!

هدد بالموت فأجاب:

- «أشكرك على ذلك فأنك تبكّر بذهابي للقاء ربي».

فغضب موديستوس وقال: لم يكلمْني أحد بعد بهذه العبارات.

فأجاب باسيليوس:

- «ربّما لأنك لم تصادف حتى الآن أسقفًا حقيقيًا»!

نقل موديستوس هذا الحوار لڤالنس الامبراطور قائلاً: لقد غلَبنا هذا الأسقف، لا شيء يغيرُ ثباته. إنه صامد ويرفض التوقيع دعنا نلجأ الى العنف! قرر ڤالنس أن ينفي باسيليوس ولكن حدثًا مؤلمًا منعه عن القيام بهذا العمل. مات ابنُه فجأة فشُلَّ عزمُه وخشي أن يكون هذا الموت قصاص من السماء. فانتهى الأمر هكذا.

أراد فيما بعد ڤالنس أن يضعّف من نفوذ هذا الأسقف الذي عصي أمره والذي كان خصمًا لا يستهان به، فأراد أن يقسمَ كبادوكيا الى مقاطعتين. حاول باسيليوس بكل جهده أن يوقفَ هذا الأمر، فلم يستطع. فعالج ذلك بإنشاء أسقفيات جديدة مع أساقفة مناصرين له على المناطق المحيطة بمنطقته (مدينة نيصص وسازيما مثلاً).

وأخيرًا في هذه الفترة حاول باسيليوس أن يحل بدون جدوى مشاكل مدينة إنطاكيا المنقسمة التي كانت تتخبط في نزاع بين أسقفين لأسباب عقائدية. تألم لهذا الوضع وحاول بمختلف الوسائل إصلاح الحال فيها واستعان بأسقف روما البابا داماس لهذا الغرض.

أما بعد مقتل الأمبراطور ڤالنس في معركة ضد الفرس سنة ٣٧٨ هدأت الأحوال في الكنيسة واستقرت الأمور، ولكن لم ينعم باسيليوس بهذا الإستقرار إذ اشتد عليه المرض، وكانت بالأساس صحتُه ضعيفة إذ كان يتألم دائمًا من كبدِه. فتوفي وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره. توفي قبل أن يشاهدَ انتصار الأرثوذكسية التي رمى هو بذورها، أي قبل أن يتسلّم تيودوسيوس الحكم وقبل أن يُعقد المجمع المسكوني القسطنطيني الذي وطد إيمان نيقيا وثبّت العقائد الثالوثية.

مؤلفات باسيليوس

لباسيليوس مؤلفات عديدة ومنوعة تميزت بالأسلوب الجميل والفكر الأصيل والتعبير الواضح للعقائد، والإحساس الصادق، والصور الملونة، والوصف البارع والتعليم المنطقي. همُّه التعليم وإيصال رسالة المسيح لمستمعيه. نيّته تسبيح الخالق من خلال خليقته وإبراز المسيح كمخلص، وشرح كتب العهد القديم بطريقة رمزية ولكن بشرح يستطيع السامع أن يستوعبه بسهولة، طريقته إذن تعليمية. من هذه المؤلفات نذكر:

١ ـ كتابات عقائدية

ـ كتاب «ضد افنوميوس» الآريوسي يدافع فيه عن إيمان نيقيا القويم بالمنطق والإستشهادات الكتابية.
ـ كتاب «حول الروح القدس» يجيب فيه على الذين ينكرون الوهة الروح القدس. فيه مقاطع جميلة عن الروح القدس تشير الى خبرة حياة روحية عميقة.

٢ ـ كتابات نسكية

ـ كتاب «في الأخلاقيات» يتألف من ثمانين قاعدة تختص بواجبات المسيحيين ورعاة الكنيسة.
ـ كتاب يحتوي على قاعدتين للحياة النسكية، الأولى مطولة والثانية مختصرة.

٣ ـ كتابات تربوية

ـ مقال واحد يدعى «الى الأحداث» فيه آراء باسيليوس التربوية يتكلم فيه على كيفية الإستفادة من قراءة الأدب الوثني.

٤ ـ العظات

ـ مجموعة عظاته الأهم هي «الخلق في ستة أيام» Hexameron فيها يشرح كتاب التكوين والذي أكمله أخوه فيما بعد في كتابه خلق الإنسان في اليوم السادس.
ـ عظات في شرح المزامير.
ـ عظات في شرح سفر أشعيا النبي وعظات مختلفة في شتى المواضيع.

٥ ـ المراسلات

إنها أجمل ما كتب وهي الجزء الأكثر أهمية في أعمال باسيليوس

وهي تعالج المواضيع العقائدية والاخلاقية والرعائية وتعرّفنا على شخصية المؤلف واختلاجات نفسه.

أهمية باسيليوس

قيل الكثير عن باسيليوس ومهما تكلمنا لن نفيه حقَه، إلاّ أننا سنحاول عرض أهم ما قدّم باسيليوس لأجيالِ المسيحية والكنيسة سواء أكان من الناحية اللاهوتية أو العملية. كُتب في إنجيل متى «من يعملُ ويعلّم فهذا يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات» (٥:١٩) عظمته في تحقيق هذه الآية. لقد علّم وعمل بإيمان بالثالوث لا يتزعزع. إنه المدافع عن الإيمان القويم كما قال هو عن نفسه «أنا كالصخرة التي تصطدم عليها أمواج البدع...» إنه الذي حاول أن يضع معطيات اللاهوت في قالب واضح وكلمات ثابتة. أدان المجمع الأول هرطقة آريوس ولكن بقي الإلتباس بين كلمتي أقنوم Hypostasis وجوهر Ousia. اثناسيويس تناول اللفظين بالمعنى نفسه. أما باسيليوس فأوضح الفرق بين الكلمتين، وإن لم يشدد كفاية على الوهية الروح القدس، ولكنه لم ينكرْها أبدًا كما ادّعى أعداؤه، فكتاباته تفوح بالوهية الروح وإيمانه بهذا لا يتزعزع. علّم عن مساواة الإبن والروح القدس في الجوهر مع الآب:

«ثالوث متحد في الجوهر ومنقسم في الأقانيم».

مما مهّد الطريق أمام المجمع المسكوني الثاني الذي سنتكلم عليه في موضع غريغوريوس النيصصي. لاهوته في الإنبثاق هو اللاهوت القويم، فهو يقول في كتابه حول الروح القدس: «إنه يدعى روح الله، روح الحق الذي من الآب ينبثق». أما عن تأثير الروح القدس في النفوس فيقول «كما أن الحجارة الثمينة تعكس لمعانَها عندما تضربُها أشعة الشمس، هكذا النفس التي ينوّرها الروح توزع هذا النور من حولها وتنشر النعمة في العالم».

كان باسيليوس متقشفًا الى أقصى درجات التقشف يفرض على نفسه نظامَ حياة صارمًا جدًا وتربية الذاتية قاسية مما أرهقَ صحته

التي كانت بالأساس ضعيفة. ولكن هذا الأمر لم يرهقْ أعصابه، ففي كل الأحوال بقي ذلك الإنسان المتزن، غير المنفعل، الصامد أمام الصعوبات، الذي لا يهاب أحدًا إلا ضميره. إنه الأسقف الراهب، الحارس الأمينِ على عقيدة الآباء. كان المعلِّم اللاهوتيّ والمربيَ المؤدب، الواعظ المبشر والمشرِّع الكبير للحياة النسكية. إنه الأسقف - الراهب الواعي مصلحةَ الكنيسة. عندما ناداه الواجب انسلخ عن الرهبنة التي أحبها لينخرطَ في صراعات الأبرشية. كان الراعي الصالح والمصلح الإجتماعي والآب الروحي والصديق الوفيّ والناسك النشيط والمعالج للمشاكل الإجتماعية بإنشائه المركز الطبي الإجتماعيّ الضخم. حكم بالعدل. وقف ضدّ الشر والظلم، ومع هذا لم يتوقف عن التأليف والكتابة. تدعوه الكنيسة «أحد معلّمي المسكونة الكبار». لا عجب في ذلك فإنه كان رجلَ إدارة وصلاة معًا. إحتقر الأموال تسامى عليها. حقق مشاريعه الإحسانية بتدفق سخي من قلبه المحب. كان رجل إيمان ومقدرة، رجل منطق وإقناع، عبقريًا في إنجازاته، جبارًا في مؤلفاته.

يوم مأتمه كان يومًا مؤثرًا عبرّ عن مدى تعلق المؤمنين براعيهم. الإنتصار ظاهر في الرواية التي كتبها صديقه غريغوريوس: «مأتم القديس باسيليوس كان مشهدًا لا ينسى. كان محمولاً على نعش مكشوف، والناسُ مزدحمون من حوله. كل انسانٍ من هذا الحشد يحاول أن يلامسَ جسدَه أو يلتقط شيئًا يتباركُ به. الشعب يتزاحم ليلقي النظرة الأخيرة على أبي الفقراء. الجماهير ملأت الساحات والأروقة. تكدسوا على الشبابيك على سطوح المنازل على الأشجار. جمهورٌ عظيم واكبه، والبعض اختنقوا لشدة الإزدحام. جمهورٌ مؤلف من مسيحيين ويهود ووثنيين تكاتفوا ليوصلوه الى مثواه الأخير. بكاء النساء ونحيبهن كان يتغلّب على أصوات المرتّلين».

كان هذا في أول كانون الثاني سنة ٣٧٨.

الفصل الثاني عشر

غريغوريوس أسقف نيصص

شجرة معرفة الخير والشر

مقطع من كتاب «خلق الإنسان ـ الفصل العشرون

«ورأت المرأة أن الشجرةَ طيبةُ المأكل وشهيةٌ للعيون وجميلةٌ للتأمل...» (تكوين ٣:٦). ما هي هذه الشجرة الملأى بالملذات التي تشتهيها الحواسّ، والحاوية معرفة الخير والشر معًا؟ أظن أني لا أبتعد عن الحقيقة إذا انطلقت من نقطة واضحة في الكتاب المقدس وهي أن كلمة «معرفة» لا تعني بالضرورة «علم» فهناك فرق واضح بالنسبة للاستعمال الكتابي بين كلمتي «معرفة» و«تمييز». بولس الرسول مثلاً يستعمل كلمة «تمييز» قائلاً أنها صفة يتحلى بها الإنسان الروحي أي الذي يحكم في كل شيء (١ كور ٢:١٥) فالمعرفة إذن لا تعني حتمًا العلم، أي المعرفة المحضة، بقدر ما تعني حالة استعداد داخلي بالنسبة لشيء ما: «الرب يعرف الذين له» (٢ تيموتاوس ٢:١٩) «عرفتك بالأفضلية عن غيرك» يقول الرب لموسى (خروج ٣٣:١٧) «لم أعرفكم قط إذهبوا عني يا فاعلي الإثم» يقول يسوع للأشقياء يوم الدينونة (متى ٧:٢٣).

فالشجرة إذن التي تعطي تلك المعرفة الممزوجة هي من الأشياء الممنوعة، لأن ثمرها يتألف من عناصر مختلطة، متناقضة، وأما الحية فهي محامي دفاعها والسبب واضح إذ أن الشر لا يظهر أبدًا في عُريه، أي على حقيقته، وإنما يلبس ثوبًا بهيًا. فالرذيلة لا تصبح فعّالة ما لم تتلون بلمسات الجمال الذي يثير الشهوة عند الانسان، فينخدع لا محال. الشر إذن يظهرُ لنا خلطًا لأمرين: في أعماقه يتضمن الموت كفخ خفي وأما مظهره فمغرٍ، غشّاشٍ. وهو يُبرزُ صورة الخير كأول مبادرة: فالفضة مثلاً

تبدو حسنة بجمالها للبخلاء، ولكن هذا لا يمنع من أنّ البخل هو أساس كل داء. هل ينزلق المرء في ورطة كالتي تسببها الدعارة القذرة لو لم تبرز الملذات في قالب لائق وجميل ومشتهى؟ كأني بهذا المظهر الخبيث (طُعم) مغرٍ يَجُرُّ من ينخدع به ليوقعه في الشهوات والأهواء الباطلة. وهكذا الأمر بالنسبة للخطايا الأخرى. عنصر الفساد يختبىء دائمًا تحت المظهر المشوِّق، الفتّان، فيُبحث عنه كأنه خير، وعندما يجده يتحقق من شره: هذا بالتالي خداع للإنسان الذي لا يتفحص الأشياء ويميز بينها.

البشر بالإجمال يعتبرون حسنًا كل شيء يفتن الحواس ويسحرها، فيحكمون على الأمور بحسب مظاهرها. فالكلمة نفسها لا تُفَرِّق بين خير ظاهر وخير صادق. وبالتالي الشهوة هي التي تقلب الشر خيرًا. ما يسميه الكتاب المقدس «معرفة الخير والشر» هو هذا الاستعداد الداخلي أمام هذه الحقيقة المزدوجة. الوحي الإلهي أراد أن يعلمنا أنّ الشيء الحسن يوجد بطبيعته خالصًا أي بدون أي تركيب. إنه يبرز بشكل بسيط وهو غريب عن كل ازدواجية، ويرفض كل اتحاد مع نقيضه. وأما الشر فهو متنوع الألوان والرسوم والأشكال، أي يبدو كسراب تحسبه رائعًا، وعند الاختبار ينكشف شيئًا آخر.

وهكذا نستنتج أن معرفة الشر أي العلاقة معه بالاختبار، هي أساس الفساد وبداية تسرب الموت في جوف الإنسان. فلو برز هذا الشر نفسه بحالته المجردة بدون زينة وغواية، أي بشكله الطبيعي، لما انخدع الإنسان به حتمًا... الشرير هو الذي يجعل صورة الخطيئة بهية للنظر، وكأن الخطيئة تتبرج على يده، فتبدو متألقة فتسحر الذوق وتتملك الحواس... وكأني بالشيطان ساحر مشعوذ، يخفي البشاعة ويظهر الشر وكأنه واقع يوحي بالثقة، فخدع المرأة حواء، التي خدعت بدورها آدم... هذه هي تلك الشجرة التي تحمل ثمرةً ذات حدين: إنها الشر بثياب الخير، كتلك السموم المستحضرة والمركبة مع العسل اللذيذ الطعم».

من هو كاتب هذه السطور؟ إنه غريغوريوس أسقف نيصص أخو باسيليوس الكبير وتلميذه، والذي سهرت على تنشئته مسيحيًا أخته القديسة ماكرينا المتوحدة. أُخذ المقطع المذكور سابقًا من كتاب أهداه مؤلفه لأخيه الآخر بطرس أسقف «سيباست». عائلة رائعة

تتكاتف من أجل نشر إنجيل المسيح وتنمية الكنيسة الناشئة، لها منّا كل احترام وإجلال. تعيِّد له الكنيسة في ١٠ كانون الثاني.

الكتاب: كتاب «خلق الإنسان» أراده غريغوريوس تتمةً لكتاب أخيه Hexameron.

وهي كلمة يونانية تعني «خلق العالم في ستة أيام». كُتب سنة ٣٧٩ أي سنة وفاة باسيليوس الكبير وكانت هذه السنة بالذات خصبة الإنتاج بالنسبة للمؤلف، إذ كان في طور النضوج، وكان قد عاد من النفي واسترجع سدة الأسقفية بعد أن اضطهده الآريوسيّون (الآريوسية تنفي ألوهة المسيح) الذين عزلوه عن أبرشيته سنة ٣٧٦ بمساعدة السلطات المدنية. بعد أن استقر في أبرشيته، إثر موجة العنف التي عصفت بالكنيسة، فتقاذفتها الهرطقة وفتكت بالكثير من أبنائها المستقيمي الرأي، جند غريغوريوس عبقريته وأفكاره التي طالما نضجت في صمت الدير حيث اعتكف في شبابه تحت رعاية أخيه وفي تأمل الكتاب المقدس، للدفاع عن التعليم القويم. لذلك يعتبر بالنسبة لمسيحيّي الشرق المدافع عن إيمان نيقيا، مع غريغوريوس اللاهوتي طبعًا، والوريث الروحي لباسيليوس. ولكن لا شك في أن الأخوين يختلفان في بعض الأمور. لقد اهتم باسيليوس قبل كل شيء في تدبير أمور الكنيسة وتنظيم قوانين الأديرة مهتمًا بالدفاع عن الإيمان. إنه باختصار منظم ومدبر بالدرجة الأولى. أما غريغوريوس فعرض عقائد الإيمان بعبارات واضحة منطقية، محاولاً أن يشرح «الأمور الخفيّة» في الكتاب المقدس محللاً ومنقبًا عن الحقيقة. إنه فيلسوف وروحاني متصوّف كرّس كتاباته للمسائل التي شُغف بها العالم القديم، أي مواضيع الإنسان وتكوين العالم والأبدية وطبيعة الشر الخ... مؤلفاته تتجاوز المحيط الكبادوكي الضيق لتجيب على التساؤلات العميقة التي نتجت عن احتكاك الفكر المسيحي بالفلسفة الهيلينية. إذًا، بينما باسيليوس في كتابه أراد أن يعلِّم ويوجّه، نرى غريغوريوس في «الملحق» يحلق في

«دراسة ظلمات الأسرار التي لا توصف»، ويهدف الى التوفيق بين معطيات الإيمان ومقتضيات الفكر والمنطق. في هذا النطاق يتابع ما اجتهد أن يفعله الكاتب المسيحي أوريجنس ولكن بدون أن يقع في تجاوزاته. وتتلمذ أيضًا للفلاسفة القدامى إذ نكتشف أن له إلمامًا في الطب وعلم الفلك والموسيقى والطبيعيات. لذلك فإن لهذا الكتاب مركزًا متميّزًا في الأدب الكنسي: إنه أول بحثٍ لمفكر مسيحي في مسألة الإنسان ومصيره.

في مقدمة الكتاب يظهر لنا غريغوريوس كإنسان مرهف، متواضع، يحترم أخاه الأسقف بطرس الذي أهداه كتابه فيقول له «كل كنوز الدنيا كما يقول سليمان الحكيم لا تكفي لتضاهي فضائلك». ويعتبر نفسه غير أهل لإتمام عمل أخيه الجبّار لأنه لا يعرف كتابًا أفضل من كتاب باسيليوس عن الخلق فينعت أخاه بالرجل «الذي كُوِّن في الحقيقة على صورة خالقه». لذلك أراد بكل تواضع أن يتوّج كتاب أخيه، متممًا الدراسات التي فاتت هذا الرجل العظيم، فيتساءل: هل يستطيع أن يقوم بعمل في مستوى ما كتب أخوه؟

كتاب باسيليوس لا يعتبر عملاً كتابيًا بالمعنى المعاصر للكلمة أي دراسة نصوص ونقدها، وإنما هو شرح وتعليق يميل الى الشرح الحرفي لا المجازي. إنه مجموعة عظات ألقاها عندما كان كاهنًا في القيصرية، يستنتج فيها من الكتاب المقدس دروس فلسفة شعبية ويستخلص روحانية نبيلة، مثيرًا الإعجاب في عظمة الخالق وحكمته. ولكن هذه العظات توقفت عند اليوم الخامس. لذلك خطرت لغريغوريوس فكرة إكمال ما تبقى من وصف عملية الخلق فكرّس كتابه لليوم السادس يوم خلق الإنسان، معتبرًا أن الفضل في ما يكتب يعود لمعلمه.

مضمون هذا الكتاب: في هذا الكتاب نجد أولاً اعتبارات حول طبيعة الكون ثم يتطرق الى إبراز الفرق بين المخلوق والخالق.

هناك رواية مدهشة لأحداث سبقت خلق الإنسان، وشرح دقيق يفسر لماذا أتى الإنسان أخيرًا بعد خلق الكائنات كلها مستنتجًا أن الطبيعة الإنسانية هي أثمن شيء في الخليقة المنظورة. ثم يتكلم الكاتب على تكوين الإنسان وخلقه وتسلطه على الأشياء، ويقدم نظريةً رائعةً في هذا الموضوع: إن الله خلق كل الأشياء بكلمة أمره، الشمس بعظمتها، الكواكب، البحار... ولكن عندما أراد أن يخلق الإنسان سبق هذا العمل مشاورة وتصميم، هناك مذاكرة تمهيدية «لنصنع الإنسان...» مشيرًا الى أن الفعل هنا بصيغة الجمع يشير الى الثالوث والإنسان الوحيد بين المخلوقات الذي وجد منتصبًا وهو صورة لمملكة الله على الأرض. أما طبيعة آدم فليست تخص آدم وحده فالكتاب يشمل الإنسانية كلها بالرجل الأول بجنسيها. فبالنسبة لغريغوريوس هناك مساواة بين الرجل والمرأة وعندما يتكلم على الإنسان يعني الرجل والمرأة معًا، مستشهدًا بقول بولس الرسول «لا رجل ولا امرأة، كلنا واحد في المسيح». ثم يتطرق الكاتب الى الميول الحيوانية في الإنسان وينسبها الى الطبيعة غير العقلانية، كالغضب والحقد والكراهية، يقول أن لا علاقة لها مع الصورة الإلهية. ويشرح الأمور بطريقة طريفة فيقول أن منطق الإنسان يختبل ويتلاشى بفعل ميوله الحيوانية، فيحصل انقلاب في الطبيعة الإنسانية فتتوارى الدمغة الإلهية، وتثبت الصورة الحيوانية إذ يصبح المرء عبدًا لشهواته. ولكن هناك نخبة من الناس يستطيعون، بممارسة الفضيلة، أن يوطدوا صورة الله فيهم، الأمل موجود والشيء ممكن.

وبعد أن يتكلم الكاتب على أصل الشر والخطيئة يحلق فيتكلم على القيامة والرجاء فيها. يشير الى انقلاب كوني «بعد نهاية الأجيال واكتمالها. يتوقف الزمن نهائيًا، وتعود عندئذٍ الأشياء من حالتها الفانية الى حالتها الأصيلة أي غير القابلة للانفعال والتغيير»...

هناك محاولات في شرح الأحلام فيميز غريغوريوس بين الملهمة منها والتافهة. ويظن ان بعض الأحلام تنبىء عن الأحداث المستقبلية عند

مختاري البشر، إذ أن المخيلة تستطيع أن تتخلى عن الأحلام صورة لسلوك الإنسان تعكس نشاطه عند اليقظة وتتأثر بنوعية الطعام وكثرتها. هنا أفكاره تتصل بالعلم النفساني الحديث.

حياته

إن المعركة الضخمة التي شنَّها القديس اثناسيوس لفرض إيمان نقيا والتي تابعها من بعده وريثه في المواهب والمجد باسيليوس الكبير، لم تنتهِ بسهولة. فقد بقيت الكنيسة تتخبط في عواصف الهرطقات والبدع وتتقاذفها من كل جهة، تهددُ اسسها وتطعنُ بمعتقداتها سواءٌ أكانت الآريوسية أو ما تفرعَ منها أو ما شابهها من سائر النظريات الخاطئة. وقد تحملت عبئها بنوع خاص كنيسةُ القسطنطينية وتألمت جدًّا من هذه الاضطرابات الى أن تسلمَ سُدَّةَ الحكم ثيودوسيوس فأعلن بحزم أنه مع الإيمان القويم مترجمًا هذا الموقف بدعوة الى عقد مجمع في القسطنطينية الذي كان في البدء مجمعًا إقليميًا ثم اتخذ فيما بعد طابعًا مسكونيًا نظرًا لأهميته. هذا المجمع الذي التأم سنة ٣٨١ ثبّت نهائيًا مقررات مجمع نيقيا ودستورَه ومنعَ تغيير أي حرفٍ فيه، ثم عالج كل أنواع الهرطقات. وحيث أنه في دستور نيقيا كان التعليم عن الروح القدس غير واضح تمامًا فقد تابعه المجمع على هذه الصورة «وبالروح القدس الرب المحيي..» وبهذه الإضافة تثبتت العقيدة في مساواة الروح القدس في الجوهر مع الآب والابن. وفضلاً عن ذلك فقد أدخل المجمع المسكوني الثاني على الدستور البنود المتعلقة بالكنيسة والمعمودية والحياة الآتية. وعلى هذه الصورة ترتبَ الدستور الذي يُدعى دستور نيقيا ـ القسطنطينية واكتملَ، وهو الذي نتلوه في سر الشكر حتى اليوم. وقد ضمَّ هذا المجمع مئة وخمسين أسقفاً من الآباء المستقيمين الرأي امتاز منهم بنوع خاص غريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس النيصصي. من هو غريغوريوس النيصصي؟

لا نملك المعطيات الكافية عن تفاصيل حياته إنما نستطيعُ أن نتبعَ مراحلها من خلال معلوماتٍ مبعثرة في كتاباته، من رسائل باسيليوس ومن وثائق تاريخية كنسية. فقد استقصى المؤرخون مراحل حياته كما يلي: غريغوريوس هو الأخ الأصغر لباسيليوس الكبير. ولد سنة ٣٣٥ ونشأ في عائلةٍ مسيحيةٍ عرفت بالتقوى والقداسة وأعدّته منذ نعومة أظافره للحياة الإكليريكية فرُسم قارئًا في الكنيسة باكرًا وهو بعدُ فتى، إلاّ أنه تحول لفترة عن دعوته وآثر تعليم الخطابة ثم تزوج من فتاة ذات ثقافة دينية مميزة أحبها جدًا. ولكن تحت تأثير أخيه باسيليوس وصديقه غريغوريوس اللاهوتي ترك منبر التعليم، واقتنع بأن كل شيء في هذه الدنيا باطل فالتحق بهما في عزلة الدير الذي أسسته عائلة باسيليوس على ضفاف نهر الإيريس في كبادوكيا. بقي في هذا الجو الرهباني الهادىء لمدة عشر سنوات، الى أن انتزعه أخوه من الدير حيث طابت له الحياة ليفرض عليه أسقفية مدينة نيصص المتواضعة. لا نعلمُ شيئًا عن مصير زواجه وزوجته، ولكنّ ثمة عبارةً تدل على أن علاقته مع زوجته أصبحت روحية فقط وربما توفيت قبل سيامته أسقفًا. الا انه لم يقبل هذه المهمة التي فرضها عليه باسيليوس إلاّ مرغمًا. شخصيته لم تتحرر من تأثير أخيه ولم يستطع أن يعارض مشيئته. ولكننا نشعر بأن هذا العمل الرعائي لم يوافق طبعه فهو لم يكن يملك المؤهلات الكافية للأعمال الإدارية. كان باسيليوس يشكو في رسائله من سذاجة أخيه وعدم خبرته الكلية في شؤون الإدارة الكنسية. أما بشأن مجابهة الآريوسيين في أبرشيته فلم يتمكن من مواجهتهم بحزم. وكان الأمبراطور الحاكم ڤالنس يميل الى هذه الهرطقة فساندهم في عقد مجمع محلي سنة ٣٧٦ أقال غريغوريوس فاضطر الى التخلي عن أبرشيته لفترة من الزمن. إلا أن بعد موت ڤالنس عاد غريغوريوس الى مدينة نيصص منتصرا واستُقبل بحفاوة وتابع عمله الرعائي بسلام. في سنة ٣٧٩ يبرُز اسمه في المجمع المنعقد في مدينة أنطاكيا الملتئم لإنهاء مشكلة الانشقاق فيها. تسلطت الأضواء عليه في هذا المجمع نظرًا لموهبته الخطابية المميزة،

فنال ثقة المجمع وأُرسل بمهمة الى فلسطين والبلاد العربية. فيما بعد نلتقيه في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ حيث حيّاه المجتمعون «كعمود الأرثوذكسية». نلاحظ أن في هذه الفترة كان قد توفي باسيليوس ولذلك برزت شخصيته بقوة الى حيّز الوجود، فمثّل دورًا هامًا أثناء انعقاد المجمع وشعر الجميع بأنه وريث فكر أخيه الذي اختارته العناية الإلهية لكي تنتصر الحقيقة بواسطته. يبدو أن فصاحته نالت فيما بعد إعجاب بلاط القسطنطينية، فنراه ما بين سنة ٣٨٥ و٣٨٦ يلقي عظة رائعة في تأبين الأميرة بولكاريا، ثم بعد ذلك استدعي لوفاة الأمبراطورة فلاسيللا زوجة ثيودوسيوس، فاستذوقت كلمته التأبينية الطبقة الأرستقراطية وذاعت شهرته وازداد نفوذه. إلاّ أن هذا الأمر لم يؤثر على كبريائه بل بقي متواضعًا مبتعدًا عن أمجاد الدنيا. بعدئذٍ يذكر اسمه سنة ٣٩٤ في مجمع ثانٍ عقد في القسطنطينية ثم يتوارى ذكرُه من صفحات التاريخ. توفي على الأرجح سنة ٣٩٥.

مؤلفاته

ترك غريغوريوس مؤلفات مهمة أغنت المكتبة المسيحية بتنوعِها وعمقِها وأسلوبها الشيّق. نذكر أهمها:

- مؤلفات لاهوتية

- الخطبة التعليمية: هو كتاب أعِدّ لمساعدة المعلمين الذين كانوا يهتمّون بتدريس الموعوظين.
- كتابات ضد الآريوسيين: بخصوص هذه البدعة يبرز غريغوريوس ملخصًا لاهوتيًا ماهرًا يعتبر مرجعًا في التعليم المسيحي.
- كتابات ضد بدعة أبوليناريوس: وهي بدعة تطعن بالتجسد أيضًا، يردُّ عليها بطريقة منطقية رائعة ويدافع عن التعليم القويم.

مؤلفات في دراسة الكتاب المقدس

- كتاب خلق الانسان: وهو تتمة لكتاب أخيه باسيليوس

Hexameron أي خلق العالم الذي لم يتكلم على اليوم السادس. هذا الكتاب يدل على ثقافة مؤلفه وسعة اطلاعه.

- حياة النبي موسى تبرز شخصية هذا النبي العظيم بطريقة ملحمية.

- مجموعة عظات عن الكتاب المقدس منها ١٥ عظة على كتاب «نشيد الأناشيد».

مؤلفات تقشفية

- كتاب في «البتولية» وهو أشهر كتبِه يتكلم فيه على النفس التي تصبح في البتولية عروس المسيح.

- حياة القديسة مكرينا وهي أخت غريغوريوس. عاشت في الدير حياةً رهبانية مثالية. يروي حياتها بطريقة مؤثرة وبأسلوب جميل ويدعوها معلمته الروحية.

عظات ورسائل

- عظات عقائدية بمناسبة الأعياد وعظات تأبينية ثم عظات في مدح القديسين أشهرها تلك التي يتكلم فيها على غريغوريوس العجائبي.

شخصية غريغوريوس

نستطيعُ أن نتعرفَ على شخصية غريغوريوس من خلال مؤلفاتِه وإن لم يتكلم هو على نفسه. غريغوريوس مفكر وفيلسوف، يحب العلوم الطبيعية، يلاحظ بدقة ويراقب ما حوله. في لاهوته يعتمد على المنطق ويكتب بوضوح. يبني أجهزة منظمة ليوضح فكرته. كان يميل الى العزلة. يعيش منفردًا. لا يحب المجتمع ولم يولد ليكون أسقفًا. يملك حيوية متّقدة كأخيه باسيليوس ولكنه يختلف عنه تمامًا. فبينما باسيليوس يكرسُ حياته كلها للشؤون

الخارجية والسياسة الكنسية ويدير شؤونها كمؤسسة، غريغوريوس لا يميل إلاّ للحياة الروحية والعمل الفكري والتمارين الذهنية. كان رجل بلاغة قبل كل شيء، يجيد فن الخطابة ويريد أن يبلّغ رسالة المسيح الى المؤمنين بطريقة جذابة. ولكننا نلاحظ عند الأخوين قاسمًا مشتركا هو التعبير عن الحاجة الملحة الى الاستقلالية وهذه الارادة القوية لتنمية شخصيته الفكرية والروحية. غريغوريوس جاهد لكي يثبت نفسه وحقه في الحياة وبالنهاية لكي يسيرّ بحريّة مركبة حياته. كان تحت وطأة قدره الذي جعله الأخ الأصغر لرجل عظيم. لم يتمكن من التصرف بتلك الثقة الطبيعية التي كانت تطبع كل تصرفات باسيليوس. رغم ذكائه الحاد وعمق تفكيره بقي في المرتبة الثانية وعاش في ظل أخيه الذي سحق شخصيته وحساسيته المرهفة عن غير قصد. ولذلك نلاحظ فيه شيئًا من التعقيد الناتج عن تأثير شخصية باسيليوس الفذة. فتسربت طاقته الى الداخل ونضجت في العمق ونمت في الداخل فاكتسبت شيئًا فريدًا وسريًا. وما أن توارى باسيليوس حتى تفجرت هذه الطاقات، وهذا له تفسيره في علم النفس. وكانت إنجازاته عظيمة في حقلي اللاهوت والفلسفة مما يدل على ثقافة متينة وسعة اطلاع، مع أن أهله لم ينفقوا على تعليمه كما فعلوا لأخيه.

غريغوريوس هو أيضًا راهب ولكنه فتح آفاقًا جديدةً للحياة الرهبانية، فقد أتى بنظرية جديدة في التقوى والتصوف وسّعها في كتابه عن البتولية وأصبحت فيما بعد طريقة متّبعة في الكنيسة. إنه راهب متصوف. التقشف عنده تحقيق منذ الآن، أي في الحياة الأرضية، للقاء المحبة بين المسيح والكنيسة، لقاءٌ بين النفس وخالقها. حياتُه الروحية تتغذى من كتاب نشيد الإنشاد الذي فيه تعبيرٌ عن العشق بين الخالق والمخلوق. نظريتُه في النفس تأثرت بالفلسفة، بفلسفة أفلاطون وأفلوطين وفيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندري الذي كان ضليعًا في الفلسفة والكتاب المقدس، وأوريجنس ولكن بدون أن يقعَ في أخطائه، والمعلم ليبانيوس الوثني.

تشرب كلَ شيء من ثقافةِ عصره ولكنه أتى بنظرية مسيحية معتمدة على الكتاب المقدس والتقليد الآبائي. يقول أن النفس البشرية المطهّرة من الشهوات الجسدية تشعر وكأنها تُختطف بنشوة أثرية، فيتراءى لها في الظلمات المنيرة في الليل الإلهي بهاء الختن ويدنو منها. ومع أنها لم تستطع أن تراه وتلتقطه وتعرف حقيقته بسبب هذا المجد، إلا أنها تشعر بالسعادة الحقيقية التي لا تتحقق في معرفةِ الله فحسب بل باحتواء الله في داخلها. ولكي تبلغَ النفسُ هذا الهدف ينبغي أن تموتَ للعالم، أن تصلب للعالم على مثال السيد المسيح. وهو يحب تعليم بولس الرسول. يقول غريغوريوس في عظته الشهيرة عن نشيد الإنشاد: «إذا لم تمت فانك تبقى بدون حياة، بينما بالموت تدخل الى الحياة الأبدية تاركًا خارجًا طبيعتك المائتة» فالنفس كما يعلم غريغوريوس في مسيرة مستمرة لملاقاة خالقها لأنها مدعوة للشركة الأبدية معه، مسيرةٌ لا تنتهي في الحياة الأرضية، تستمر بعدها فتبقى محضونة في الأبدية بأروع اتحاد مع السيّد، اتحاد في سكون وحركة معًا كالينبوع المتدفق، مياه النفس المتحررة تتصاعد نحو الله، تشبه البئر في عمقها والنهر بجريانه المستمر، فتصبح مملوءة من الله كمثل تيار خفي في داخلها، منورة في بهائه، متألقة كالمشعل، مخطوفة ومتساوية بالروح وكأنها مرفوعة بعربة نارية. هذا الكلام عند غريغوريوس لا يعبرٌ عن نظريات جافة وليس بأطروحةٍ جميلة إنما هو عصارة اختبار روحي عميق. لقد عاش اللحظات السماوية وعبرّ عنها. نلمس صدقًا مخلصًا في كلامِهِ يجعله يتسرب الى أعماق الكيان وهو يؤكد ذلك قائلاً: «من عاش هذه التجربة الداخلية بعد الرسل والأنبياء باستطاعته أن يبلغها للإنسانية». فالخلاص عنده يرتكزُ على التطهير الذاتي والتقشف وعودة النفس الى خالقها. لا يتصور أنّ الطبيعة البشرية تتمكّنُ من أن تبقى وتدوم بقواها الذاتية. جوهرُها يتحققُ ويستمر بفعل توقها نحو الخالق. اللاهوت في النهايةِ يتحققُ في الاتحاد مع الله بالمحبة والعبادة لأن الله في جوهره لا يستوعب ولا يدرك. فالعلاقةُ بين الخالق والمخلوق هي من نطاق

النعمة الالهية المجانية ولا تتحقق إلاّ في فلك الحرية والقداسة. غريغوريوس يوسعُ فكرةَ التأله التي أتى بها اثناسيوس ويشرحُها فيقول أن تألهَ الانسان هو حركةٌ معاكسة لتنازل الإله بِتجسده: باستطاعة الانسان أن يتخلى عن كبريائه وشهواته فيتنقى ويسمو ويستمد الألوهةَ أي التشبه بالإله بواسطةِ المسيح الجالس عن يمينه، لأن الانسان هو صورةُ الله، خُلق هكذا، فعليه أن يسترجع من جديد هذه الصورة التي شوِّهت بالخطيئة، فتعكسُ من جديد كالمرآة الحية صورة الله وبهاءَه. إلا أن رحمة الله التي لا حدّ لها تحقق هذه العملية وهذا الإنجاز العظيم. فحينئذٍ ينوَّر الانسان بالنور الإلهي ويشع به أحيانًا ويحضن بمحبته. هذا هو منذ الأزل هدف الإنسانية الوحيد وتحقيق الغبطة عينها وهذا هدفُ خلق الإنسان في المشروع الإلهي. ثم يتساءل عن قيامة الأجساد ومصيرها بين لحظة الموت ويوم القيامة وينتهي الى فكرةِ روحانية الجسد الممجَّد، جسد المسيح بعد قيامته كما ظهر لتلاميذه.

أما بالنسبة للثالوث فغريغوريوس عالجَ هذا الوضع بطريقة رائعة ويرهن عن ألوهة الروح القدس في عظة شهيرة ألقاها في القسطنطينية سنة ٣٨٣. حاول بقلمه ولسانه أن يوضح الإلتباسات اللاهوتية الناتجة عن النزاعات التي حصلت في مفهوم الثالوث وألوهة الابن الوحيد، وغيرها من الأمور المعقدة التي كان يثيرها الهراطقة. دافعَ عن الإيمان القويم وشرحَه بكل وضوح مظهرًا الوحدة الداخلية والتعاون المستمر بين الثلاثة أقانيم في قلب الثالوث. اجتهد أن يبرز علاقة الروح القدس لا مع الآب فحسب بل مع الابن أيضًا. لاهوته هو لاهوت الإله الوحيد في ثلاثة أقانيم وهذه المحاولة في شرح سر الثالوث الأقدس كانت مساهمته في تأسيس العقيدة المسيحية في المجمع المسكوني.

وأخيرًا شرحه للكتاب المقدس هو شرح فريد من نوعه يستلهمه من معلمه أوريجنس. فطريقته مجازيّة رمزية. حاول أن

يسهّل فهم الكتاب للشعب غير المتعلم، فيقول أنه يحاول أن يستعمل الوسائل لكي يصبح خبز الكتاب المقدس سهل الهضم لأنه في الواقع صعب الابتلاع. غريغوريوس يسير على طريق الآباء الذين أتوا من قبله في شرحه ويعتمد على آرائهم في نطاق تقليد رسوليّ صحيح. لا يستطيع الانسان أن يحلل النصوص ويفسّرها بحسب مزاجه بل هناك خطٌّ رسوليٌّ آبائيٌّ ينبغي أن يتبعَه لكي لا يشذَّ عن تعاليم الكنيسة. ولكي يشرحَ هذه الأمور يلجأ غريغوريوس الى التعريف الواضح والتحديد المنطقي وترتيب الأفكار وتحليل الأمور ثم إعادة تركيبها بمنهاجية منظمة.

سنكتفي بهذا القدر من الكلام عن هذا المعلم العظيم وقد يطول الحديث عنه كثيرًا نظرًا لكثافة أفكاره وعمق نظرياته ومعرفته الدقيقة للعلوم الطبيعية وسعة اطلاعه على تركيب جسد الانسان وتناسق أعضائه وحكمة الله في تكوينه والمعلومات الطبّية التي جمعها في كتاب خلق الانسان، وإلمامه بعلم الفلك. كل هذا جعل من غريغوريوس كاتبًا علّامةً من بين كتّاب عصره، علاوة على إيمانه العميق ولاهوته القويم جملته العذبة المتألقة وأسلوبه الأنيق. يضاف إلى هذا كلّه تقشّفُه وزهده في الدنيا وتصوفه وعشقه الإلهي الصادق. فكان اللاهوتي والمفكر والفيلسوف والمتصوف.

الفصل الثالث عشر

غريغوريوس اللاهوتي

٣٢٨ ـ ٣٩٠

مقتطفات من خطبته حول المعمودية المقدسة

انني اسلمكم هذا الإعلان العقائدي عن الثالوث القدوس، وهذا الإعلان يجب أن تحفظونه طيلة حياتكم كمرشدٍ وحامٍ لكم ألا وهو: ألوهة واحدة وقدرة واحدة، موجودة في الثلاثة ضمن الوحدة وهي تشمل كلاً من الثلاثة على حدة، إلا انهم غير مختلفين في الجوهر والطبيعة، لا يزيدون ولا ينقصون بعملية جمع أو طرح، متساوون في كل مظهر وهم، في كل حالٍ، الشيء نفسه كما ان جمال السموات وعظمتها شيء واحد. لقاء أبدي للكائنات الثلاثة الأبدية، على أساس ان كلا منهم يعتبر الهًا بحد ذاته كذلك هو الآب كذلك هو الإبن وكذلك هو الروح القدس ايضًا. كل واحد متميز بخاصيته الشخصية، الثلاثة اله واحد منظورًا اليهم معًا، كل منهم إله لسبب تساويهم في الجوهر الثلاثة إله واحد بدافع الملكية.

من خطبته ٣٩ حول النور المقدس
(مقطع حول الثالوث القدوس)

إنهم ثلاثة في الأقنومية أي أقانيم، إذا شئنا أن ندعوهم هكذا، أو أشخاص أيضًا لاننا لا نريد أن نتشاجر حول الأسماء بما أن الألفاظ تعطي المعنى نفسه. إلاّ أن الثلاثة واحد بالنسبة الى الجوهر، هذه هي الألوهة. ذلك إنّهم منقسمون بدون انفصال، إذا صح التعبير، ومتّحدون في هذا الإنقسام بالذات. فالألوهة بالفعل واحدة في ثلاثة، والثلاثة هم واحد، فيه تستقرّ هذه الألوهة وزيادةً في الإيضاح نقول: ان الثلاثة هم

الألوهة بعينها. نحن نريد أن نتجنّب التجاوزات والأخطاء، أي الاّ نجعل من الوحدة إختلاطًا ومن الإنقسام انفصالاً. نريد أن نبتعد عن هرطقة آريوس بقدر ابتعادنا عن هرطقة سابيليوس التي تعني إختلاطًا في الأقانيم. هاتين الهرطقتين هما شرّان على طرفي نقيض وإن تساوتا في الضلال. ما حاجتنا الى أن نعمل كأصحاب البدع الذين لا يميّزون بين الأقانيم أو يقسمون الألوهة بصورة غير متساوية.

ثم يتابع

الآب هو المصدر ولا بداية له لأنه لا يصدر عن أحد؛ أمّا الإبن فهو ابن ولكنه ليس بدون مصدر لأنّه صادرٌ عن الآب. ولكن إذا أخذت كلمة مصدر في المعنى الزمنيّ، فالأبن هو أيضًا بلا بداية لأنّه هو بالضبط واضع الزمن وليس خاضعًا له. أما الروح القدس فهو حقًّا الروح الصادر عن الآب ولكن ليس بالبنوّة والإتّلاد بل بالإنبثاق (هذه الكلمة أدخلها غريغوريوس على القاموس اللاهوتي) إذا جاز لنا أن نجدّد الألفاظ لكي تتوضّح الفكرة. أمّا خاصّة الآب في أنه غير صادر عن أحد، لا تزول بفعل إنّه يلد، ولا خاصّة الإبن في أنّه مولود تتغيّر أيضًا بفعل إنه صادر عن غير المولود. الروح القدس لا يذوب في الآب أو في الإبن بصفته منبثقًا من الآب أو بكونه إلهًا، وإن أنكر الملحدون الوهته(*).

غريغوريوس، كباسيليوس، ينتمي إلى الطبقة الثقافية - الإجتماعية التي قدّمت للكنيسة أشهر أساقفتها في القرن الرابع، أي تلك الطبقة الثرية النبيلة المتعلّمة الكبادوكية التي نشأت نتيجة تفاعل الفكر الإغريقي بالإيمان المسيحي والذي كان دافعًا لهذا الإزدهار الفكري المدهش والمفاجىء الذي برز في تلك المنطقة القديمة من آسيا الصغرى. دعي غريغوريوس بالنازينزي مع أنّه لم يولد في هذه المدينة ولم يكن أسقفًا عليها. والده هو الذي كان أسقف مدينة نازينز Nazianze دعي أيضًا ثيولوغوس أي اللاهوتي بسبب عظاته

(*) سابيليوس هو صاحب بدعة لم تفرق بين الأقانيم بل ذوّبتهم الواحد في الآخر (القرن الرابع).

(*) (*) هذه النصوص أخذت من كتاب: QUASTEN vol.III p. 357 - 360

اللاهوتية الخمس التي ألقاها في القسطنطينية والتي كانت رائعة. في هذه العظات أوضح النظرية المستقيمة لسر الثالوث حين كانت الكنيسة تتخبّط في بحر أمواج الهرطقات التي كانت تهدد كيانها. غريغوريوس ساهم بالتالي وبطريقة فعّالة في إنجاح المجمع المسكوني الثاني القسطنطيني وفي نص دستور الإيمان الذي ثبّت العقيدة المستقيمة المرتكزة على الكتاب المقدّس والتقليد الشفهي وتعليم الآباء، وبدّد الغموض والالتباسات نهائيًا في هذه المسألة الإيمانية الدقيقة.

حياته

ولد غريغوريوس في بلدة أرينز Arianze الصغيرة المجاورة لمدينة نازينز حوالى سنة ٣٢٨ في كنف عائلة مسيحيّة عريقة. والده كان قد اهتدى إلى المسيحيّة بفضل إلحاح زوجته المؤمنة نونا، وقد مثّلت الدور المهمّ في تربية ولدها وتنشئته مسيحيًا. كان هذا المولود ثمرة زواج بقي لفترة طويلة عقيمًا، ولذلك حينما ولد قدّمته أمّه التقية إلى المسيح مكرّسةً إيّاه لخدمته. وهكذا، بدل أن ينعم هذا الطفل المنتظر طويلاً بالغنج والدلال، سهر أبواه على تربيته بطريقة جدّيّة، صالحة، ممّا فجّر طاقات هذا الولد الموهوب وحثّه على محبة العلم والثقافة. أبوه، أسقف نازينز، كان رجلاً بارًا تقيًا، محبًا للعدل، عارفًا مصلحة الكنيسة وإن لم يكن ضليعًا في اللاهوت. إلاّ أن غريغوريوس لم يعتمد باكرًا. في القرن الرابع كانت عمادة الأطفال قائمة، إلاّ انه في بعض الأوساط، جرت العادة أن تؤجّل معمودية الشبان حتى يبلغوا سن الرشد أي بين سن ٢٥ و٣٠ سنة، وأحيانًا كان بعض الناس ينتظرون أواخر حياتهم ليعتمدوا، وكان هذا الأمر من باب التأني واحترام الأسرار لا من باب الاهمال. كان الأهل يحرصون على توبة أبنائهم ولذلك يصبرون إلى أن يعبروا بسلام فترة تجارب الصبا ويتخلّصوا من أهواء الشباب حتى يعتمدوا. عندما شبّ غريغوريوس تردد على أهم مراكز العلم في

زمانه. أراد أبوه أن يفسح له المجال ليتعمّق في الدرس والمعرفة، فلم يتأخّر عن إنفاق المبالغ الطائلة من أجل تحقيق هذا الهدف. أرسله إلى قيصرية فلسطين ثم الى الاسكندرية ليدرس في مدرستها الشهيرة. وبعدها ترك غريغوريوس الفتى الاسكندرية وقصد أثينا مدينة العلم ومركز الثقافة ومكث فيها مدة طويلة وهناك تعرّف على باسيليوس الذي أصبح صديقه الحميم والذي مثّل الدور الكبير في حياته فيما بعد.

يخبرنا غريغوريوس عن حادثة، أثناء سفره من الاسكندرية إلى أثينا بحرًا، هزّت كيانه إذ جابه فيها المخاطر والموت، وفي الوقت نفسه وطدت ايمانه. روايته تدل على أسلوبه الشيق وإنشائه الجميل، وكأنّه لوحة حيّة متحركة ملونة أمامنا. يقول أن السفينة كانت على مقربة من جزيرة قبرص عندما فاجأتها عاصفة هوجاء، وفي لحظة أصبح كل ما حولها مظلمًا مكفهرًا والرياح تئن وتصفر. أخذ الرّكاب والبحارة يرتجفون خوفًا، والصلوات تتصاعد تلقائيًا من كل صوب إلى ان إستجاب الله وأرسل النجدة. تراءى مركب فيه تجار فينيقيّون أقوياء البنية، فاقترب منهم، وبعد محاولات تمكّن هؤلاء التّجار البحارة من أن يربطوا السفينة الهائمة بمركبهم لئلا تغرق. وهكذا بقيت السفينة تتأرجح وتلاطمها الأمواج عدّة أيام والبحر يزداد هيجانًا والمياه تتصاعد بشكل دوامات عموديّة والرعب يتملّك الجميع. وحيث ان المصيبة تولد المخافة والتقوى اشترك البحارة والركاب كلهم بالصلاة واخذوا يستنجدون بالمسيح، على مثال غريغوريوس الذي لم يتوانَ عن مواصلة تضرعه. وهنا نتوقّف قليلاً لنسمع صرخته المستغيثة ولنتعلّم من غريغوريوس كيف كان يصلّي من كل قلبه وبطريقة عفوية قائلاً:

«إليك رفعت نظري يا رب، أنت حياتي وروحي، أنت نوري وقوتي وخلاصي. أنت تُرهب وتضرب في الكوارث ولكنّك أنت أيضًا تلاطف وتشفي، أنت لا تدع المحن تنقضّ علينا إلاّ رافقتها

بالمعونة والمساعدة... تلميذك يختطف في سرعة الرياح، يكاد يهلك، إستيقظ يا رب هيّا إليّ وهدّىء خوفي...»

كان لا يزال يتمتم هذه الصلوات المتدفّقة مع الزفرات، وإذا بالعاصفة تتوقّف فجأة والبحر يهدأ وكأنّ شيئًا لم يكن والسفينة تتابع مسيرتها! وكم كانت فرحة غريغوريوس عظيمة عندما استنتج أن البحّارة جميعهم آمنوا بالمسيح!

نلاحظ انه في هذا الزمن القديم، حيث وسائل التنقّل بطيئة وخطرة، كان الناس يقومون برحلات طويلة وشاقة في طلب العلم. لم يتردد الطالب في قطع المسافات واختراق الجبال والبحار لسماع درس أستاذ شهير. الأساقفة كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى لعقد المجامع، من المشرق إلى الغرب، من روما إلى القسطنطينية، من الاسكندرية إلى بلاد غاليا... نتساءل امام هذا الواقع هل كانت للانسان القديم مقدرة على تحمّل المشاقّ أكثر من الانسان المعاصر؟ ربما خشونة الحياة تكسب الأجساد مناعة، والحضارة في النهاية مضرة.

في آثينا

نعود إلى بلاد اليونان حيث التقى الصديقان باسيليوس وغريغوريوس وسكنا معًا في شقة واحدة وجمعا حولهما نخبة من الطلّاب الجديين، متجنبين فئة محبي الحفلات والسهرات الخلاعية، مبتعدين عن ضجيج الأعياد الوثنية وضوضائها. لم يعرفا إلاّ طريق الجامعة والكنيسة وكانا من جماعة الموعوظين لانهما لم يكونا قد اعتمدا بعد ولا يحق لهما البقاء إلاّ في القسم الأول من القداس الالهي. كل هذه التفاصيل ينقلها إلينا غريغوريوس في مذكراته قائلاً: «كنّا نغمض أعيننا عمدًا دون هذه المظاهر الوثنية لمدينة آثينا معتبرينها خطرًا على إيماننا المسيحي بسبب كثرة المغريات ومختلف وسائل التسلية التي تقود حتمًا الى الخطيئة. كنا نتكاتف لئلا نقع في

فخاخ التجارب. . . ورغم كل هذه العقبات كان إيماننا يثبت وفخرنا يزداد بانتسابنا إلى المسيح. أما الطلاب ذوو الإيمان الفاتر فوجودهم في مدينة كهذه كان يخفف من عزيمتهم ومع الأيّام يطفىء شعلة إيمانهم».

من بين الطلّاب الذين عاشرهم غريغوريوس، واحدٌ من العائلة المالكة يدعى يوليانوس Julien وهو قريب الأمبراطور كونستانس، والذي سيصبح فيما بعد الامبراطور الملقب بيوليانوس الجاحد. ويبدو أن غريغوريوس لم ينسجم أبدًا مع ذلك الطالب ذي النظرات المتقلّبة والحديث المتفكك والتصرف الغريب كما يصفه غريغوريوس، وقد دعاه في إحدى رسائله «بليّة الامبراطورية الرومانية»! بقي هذا الشعور ينتاب غريغوريوس حتى بعد أن استلم يوليانوس الحكم، وازداد تهجمًا عليه بنوع خاص عندما منع هذا الأخير المسيحيين من دراسة الآداب الكلاسيكية حارمًا إيّاهم كنوز الفلسفة الاغريقية وهذا في نطاق مشروعه الهادف إلى ترميم الوثنيّة واعادة اعتباره.

عندما انتهى الصديقان من الدراسة، عاد باسيليوس إلى بلاده حيث كانت تنتظره عائلته بفارغ الصبر، أمّا غريغوريوس فبتوسّلات الطلاب الآثينيين الملّحين لكي يبقى معهم، مدّد إقامته وعلّم في آثينا لفترة من الزمن.

عودته الى كبادوكيا

عندما رجع إلى بلاده المحبوبة بناء لطلب أبيه سنة ٣٥٩، اعتمد وبقي فترة يدير شؤون الرعية مهتمًّا بالتعاليم والمحاماة وغيرها، ملازمًا والديه الطاعنين في السن. لكن هذا النمط الحياتي لم يعجبه، والعيشة التي تجعله ينخرط في المجتمع ليعمل على وتيرة واحدة لم تستهوه . كان غريغوريوس في الأساس يحلم بحياة رهبانيّة وانعزالٍ عن العالم. وسنحت له الفرصة لتحقيق هذا الحلم عندما

وصلته رسالة من صديقه باسيليوس يخبره فيها عن خلوته ويتغنّى بجمال الطبيعة التي تحيط به ويدعوه إلى الاشتراك معه في هذا التأمّل والخبرة الروحية الجديدة. فقرر الذهاب بدون تردد والتحق بصديقه على ضفاف نهر الايريس. ولكنه عندما وصل شعر بخيبة لانّه لم يجد البقعة المختارة بهذا الجمال الذي يصفه باسيليوس ولم يشاركه الحماس «فالنهر الرقراق يغطّيه الضباب وصوت الشلال مزعج رتيب، والصخور ترتمي فجأة أمام المارّة من أعالي الجبال... أما مياه النهر فهي عكرة ومجراه يحمل الحَصَى أكثر من الاسماك...»

مما يستدعي الانتباه هو نفسية غريغوريوس المتشائمة التي تجعله يشكو غالبًا. المشهد نفسه يثير لدى الصديقين شعورًا مختلفًا مما يدل على كم كانا متباينين في الطبع رغم صداقتهما المتينة. كان باسيليوس يتحمل كل أنواع التقشّف وقساوة العيش. بينما غريغوريوس يشكو من البيت الحقير حيث كانا يسكنان «سقفه المترجرج والمدفأة المنطفئة والأكل القليل والخبز الذي يكسر الاسنان». يتابع غريغوريوس قائلاً أنّ لولا إميليا والدة باسيليوس (التي يدعوها مغذية الفقراء) لمات جوعًا.

ولكن هذه الأمور بدت ثانوية، تافهة، نظرًا للغذاء الروحي الذي اكتسبه بفعل وجوده برفقة باسيليوس. السلبيات كلّها توارت أمام اللّذة الفكرية التي يتمتّع بها. هذه الفترة التي أمضاها بالقرب من صديقه كانت لها حسنات جمّة وتركت في قلبه أجمل الانطباعات، فهو يذكرها فيما بعد والحنين يغمر قلبه. كان يتذكّر الصلوات المتتالية والتراتيل المشتركة والسهرانيات الروحية والاعمال اليدوية والشغل الريفي المنشّط للاجساد من قطع أشجار وحمل أخشاب وتكسير حجارة وفلاحة الأرض وريها وزرع الغرسات إلخ.. أما الذي أقبل عليه غريغوريوس بشغف فكان دراسته النصوص الكتابية لانّه كان يتذوّق كلمة الله منذ نعومة أظافره ويحيا بها ويجد فيها على حدّ قوله «طعمًا ألذ من العسل» إضافة إلى مؤلّفات أوريجنس المعلّم

خاصة في شرح الكتاب المقدّس التي كان لها القسط الوافر من اهتمامات الناسكين. . .

الكاهن

رأى غريغوريوس الشيخ أن غيبة ولده طالت جدًّا وكان بأمسّ الحاجة الى مساعدته. فاستدعاه من مكان عزلته. وكان لا بد من تلبية نداء الواجب. غريغوريوس كان يحبّ والده ويطيعه، ولكنّه استاء منه عندما قرّر أن يرسمه كاهنًا لكي يثبت دوره في الرعية ومع هذا لم يقاوم ولم يرفض بل قبل مرغمًا سر الكهنوت، ثمّ فرّ هاربًا بعد رسامته تاركًا وراءه رعيّة غاضبة ساخطة من هذا التصرّف الطائش. لجأ مرّة ثانية إلى البنطس عند صديقه باسيليوس الذي كان يدير شؤون الدير الذي أسّسه هناك وبقي فيه لمدّة من الزمن. لم يعد الى نازينز إلاّ ليحلّ مشكلة عقائديّة كان والده قد تورّط بها، ولكي يساعده على ضبط انشقاق داخلي في أبرشيته نتج عن ذلك. غريغوريوس الشيخ، كما قلنا، كان قد اهتدى في عمر متأخّر الى المسيحية وقذف فجأة في قلب العمل الكنسي إذ عين أسقفًا دون أن يتعمّق في دراسة اللاهوت. كان يجهل التدرّجات الدقيقة في العقيدة، وكان قد وقّع جهلاً لا عمدًا على وثيقة هي في الواقع معاكسة لايمان نيقيا، مما أثار معارضة حزب قوي حريص على الإيمان المستقيم. تمكّن غريغوريوس من إقناع والده بالصواب وجعله يوقّع على شهادة إيمان أرضت الجميع، وهكذا حل السلام في الرعيّة.

أسقفية سازيما

سنة ٣٧١، أراد باسيليوس أن يدافع عن نفسه ويقوّي أبرشيته بإنشاء أسقفيات جديدة بإدارة أساقفة أصدقاء له يستطيع الاتكال عليهم. وهكذا سلّم أخاه أسقفية نيصص التي فشل في إدارتها، وصديقه غريغوريوس أسقفية سازيما التي لم يمكث فيها إلاّ القليل. كان باسيليوس رئيس أساقفة مقاطعة الكبادوك وذا نفوذ قويّ.

والامبراطو فالنس الآريوسي، إمعانًا منه في الحد من نفوذه، قسم المقاطعة إلى قسمين. وكان أسقف «تيان» Tyan الواقعة على تخوم المقاطعتين يضايق باسيليوس جدًّا. وكان هذا الأخير يأمل من صديقه أن يساعده للتخلّص من هذا الأسقف المراوغ. أما هذا الاختيار فكان خاطئًا لأن غريغوريوس لم يكن ذلك الانسان الذي يحبّ المجابهة ويحبّذ المعارك، ومع هذا لم يرفض الأسقفية قبلها مرغمًا، متألمًا، حزينًا، مستاء من صديقه الذي رماه في هذه البلدة البشعة المملوءة غبارًا والتي لا يسمع فيها إلاّ ضجيج الخيل وأصوات المسافرين وجباة الضرائب. والملفت أن غريغوريوس الشيخ شجع ولده لقبول مشروع باسيليوس من أجل مصلحة الكنيسة. إلاّ أن غريغوريوس شعر بأن خيار باسيليوس كان ظلمًا يجرح إحساسه، فظلمٌ أن يرسله الى هذا المكان القبيح كحارس حدود لمجابهة أسقف من هذا النّوع، فبعد ان مكث فترة من الزمن لم يجد أمامه سوى الفرار. ترك سازيما وانعزل في مكان خلوة يبكي فيه حرّيته المفقودة، لكنّه لم يحقد على صديقه بل سامحه فيما بعد بكل محبّة، وعادت المياه إلى مجاريها.

أسقف القسطنطينية

مرّة أخرى استدعاه والده العجوز من عزلته، فعاد إليه وبقي بقربه حتى وفاته سنة ٣٧٤. حينئذٍ عُرض عليه أن يخلف والده على أسقفية مدينة نازينز ولكنه رفض. إلا انه بقي مع والدته يهتم بها إلى أن ماتت في السنة نفسها. حينئذ شعر غريغوريوس أنّه تمم كل واجباته العائلية والرعائية وباستطاعته أخيرًا أن يكرّس حياته الرهبانية والانعزال بعيدًا عن العالم لمناجاة ربّه. ذهب إلى دير القديسة تقلا في منطقة ايزوريا Isaurie أي على الضفة الجنوبية من آسية الصغرى حيث مكث حتى ٣٧٨. أربع سنوات قضاها في التقشف اليومي والتأمل الروحي والصلاة الدائمة ودراسة الكتاب المقدس ومراسلة الاصدقاء. في أواخر هذه الفترة توفي صديقه باسيليوس فبكاه بكاءً مرًّا. فأصبح

بالتالي، مع غريغوريوس النيصصي، المرجع الوحيد والسلطة العليا في الامور اللاهوتية. وتوفي أيضًا أخوه سيزاريوس الطبيب الماهر والذي اشتهر في البلاط وكان كان يحبّه كثيرًا فبات يشعر بألم عميق وكآبة أليمة. كتب الى صديق له قائلاً «لقد فقدت أخي الروحي وأخي الجسدي في آن. الكنيسة فقدت راعيها لا أحد الآن سيقود دفة مركبها...» وصل به الحزن إلى درجة انه طلب الموت كمخرج من مأزق الحياة. إلاّ أن موت الامبراطور فالنس سيقذف به في قلب الحدث الكنسي.

وفيما هو معتزل قصدته جماعة من المؤمنين الحريصين على إيمان مجمع نيقيا طالبين منه الذهاب إلى القسطنطينية ليثبت اللاهوت القويم في مدينتهم ويدحض الهرطقات التي كانت تعاني هذه المدينة من هجماتها منذ زمن. تردد كعادته ثم وافق على الذهاب نظرًا لخطورة الموقف وأهمية الفرصة التي ستغيّر مجرى الامور الكنيسة بعد أن تسلّم الامبراطور تيودوسيوس الأول الحكم ورجّح كفة إيمان نيقينا. شعر غريغوريوس بحدسه وحسه المرهف، بأهمية هذه اللحظة التاريخية خاصة وان باسيليوس كان قد كتب إليه قبيل وفاته لكي يوصيه بأن يتسلّم المشعل من بعده. فأستجمع قواه، ولأول مرّة منذ سنين اجتاز حدود آسيا الصغرى وتوجّه نحو العاصمة.

في القسطنطينية كانت الكتدرائية بيد الهراطقة ولذلك فتح غريغوريوس كنيسة صغيرة متواضعة في منزل أحد أقربائه دعاها كنيسة القيامة. عندما رأى الجمع لأول مرة الرجل الهزيل الذي وقف على المنبر، تساءلوا عن مقدرته في حل المشاكل الجسيمة التي يواجهونها. ولكن ما إن بدأ يخاطب الشعب حتى أعجب الجميع بفصاحته وأناقة اسلوبه الخطابي ومنطقه وقدرته على بسط الأمور وتوضيح الغموض وإبراز اللاهوت المستقيم بأسلوب رفيع. هذا الأسلوب واجه به الأخصام مبتعدًا عن التهجّم مترفعًا عن الحساسية الحزبية بارزًا الحقيقة فقط. حينئذ تحلق حوله المؤمنون وتعلّقوا به وإزداد عددهم. ألقى

غريغوريوس في كنيسة القيامة خمس عظات حول عقيدة الثالوث سماها العظات اللاهوتية وقدّمها على حلقات جذبت إليه نخبة من المستحقين وبفضلها فاز بلقب اللاهوتي.

في هذه الأثناء قصده المعلم الشهير ايرونيموس من الغرب ليسمع عظاته ويتعمّق في دراسة الكتاب المقدس برعايته؛ وكان يسميّه في كتاباته «المعلّم العظيم».

ولكن الآريوسيين لم يبقوا مكتوفي الأيدي، فتابعوا العمل على مضايقة غريغوريوس. حاولوا مرّة اغتياله وهاجموا مرّة أخرى بعنف كنيسته. ثم دفعوا بأحد رجال الاكليروس المدعو مكسيموس الوقح ليقوم بمحاولة لاغتصاب كرسي القسطنطينية ومارسوا ضغوطات لدرجة أن غريغوريوس استاء وأراد الانسحاب والعودة إلى ديره. إلاّ أن الجموع توسّلوا إليه بحرارة لكي يبقى قائلين:

«إن أنت ذهبت فأن الثالوث القدوس سيذهب معك».

أخيرًا تدخل الامبراطور نفسه لحل الاشكال فأبعد مكسيموس عن المدينة ورافق غريغوريوس في احتفال عظيم الى كتدرائية آيا صوفيا مع صلوات الاكليروس وهتاف الشعب كأسقف جديد على المدينة العاصمة. ولكن غريغوريوس لم يقبل بهذا الأمر الواقع بل طلب بأن يعترف المجمع الذي سينعقد عن قريب، رسميًا، بسيامته على كرسي القسطنطينية.

المجمع المسكوني الثاني

التأم المجمع المسكوني الثاني بدعوة من الامبراطور ثيودوسيوس الأول وكان عدد الآباء المشتركين ٣٨٦. افتتح المجمع في شهر أيار سنة ٣٨١ قبل وصول وفود أساقفة مصر ومكدونيا. دام هذا المجمع ثلاثة أشهر ولم يحضره في البداية إلاّ أساقفة سوريا وآسيا الصغرى الذين كانوا قد انضموا مؤخرًا الى إيمان نيقينا ومعظمهم بدون قناعة داخلية. أبرز المجتمعين كان غريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس

النيصصي الذين قاما بدور فعال في إنجاح المجمع، وروح باسيليوس كانت لا شك تباركه وترافقه بالصلوات والابتهالات من فوق.

إلى جانب مواصلة البحث لدحض بدعة آريوس والقضاء عليها، حرص المجمع على متابعة نص دستور الايمان مركزًا على الروح القدس، مؤكدًا انه غير مخلوق وانه أقنوم من أقانيم الثالوث. نلاحظ أن الآباء حاولوا سكب العقيدة المسيحية في لغة التراث الفلسفي اليوناني، وكان للكبادوكيين الدور المتميّز في إيجاد الصيغ.

دار نقاش حول عبارتين يونانيتين «سينوسيوس» Sinosios أو وحدة الاقانيم الثلاثة في الجوهر بحيث لا متسع لاي تمييز بين أقنوم وأقنوم آخر، وعبارة «هوموسيوس» Homoousios أو التمتع من قبل أقانيم الثالوث بجوهر واحد وطبيعة واحدة مع وجود تمييز بين أقنوم وأقنوم آخر. فالقضية كما أكّد المجمع ليست بحثًا في من هو الله بل هي بحث في كيف نعرف الله من خلال الكتاب المقدس والتقليد الشفهي. وأكّد غريغوريوس على «وحدة الثالوث إله واحد وقوة واحدة» قائلاً:

«عندما أخاطب أحدهم فأني أخاطب الثلاثة، أما الرقم ثلاثة فليس بالمعنى العددي وإنّما هو ديناميكية الاقانيم الثلاثة في وحدة كيانية غير منفصلة». ويتابع «اننا نعبد الوحدة في الثالوث والثالوث هو ضمن الوحدة. ينبغي أن نمجّده بكامله لانّه قدرة ملكية يساهم في العرش الواحد والمجد الواحد وهو متعال عن العالم وما وراء الزمان وغير مخلوق وغير منظور ولا نستطيع أن نلمسه. أما بالنسبة إلينا فالثالوث هو موضوع إحترام وتقديس وعبادة» إلخ... ولن نطيل الحديث عن أقوال هذا اللاهوتي الرائع في الثالوث لانها واسعة جدًا. إنها بحر من الجمال والرونق والمنطق والايمان والاسلوب الجميل، أضف إلى ذلك حرارة محبته الجياشة للثالوث وفيض التصوف في عشقه الالهي.

اعترف المجمع المنعقد بسيامة غريغوريوس على كرسي

القسطنطينية، ولكن عندما وصلت وفود مصر ومكدونيا حصلت بلبلة وطعن القادمون بتلك السيامة وقانونيتها بأن باسيلويس سبق أن سامه على بلدة سازيما وانه لا يحقّ له تاليًا أن يشغل منصب أسقف في العاصمة. استاء حينئذ غريغوريوس وهو الذي لم يسع مرة واحدة وراء المناصب والامجاد الارضية ولم يبغ إلاّ مصلحة الكنيسة والدفاع عن عقائدها. تألّم في أعماقه من هذا التصرف. لم يعارض ولم يدافع عن حقوقه ولم يطالب بشيء بل قدم استقالته بكل بساطة. قبل أن يغادر العاصمة وجّه وداعًا مؤثرًا لرعية القسطنطينية وذلك بعظة رائعة تعتبر من أجمل إنتاجه الفكري لانّه أحب تلك الكنيسة التي أعاد إليها الحياة شيئًا فشيئًا في معبد القيامة المتواضع بعد أن تجرحت بفعل البدع والنزاعات مدّة أربعين سنة.

عاد إلى كبادوكيا بعد أن ثبّت إيمان الثالوث وركزه على قاعدة ماكنة، وتابع الاهتمام بأبرشية نازينز التي بقيت طوال هذه الفترة بدون أسقف وكانت تربطه بها ذكريات والده العزيزة. وبعد أن انتخب الخلف عاد الى العزلة النهائية في ممتلكاته في بلدة أرينز حيث قضى بقية حياته في الصلاة والتأمل وتأليف القصائد.

مات حوالي سنة ٣٩٠ تاركًا كل ما ورث عن والده لكنيسة نازينز، ربما لهذا السبب سمي غريغوريوس النازينزي.

مؤلفاته

١ ـ ترك غريغوريوس ٥٤ خطبة منوعة تعالج شتّى المواضيع الدينية واللاهوتية وفي بعضها يتكلّم كثيرًا على نفسه. هذه الخطب تعدّ روعة في الاداء والمضمون وعمق الأفكار. أهمّها هي الخطب اللاهوتية الخمس أي من الخطبة ٢٧ حتى ٣١ التي يحلّق فيها إلى أسمى الدرجات في أجواء اللاهوت، وبطريقة لم يسبق لها مثيل، حتّى أتت آية من حيث البلاغة والتعليم العقائدي. سنختصر في أسطر موضوع كل منها لنعطي فكرة عنها.

الخطبة ٢٧: في هذه الخطبة يتطرّق لموضوع بدعة أفنوميوس ويتخذ موقفًا حازمًا ضد أتباعه الذين يحاربون صيغة مجمع نيقينا. ثم يعرض للصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها كل من يريد أن يعالج الأمور العقائدية والتكلّم باللاهوت والشروط التي تفرض عليه من نزاهة وأصالة وعدم تحيّز وصدق وعدل وعلم إلخ...

الخطبة ٢٨: يثبت فيها وجود الله بالحجة والمنطق والبراهين، ويشرح طبيعة الخالق وصفاته، ويشدّد على صعوبة إدراكه ثم يفسّر كيف نشأت الوثنية.

الخطبة ٢٩: يتكلّم فيها على الثالوث مثبتًا الوهة الابن الكلمة أولاً ثم ألوهة الروح القدس وإنبثاقه من الآب ومساواتهما في الجوهر مع الآب الذي هو المصدر الاول لكل شيء.

الخطبة ٣٠: فيها يوضح النصوص الكتابية التي حصل فيها التباس مع الآريوسيين، ويعلّم كيف ينبغي أن تفهم في إطارها الكتابي والتاريخي.

الخطبة ٣١: يجيب فيها على اعتراضات أصحاب البدع المتهجمين على الروح القدس والذين ينكرون الوهته فيبرهن أنّه أقنوم إلهي غير مولود كالإبن بل منبثق من الآب إلاّ أننا لا نعرف شيئًا عن طبيعته لانّه حيث يصمت الكتاب المقدس ينبغي أن نصمت أيضًا.

٢ ـ القصائد

هي أبيات شعرية جميلة جدًا ومؤثرة للغاية ولكن فيها طابع الحزن. إنّها تعطينا المعلومات الثمينة عن شخصية المؤلف وإختلاجات عواطفه.

٣ ـ الرسائل

غريغوريوس كتب حوالي ٢٤٠ رسالة تميّزت بجمال الأسلوب. يظهر من تكوينها إنّها كتبت لكي تنشر نظرًا لاهميتها الأدبية

والعقائدية. أشهرها هي تلك الرسالة التي تضمنت وصيته التي كتبها أثناء وجوده في القسطنطينية والتي ترك فيها كل ممتلكاته لكنيسة نازينز جاعلاً إياها وريثته الوحيدة.

شخصية غريغوريوس

يعتبر بعض اللاهوتيين أن غريغوريوس هو الشخصية المميزة في الثالوث الكبادوكي من حيث العمق الفكري والذوق الأدبي والفيض العاطفي. إلاّ أنه لم يحقق إنجازات إجتماعية هامّة كزميله باسيليوس ولم يتقن الفلسفة كغريغوريوس النيصصي. لم يحب القيادة. طبيعته وإحساسه المرهف أبعداه عن نزاعات العالم ومشاكله. لم يعرف إلاّ الفشل أمام وقائع الحياة المريرة. لم يعتمد على النضال ولم يجابه أحدًا، بل كان ينصح بالفضيلة ويعلّمها ولكنه لا يفرضها ولا يكافح من أجلها. يبحث عن الصداقة، يرتاح إليها ولا يستطيع أن يترعرع إلاّ في جو من التفهم والاعجاب والتعاطف لانّه أديب وشاعر علاوة على كونه مفكرًا لاهوتيًا. الفترة المضطربة التي عاش فيها لم تكن ملائمة لتنمية مواهبه ولم تسمح بتفتح طاقاته كما يجب. ربما تَفَتَّقَتْ عبقريته أكثر في عصر هادىء. لا شيء من البطولة في طبعه. يستسلم بسهولة. لا يجاهد في سبيل أي مهمة دنيوية بل يجاهد في سبيل إبراز الحقيقة.

جرت العادة أن يقارَن بين شخصية باسيليوس وشخصية غريغوريوس ومن السهل إظهار الفرق بينهما لا بل التباين. باسيليوس هو رجل المواقف وغريغوريوس يتوارى أمام الصعوبات. باسيليوس حازم بينما غريغوريوس متردّد. الأول شجاع مقدام والثاني منعزل أمام العقبات. الأول صلب الإرادة يسكت عاطفته والآخر يتحمل الأحداث دون مقاومة، يتذمر ولكن بلا مجابهة. تقوده عاطفته. لكن إذا تابعنا التعداد وفق هذا المنهاج نظلم غريغوريوس. ينبغي أن ننظر اليه بدون مقارنة، منطلقين من مبدأ إنه إنسان مسالم يضحي بكل شيء لكي ينعم بهدوء الحياة الرهبانية. لا شك في أن الصديقين تشابها روحيًا وإن اختلفا في الأطباع. القاسم المشترك الذي

جمع بينهما هو القداسة والتحسس بمصائب الناس وحب الحياة الرهبانية والتنزه عن المال ونبل الأخلاق والغيرة على مصلحة الكنيسة وحب الثالوث واستقامة الرأي وما الى ذلك.

الصفة التي تنطبق على غريغوريوس قبل كل شيء هي الشهامة وسمو الأخلاق. غريغوريوس إنسان ولع بالمثل العليا يريد أن ينجذب الناس اليها. مستقيم ولكن استقامته فيها شيء من البراءة جعلته فريسة الخداع والغش. يظن أن الآخرين يتحلون بصفاته فكان يثق بالجميع ولا يحترس من المراوغة والرياء والكذب عند الآخرين. كان غريغورويس كريمًا متسامحًا طيبًا متواضعًا منزهًا عن الإعجاب الذي يثيره. لا مكان في قلبه للزهو والكبرياء.

لاهوته

لاهوت غريغوريوس هو لاهوت آباء الكنيسة التقليدي، ولكنّه عبّر عنه بلغة صافية، غنية، متناسقة، وتعابير جميلة، أنيقة، واضحة، وبأسلوب كثيف متلاحم الأفكار مترابط الجمل. الفكرة عنده تنصبّ في قوالب من الصيغ الجميلة المحكمة القوية المؤثرة. يتكلم على الثالوث وفي الوقت نفسه يعيش في إطاره علاقته مع الثالوث مباشرة. يعبده ويخاطبه. ينجذب بنوره. إنه مترفع عن الماديات والدنيويات ومعجب بالجمال الإلهي، بالنور الأزلي الواحد والمثلث كما يقول في عظته الأربعين. نور لا تستوعبه إلّا إذا أصبحت أنت نورًا بتطهير النفس وصقلها بالصوم والصلاة وأعمال التقشف. هاجسه الثالوث القدوس، يشدد على ألوهة الروح القدس المؤلِّهة. أما بالنسبة للمناقشات في اللاهوت فينصح غريغوريوس بالإعتدال وضبط الأعصاب، ويقول إنه لا فائدة من تطرق علماني الى مواضيع اللاهوت، وخاصة الجاهل اذا دخل في المناقشة فإنه يشكل خطورة على الإيمان جدية. اللاهوت لذوي الإختصاص والسيرة الحسنة. يوصي غريغوريوس اللاهوتين بأن يتجنبوا الفضول المضر حول ولادة الإبن وانبثاق الروح مميزًا بين الولادة الإنسانية والتولد الإلهي. فالفضول

مضرّ ولا يؤدي الى نتيجة. السجود أمام سر الثالوث وعبادته قد يفتحان أمامنا أبواب المعرفة الحدسية.

لاهوت غريغوريوس في الثالوث ليس مبتكرًا إنه اتخذ نظرية باسيليوس فطوّرها وأكملها وثبتها وعرفها بصيغة جديدة. في تعاليمه اعتدال وتوازن. كان يكيّف الشرح بالنسبة الى السامع وحاجاته. في كل الأحوال يريد أن يقنع بشتى الوسائل بأن المسيح هو الإله الإنسان الذي أعاد الإلفة بين الخالق والمخلوق بعد أن فقدت بخطيئة آدم. إنه يعترف بملء إنسانية المسيح وكامل الوهيته. هذا هو سر التجسد. هذا هو هدف يسوع الذي حققه بآلامه التي لا توصف وموته المقدس لكي يتم الإنتصار على قوة إبليس وخطيئة الإنسانية كلها.

أهمية غريغوريوس

اشتهر غريغوريوس في العالم البيزنطي حتى أنه سمّي «ديموستين» Démosthène المسيحيين. مؤلفاته أثّرت كثيرًا على الأجيال المسيحية حتى أنها اعتبرت نموذجًا للأسلوب الإنشائي المثالي. عظاته كانت قطع بلاغة في تصميمها العام وتسلسل أفكارها. اعتمد قواعد علم الخطابة عند الأقدمين وقدّمها بقالب مسيحي مستعينًا بصور وأمثال وأقوال مستقاة من الكتاب المقدس. عظمته في تواضعه وبساطته وعفويته. أما بالنسبة لمؤلفاته فهي مميزة بروعة الأسلوب والطريقة الجديدة التي تكلم فيها على الثالوث. فيقول مثلاً في خطبته الـ ٢٩: «منذ الأزل الوحدة تتحرك نحو التثنية وتنتهي عند التثليث» وفي الخطبة ٣١: ٣٣ «أتقدم على طريق هذه الحياة محاولاً بكل قواي أن أقنع الآخرين بأن يعبدوا الآب والإبن والروح القدس الهًا واحد وقوةً واحدة». صلاته صافية تنبع من أعماقه جياشة كعواطفه، صادقة صريحة يعبرّ فيها عن قلقه وحزنه ومعاناته. يخاطب المسيح وكأنه بجوّاره، يشعر بوجوده. لذلك كان يحب العزلة والخلوات لكي يستطيع أن يناجي الخالق بحريّة وصفاء. وهذا ما يفسّر فراره كلّما أوكلت إليه مهمة. لم يكن هذا هربًا من المسؤولية بقدر ما كان التجاءً

إلى أحضان الثالوث بالتأمل والصلاة. عندما يعمل في العالم يعاكس مجرى حياته أمّا في الاختلاء فيحقق ذاته ويحلّق في عالم الملائكة.

كان غريغوريوس يلزم الصمت أثناء صيامه. لنسمعه وهو ينشد للمسيح في يوم القيامة بعد أن خرج عن صمته في قصيدته الثانية:

«أيّها المسيح الاله، إسمع الآن كلمتي التي بقيت أسيرة لمدّة طويلة. أنت أوّل من سيسبّحه فمي. هذه الكلمة التي تخرج من روحي هي ذبيحة نقية يقدمها كاهن مطهر...

أنت بهاء الآب، وكلمة العقل المتسامي، كلمة تفوق كل كلمة إنسانية... نور متعال لعظمة النور، أنت الوحيد المولود، صورة الآب الأزلي ودمغته الذي لا بداية له، العظمة المتألّقة مع الروح القدس... أنت الكائن السماوي، إله كل القوات، همسة العقل، حاكم العالم، معطي الحياة... بك كل شيء وجد، أنت الذي تثبّت بانتفاضتك أساسات الكون وتضبطها، كل شيء ينفذ بحسب مشيئتك... كل الأرواح السماوية التي تنشد مجد الثالوث الساكن في السموات هي بهاء نورك...

يا أيها الذي صرت من أجلي مائتًا وولدت ثانية. أنت الكائن العظيم المنزّه عن الجسد الذي اتخذ جسدًا من أجل خطايا الانسانية.

من أجلك أحيا، من أجلك أنطق، من أجلك عقدت لساني ومن أجلك فككت عقدته فأسمعتُ كلامي... أريد أن أقدّم للعالم الدرة الثمينة، أريد أن أختار له الذهب من وسط الرمل، الوردة من بين الأشواك، حبات القمح من بين السنابل! هذه هي تقدمتي أيّها المسيح... اليوم تجدني آلة موسيقية حاضرة لتمجيدك».

وهكذا مع القديس غريغوريوس أصبح اللاهوت شعرًا من أجل التسبيح وعبادة الثالوث القدوس بأسلوب شيّق.

الفصل الرابع عشر

يوحنا الذهبي الفم

(شهيد رسالته وامانته للمسيح)

٣٤٤ ـ ٤٠٧

لقب رسميًا، منذ القرن السادس، بالذهبي الفم. إنه من أشهر آباء الكنيسة. مات شهيدًا، واستشهد الكثير من أتباعه من أجل قضيته. إنه شهيد صراحته وشجاعته، شهيد محبته لحقيقة الانجيل وحرصه على تطبيقها، شهيد حسد الأساقفة وغطرسة امرأة كانت زوجة اركاديوس الامبراطور والتي تحداها في عظاته. حياته رواية بفصول تخللتها حوادث هامّة في تاريخ الكنيسة كان هو بطلها بتدخله ومساهمته في حل مشاكل الشعب. نزاهته وقداسته وبلاغته هي العناصر التي أكسبته شهرة تجاوزت حدود الشرق وبلغت الغرب وجعلته معبود الجماهير. مارس النسك في البراري والجبال، مارس الكهنوت واعظًا ومبشّرا. دافع عن رعيته في الأزمات. أحبها حتى العشق. عاش زاهدًا في دار الأسقفية. دافع عن الحق. لم يهب الموت. أحبّ البؤساء. علمهم المسيحية. دعي ذهبيّ الفم بسبب فصاحته وجمال أسلوبه وروعة كلماته المسبوكة بالذهب، المنسكبة في قوالب متألقة، المصوغة كالحلى والجواهر. في كلامه سحر يفتن الألباب، يخترق القلوب ويحث على التغيير والاهتداء. صوته رنان يؤدّي الرسالة بحنان وتموج وأحيانًا بعنف. قال القديس نيلوس عن كلماته «إنها أشبه بنهر دفاق من الذهب الابريز». وشبهت كلماته الفيّاضة بتدفق مياه النيل. هذا الكلام كان يثير اعجاب السامعين

ويجعلهم أحيانًا يصفقون في الكنيسة. وكثيرًا ما حرّض يوحنا ابناءه على الاقلال من إظهار اعجابهم به بل بالمسيح فقط. أحب رعيته حبًّا عظيمًا. لم يستطع أن يعيش بدونها. عظاته وحواره معها كانت خبزه اليومي. إنها سبب وجوده. من هذا الجسد النحيل الضعيف كان يخرج صوت ذو نبرة قوية جبارة تصل الى القلوب وتدغدغ الافئدة. بلاغته نابعة من عبقريته. إنه موهوب في هذا المضمار، وقد كتب له معلمه الشهير ليبانوس مرةً «... بلغني خطابك اللبق الرائع. لقد عرضته على أناس متضلعين في الفصاحة فأبدوا جميعهم اعجابًا لدى قراءته... معبرّين بشتى الحركات العفوية عما ينتابهم من نشوة واستثارة. إني فخور بك لأن قواعد الفصاحة متألقة بأحلى مظاهرها في هذا الخطاب الذي جاء مثالاً يحتذى».

اصطدم يوحنا لفرط استقامته، بأساقفة لم يكتسبوا من المسيحية سوى الطلاء الخارجي. لم يتسرب نور المسيح الى داخلهم كما كانت الحال مع الذهبي الفم. فمثلاً خليفة القديس اثناسيوس على الكرسي الاسكندري، الأسقف تيوفيلوس الملقب بالفرعون المسيحي، لتجبره وظلمه وقساوة قلبه وطمعه بالمال واحتقار البشر ومراوغته وريائه، تدخل مباشرة بشؤون قديسنا العظيم وتآمر عليه وحاك الدسائس ضده. كانت مؤامراته اجرامية شيطانية. أما الأسقف الذي خلف غريغوريوس اللاهوتي على كرسي القسطنطينية والذي بقي حتى مجيء يوحنا فكان يدعى نكتاريوس، وكان قبل سيامته الأسقفية وثنيًا وموظفًا في الدولة، فما أن استعفى من مركزه حتى تلقف الأمبراطور تلك الفرصة السانحة وعمّده وجعله أسقف العاصمة، وكأنّ الأسقفية مركز من مراكز الدولة. لنتعرف على يوحنا الذهبي الفم.

من أقوال الذهبيّ الفم
عندما كان كاهن مدينة أنطاكية

من هو الراهب؟ (من كتابه «مقارنة بين الناسك والملك»).

إنّك لَتجد الراهب يحادث الأنبياء. يزيّن عقله بحكمة بولس؛ يمرّ، بدون توقّف، من صحبة موسى إلى صحبة إشعياء، ومن إشعياء إلى يوحنّا، ومن يوحنّا إلى أحد غيره... أنّنا نعرف من خبرتنا أنّ المرء يتّخذ عادات الذين يعيش معهم. وهكذا الناسك فإنه يكيّف عقله مع طريقة الرسل والأنبياء في حياتهم وتصرفهم ويتشبه بهم... يُعرَف الناسك من مواظبته على تسبيح الله والصلاة إليه. وهو، قبل صياح الديك بكثير، يرتّل الخدمة الإلهيّة برفقة الملائكة، يحاور الله ويتنعّم بالخيرات السماويّة... لباسه بسيط كما مائدته... يكتفي بلباس واحد يرتديه طوال السنة. يشرب الماء النقيّ باللذة نفسها التي يحسّ بها الآخرون عندما يشربون الخمرة الجيّدة. لا يطلب شيئًا لنفسه من الأغنياء، لا القليل ولا الكثير، ولكنّه يطلب الكثير من أجل «المعوزين» ممّا هو نافع للذي يعطي كما للّذي يأخذ. وهكذا يجعل نفسه طبيب الأغنياء والفقراء. يحرّر الأغنياء من خطاياهم بأن يجعلهم يصنعون الإحسان، ويخلّص الفقراء من بؤسهم بمساعدة الأغنياء.

يوم الجمعة العظيمة (من عظته عن الصليب واللصّ)

اليومَ ربُّنا يسوع المسيح معلّق على الصليب، ومع هذا نحتفل بعيد، لأنني أتمسّك بالقول إنّ الصليب عيد، إنّه احتفالٌ روحيّ. سابقًا كان الصليب يعني حكمًا بالإعدام، أمّا الآن فكلمة الصليب تعني فخرًا، والذي كان، قبلًا، رمزًا للظلم أصبح الآن رمزًا للخلاص.

الصليب هو، بالنسبةِ لنا، نبعُ خيراتٍ لا تُحصى: إنّه هو الذي ينشلنا من الخطأ وينير الذين في الظلام ويقرّبنا إلى الله. لقد دمّر الصليب

العداوة، أوقف الحرب، صالح مع الرب الذين كانوا غرباءَ عنه وأدخلهم في عائلتِهِ. الصليب يحمل لنا الأمن والسلام. إنه كنز كلّ الخيرات. بفضله لا نضلّ في الصحراء لأنه يرشدنا إلى الطريق الصحيح. لسنا بعد الآن خارج القصر، فها قد وجدنا الباب لندخل إليه. لن نخاف أبدًا ملامح الشيطان المشتعلة لأنّنا عثرنا على النبع الأمين. بالصليب لم نعد أرامل لأنّنا استقبلنا العريس. لم نعد نخاف الذئب لأنه اصبح لنا راعيًا حقيقيًّا. لأنّي أنا الراعي يقول الربّ. بالصليب لا نخاف الطاغية لأنّنا بجانب الملك. لهذه الأسباب نحن نحتفل بالعيد، نعيّد لذكرى الصليب.

صباح الفصح

أرأيت انتصار القيامة الساطع؟ إنها هي التي تغدق علينا كلَّ خير. إنّها تحوّل إلى العدم حِيَلَ العدوّ الشيطانيّة وتجعلنا نهزأ بالموت ونحتقر الحياة الأرضيّة، وتحثّنا على الاحتراق برغبة الحياة الأبديّة. بالقيامة، أيضًا، إذا شئنا، نجد أنفسنا، وإن كنّا لا نزال لابسين أجسادنا الترابيّة، إلاّ أنّنا نصبح في حالة متميّزة كالملائكة. اليومَ نحتفل بنصرٍ بهيّ! اليومَ ربُّنا يرفع عاليًا رمزَ الانتصارِ على الموت. لنفرحْ جميعًا. لنهلّلْ ونغتبط. ولئن كان الانتصار والفوز للربّ نفسه إلاّ أنّنا نشترك ببهجته وفرحه، لأنه من أجل خلاصنا صنع كلّ هذا. الوسائل التي استعملها الشيطان لمحاربتنا هي ذاتها التي استخدمها المسيح لكي يهزمه.

حياته

ولد في أنطاكية، وكانت تلك المدينة آنذاك من أجمل المدن. كانت مبنية على سبع تلال مطلّة على نهر العاصي، تبعد عن القسطنطينية زهاء ألف كيلومتر وعن البحر ما يقارب الثلاثين كيلومترًا. كانت مزدهرة بالعلم والثقافة الاغريقية. في القرن الرابع لقبت بمدينة الذهب «وجوهرة الشرق» و«انطاكية الجميلة». ازدانت بالاضاءة الرائعة ليلاً شيّدت فيها المدرجات الواسعة والمسابح والابنية الفخمة، وحَوَت كل ما تستطيع العواصم في ذلك العهد أن تتباهى به. في هذه المدينة دعي تلاميذ المسيح مسيحيين لأول مرة وكانوا

يدعون قبلها ناصريين أو جليليين، وفيها كرز القديسون برنابا وبطرس وبولس.

والد يوحنا كان يدعى سكوندوس Secundus وكان من كبار موظفي الامبراطورية الرومانية. أهم مصدر وثائقي يعطينا المعلومات عن حياته هو كتاب يدعى «حوار عن حياة القديس يوحنا الذهبي الفم» كتبه في روما حوالي سنة ٤٢٥ صديق للقديس يدعى بلاديوس Palladius وهو عبارة عن حوار يدور عن الذهبي الفم بين أسقف شرقي وشماس روماني يدعى تيودوروس ما بين ٤٠٧ و٤٠٨ أي تاريخ وفاة القديس الانطاكي. يجمع المؤرخون على أن تاريخ ولادته كان حوالي سنة ٣٤٤، وقد توفي والده بعد مدة وجيزة من ولادته تاركًا زوجته أرملة لا تناهز العشرين من العمر مع طفلين يوحنا وأخته. حصرت هذه الأم كل اهتمامها في تربية ولديها وكرست كل حياتها من أجل تربيتهما تربية صالحة بحسب الايمان المسيحي. يوحنا يحدثنا عن أمه كيف كانت تخبره قصة وفاة والده. «تركك والدك يتيمًا وأورثني أوصاب الترمل، تلك الأوصاب التي لا يعرفها إلا النساء اللواتي خبرنها... جابهت الشدائد والأخطار المحيطة بالترمل... فلقد حافظت على الممتلكات سالمة من كل عطب ونقصان دون أن أحرمك تنشئة متينة متألقة» (من الكتاب الأول في الدراسة حول الكهنوت). تلقى يوحنا علومًا كلاسيكية مكتملة برعاية أهم معلمي عصره منهم المعلم المشهور ليبانيوس. تميز بذكائه وتفوق في علم الفصاحة والفلسفة والبلاغة، وكان من ألمع التلاميذ. درس أيضًا الحقوق ومارس المحاماة لفترة من الزمن.

سنة ٣٧٠ عمّده الأسقف ملاتيوس ورسمه قارئًا، وكانت مدينة انطاكية آنذاك منقسمة بين أسقفين ملاتيوس وبولين، وكان الغرب يساند بولين (وكنا قد تكلمنا على هذا الانشقاق في سياق الحديث عن باسيليوس)، وأما ملاتيوس فكان يدعمه باسيليوس الكبير. بعد أن هجر يوحنا معلمه الوثني ليبانيوس تتلمذ على يد

الأسقف ملاتيوس وأعجب بفضيلته وورعه وتقواه وأحبه جدًا. كما أن الأسقف ملاتيوس أحب يوحنا الذهبي الفم لما رأى فيه من اندفاع نحو تعاليم المسيح وفضائل عظيمة ومواهب جمة فوكله إلى أشهر لاهوتي في أنطاكية هو المعلم ديودوروس ليدرس نصوص الكتاب المقدس ويتعمق بها، فتشربت روحه الفتية العبارات الكتابية وأخذ ينسج بها خطاباته فيما بعد مستشهدًا بمقاطع من العهدين القديم والجديد، وقد خفق قلبه محبة بنوع خاص بالرسول بولس وأراد أن يتشبه به.

في هذه الفترة اجتذبته الحياة النسكية، فخطط أن يعتزل في البراري مع صديق له أسمه باسيليوس غير باسيليوس الكبير طبعًا، إلا أن دموع أمه التي ذرفتها بحرارة، خاصة وأن أخته كانت قد توفيت وبقي هو وحيدًا لا تملك شيئًا في الدنيا غيره، أوقفت هذا المشروع بقولها «انتظر رحيلي من هذا العالم. قد يأتي قريبًا هذا الرحيل... ففي عمري هذا بتّ لا أتوقع غير الموت. عندما تواريني في التراب، ضامًا جثماني إلى جثمان أبيك، اذهب بعد ذلك حيثما تريد، اقلع الى البلاد النائية وعلى متن البحار التي تهواها، فلا أحد عند ذاك يقف في وجهك». عدل يوحنا عن الذهاب الى الصحراء بعد سماعه هذه الكلمات المؤثرة بيد أنه قرر أن يجلب الصحراء إليه: فانقطع عن الناس وجرّد غرفته من كل أثاث مكتفيًا بوجبة طعام واحدة في النهار قوامها الخضار المسلوقة فقط وانصرف الى الحياة التأملية ودراسة الكتاب المقدس. ولكن كلما لجّ الذهبي الفم في الانعزال ازدادت شهرته وبات الناس يتحدثون عن قداسته، حتى أنه اضطر إلى أن يهرب مرة لأن الشعب كان يطالب به بالحاح كاهنًا على المدينة. هذا الاختلاء المؤقت حرّك في قلبه حب العزلة.

بعد وفاة أمه سنة ٣٧٤ استطاع يوحنا أخيرًا أن يحقق حلمه إذ أصبح حرًا طليقًا، فولّى دون أن ينظر إلى الوراء بعد أن أمر بتوزيع أمواله الطائلة على الفقراء. عاش أربع سنين في الصحراء مع الرهبان

ثم خطا خطوة جديدة، فابتعد عن النساك وعاش وحيدًا في مغارة نائية لمدة سنتين في حياة تقشفية صارمة قاسية. عندئذ أصيب بما يشبه الشلل في فخذيه ومنيت معدته بشيء من التلف من جراء الأصوام المتتالية، فعاد أدراجه إلى أنطاكيا بعد أن قطع الأشواط البعيدة في رحاب القداسة.

وصل إلى أنطاكية وقد انجردت عظامه فبانت نافرة. ويصفه القديس ايرونيموس قائلاً: «بدا جسده هزيلاً نحيلاً وكأن عظامه تكاد تتعلق بعضها ببعض منذرة بالانفراط». ثم قرّر الانخراط في العمل الكنسي قائلاً: «ليعلم الرهبان والنساك أن أماتاتهم وتقشفاتهم تنقلب هباءً بلا جدوى إن هم لم يوجهوها من أجل البشر». ابتدأ حياته الجديدة سنة ٣٨١ بنيله السيامة الانجيلية. وفي سنة ٣٨٦ نال السيامة الكهنوتية من يد خليفة الأسقف ملاتيوس وهو الأسقف الجديد فلافيوس. فجمع حينئذٍ بين الحياة التأملية والحياة العملية وكان مملوءًا غيرة ومحبة وكان يمارس الحياة النسكية بقدر ما تسمح له صحته الضعيفة. أوكل إليه الأسقف الجديد مهمّة الوعظ في الأبرشية وكان عمره ٤٢ سنة أي في ملء قوته ونضوج عبقريته واكتمال شخصيته.

الكاهن الانطاكي

مارس لمدة ١٢ سنة هذه المهمة، مهمة واعظ الكرسي الانطاكي، ومع هذا بقي متواضعًا رغم موهبته الخارقة. يوم سيامته احتشدت الجموع لتسمع كلامه، حتى إن الوثنيين حضروا إلى القداس الاحتفالي وأخذ صوته يلعلع رنانًا، يهز المشاعر، ومما قاله في عظة سيامته: «أرى أمامي هنا هذا الحشد الغريب، هذه الجماهير المدهشة المصوبة أنظارها إلى حقارتي، كما لو كانت أشياء مرموقة ستخرج من شفتي... نذرت نفسي، وأنا أفتح لأول مرة فمي في هذه الكنيسة، على أن أقطف لله بواكير كلامي، تلك الموهبة التي أنعم بها الله علينا». ولكنه طيلة هذه السنين لم يسكر بالمجد، ولم

يتأثر بالاعجاب الذي كان يثيره فيقول: «لم أباشر عملي الروحي إرضاءً لشهوة الكلام أو لتذوّق عواصف التصفيق الحماسيّ ولكن لأقود الضالّين إلى طريق الحق».

كان يوحنا يعظ في كل كنائس انطاكية وفي الكنائس الصغيرة المكرسة للشهداء في ضواحي المدينة أثناء الخدم التي كانت تقام فيها. في أكثر الأحيان كان يعظ في الكنيسة الكبيرة التي كانت تسمى «الكنيسة الجميلة» والتي بناها قسطنطين الأول، أو في الكنيسة القديمة Paléa والتي يقال انها تعود إلى العصور الرسولية. كانت العظات تلقى عادة أيام الآحاد، أما في فترة الصوم فكانت يومية تقريبًا. هناك بعض العظات التي كانت موجهة للموعوظين فقط، أما في الأعياد أو في الظروف الاستثنائية فكان الخطيب يكلّم الرعيّة بكاملها، وكان كلامه سحرًا يتغلغل إلى الأعماق ولغته نقية دقيقة لبقة رائعة.

إلا أن حادثة عكرت هذا الجو الصافي سنة ٣٨٧ سميت بحادثة التماثيل. ذلك أن الامبرطور تيودوسيوس الأول، وهو نفسه الذي ترأس المجمع الثاني، فرض ضريبة ثقيلة الوطأة على كواهل الشعب، فوقع هول هذا النبأ وقوع الصاعقة على الشعب فأستاء وهاج وغضب ثائرًا وتوجه إلى قصر الوالي وحطم الأبواب ودخل إلى فناء الدار، وإذا بتمثال الامبراطور المرمري منتصبٌ أمامهم مع تماثيل العائلة المالكة. فما كان منهم إلا أن انقضّوا عليها وحطموها شر تحطيم. كان هذا العمل اجراميًا بنظر السلطة ويستأهل القصاص. برز هنا دور يوحنا الذي تألم مع شعبه وأراد أن يخلصه من الكارثة فصمّم خطة: أقنع الأسقف فلافيوس الشيخ بأن يتوجه إلى القسطنطينية ويواجه الامبراطور ويسترحمه من أجل شعبه محملاً إياه خطاب استعطاف من تأليفه. وبانتظار النتيجة أخذ يعزي النفوس بعظاته وينعش قلوب الرعية المحطمة اليائسة بكلمات التفاؤل ومن تعابيره التي وجهها في رسالته إلى العاهل قال:

«لا يغيبنّ عن بالك أيها الامبرطور أن المصير منوط بعاصمة العالم أجمع. إنها المدينة التي فيها تفوّه البشر لأول مرة بلفظة «مسيحي»... ذلك الاسم العذب المحبب الموفور الكرامة، انه لشرف تصبو إليه كل مدينة على الأرض فلا تناله، حتى روما نفسها تعجز عن اعتناقه» (العظة ١٧ إلى الانطاكيين).

وطلب الذهبي الفم النجدة من نساك الصحارى الذين هرولوا من الجبال الوعرة ليشتركوا في تخليص المدينة من غضب السلطة، كجيش سلام وصلاة... وأخيرًا وبعد هذا المجهود فعلت كل هذه الأساليب فعلها وتأثر الامبرطور وتفوه بكلمات الصفح، وهكذا نجت المدينة من الويلات.

رئيس أساقفة القسطنطينية

إن الأمبراطور تيودوسيوس الأول كان قد قسّم الامبرطورية الرومانية المترامية الأطراف إلى شرقية وغربية، فنصب ابنه اركاديوس على الشرقية وعاصمتها القسطنطينية وابنه الآخر هونوريوس على الغربية وعاصمتها روما. أما اركاديوس فكان في الثامنة عشرة من عمره حين اعتلى العرش وكانت شخصيته ضعيفة جدًا، وكان عاجزًا عن الادارة ولذلك فالوزير الأول اوتروبيوس هو الذي كان يتسلم زمام الحكم فعليًا مكان الامبرطور الجديد. وجد اوتروبيوس أنه من المفيد ان يؤتى بالذهبي الفم كرئيس أساقفة على القسطنطينية وهلل اركاديوس لهذه الفكرة إذ فكر في أنه سيلقى في شخصية الأسقف الجديد دعامة لا يستهان بها. ولئلا يثور الشعب الانطاكي المحب لكاهنه، لجأت السلطة الى حيلة اختطف بها يوحنا بعربة وذهبوا به إلى العاصمة. سيم الذهبي الفم اسقفًا في السادس والعشرين من شباط سنة ٣٩٨ وجرت حفلة التنصيب بأبهة وجلال وترأس حفلة السيامة المطران تيوفيلوس الاسكندري الذي أخفى خيبة أمله بمهارة. كان بودّه طبعًا أن يعين أحد أتباعه على هذا المنصب البارز.

وأخذ يعدّ العدّة سرًا ليتخلّص من هذا المنافس المزعج، منتظرًا الفرصة لكي يغتنمها ويبعد يوحنا عن العاصمة. هذه الفرصة لم تتأخر بسبب حماس أسقفنا البطل الذي ما إنْ تسلّم مهامّه حتى بدأ يصحح التجاوزات التي تسربت إلى الكنيسة من جراء ممارسات سلفه:

١ - ألغى كل وسائل الترف في قصره الأسقفي وتخلص من الأثاث الفاخر والخدم والطباخين.
٢ - وقف بالمرصاد أمام الأكليريكيين الذين كانوا يستفيدون من سخاء الأغنياء لمصلحتهم الشخصية بدل أن يوزعوا الهبات على الفقراء.
٣ - منع العذارى والشماسات من أن يسكنّ مع رجال الأكليروس من أجل خدمتهم وذلك بسبب أخطار هذا التصرف على العفة والأخلاق.
٤ - فرض على الأرامل تصرفًا مثاليًا وشجعهنّ على العمل في حقل الكنيسة مع المحافظة على الحشمة واللياقة. أشهر اولئك الأرامل اللواتي طبقن أقوال الذهبي الفم كانت اولمبيا التي وزعت كل أموالها في خدمة الكنيسة ونذرت حياتها للمسيح. أما اللواتي رفضن هذه النصائح فكن ثلاث سيدات من حاشية الامبرطورة اودوكسيا، فثار ثائرهن وحقدن عليه وتحالفن مع كل الناقمين على الاسقف الجديد وأشهرهم الأسقف اكاكيوس الذي استقبله يوحنا في غرفة متواضعة فأستشاط غيظًا وأمسك بحقيبته وولّى مصممًا لوسائل الانتقام.

أما الامبرطورة اودوكسيا الفاتنة المنظر والتي كانت من أب جرماني وثني في خدمة الجيش، فكانت تقية في بداية العهد، انضمت الى مسيرات الصلاة فخورة بالدين الجديد الذي اعتنقته، فسرّ الذهبي الفم من بادرتها وأعلى شأنها معددًا خصالها الحميدة وحثها على الأعمال الخيرية فاستجابت. ولكن محبتها للسلطة تغلبت على تقواها

وجعلتها تغتنم الفرصة للتخلص من الوزير المتسلط لتأخذ مكانه، وحينئذ تغيرت تصرفاتها بالنسبة للذهبي الفم.

سقوط اوتروبيوس

عزم اتروبيوس على تجريد الكنائس من حق اللجوء اليها فالتفت الذهبي الفم عندئذ الى الملكة يسألها الدعم، فتلقفت هذه الفرصة وكأنها فرصة العمر لتتخلص من وطأة اتروبيوس! وإثر حادثة سياسية أقنعت اودوكسيا زوجها بالتوقيع على تجريد اوتروبيوس من كل صلاحياته وبالقبض عليه وضرب عنقه. ولكنه أدرك الأمر فانسلّ من القصر واستطاع الفرار ولجأ الى الكنيسة.

فقال له يوحنا عندما واجهه: «كيف أستطيع حمايتك وأنت أبطلت بمرسوم حق اللجوء الى الكنائس؟!» ولكن رغم هذا، تحنن عليه واستبقاه في الكنيسة، مما أثار غضب الامبرطورة فبردت منذ ذلك الحين العلاقة بين الأسقف والبلاط. بقي اوتروبيوس على قيد الحياة داخل الكنيسة وألقى يوحنا عظة رائعة حول التوبة وزوال الأملاك الدنيوية، وأعطى للرعية دروسًا أخلاقية أمام اوتروبيوس راكعًا متواضعًا، كيف أنه كان في ذروة المجد فهوى إلى أسفل درك قائلاً: «باطل الأباطيل وكل شيء باطل»! ولكن لم تحم الكنيسة اوتروبيوس لمدة طويلة ولم يبق الوزير طويلاً على قيد الحياة فلجأت اودوكسيا الى حيلة أخرجته من المعبد وأمرت بقطع رأسه بعيدًا عن العاصمة.

الاخوان الطوال

تابع الذهبي الفم عمله بنشاط وجدية وكانت عظاته جميلة ساحره زادت من إعجاب جمهوره الذي كان يزداد يومًا بعد يوم. وكان يتهجم على الأغنياء والبخلاء وتهجم على الأمبراطورة نفسها بشجاعة فكثر الناقمون عليه. وأثناء غيابه مرة استفاد أعداؤه من

تدبير المكائد ولكنها فشلت واخفقت المؤامرة. ولكن تيوفيلوس الإسكندري لم يبق مكتوف الأيدي فاتخذ الإخوة الطوال ذريعة لمحاربة الذهبي الفم.

من هم هؤلاء الإخوة؟ إنهم نساك عاشوا في صحراء مصر، طوال القامة يلبسون جلود الخراف ويعيشون حياة تقشف واماتة وصلاة وتأمل. طمع تيوفيلوس بقداستهم وأراد أن يسيمهم أساقفة، ففوجىء من قبلهم بالصد والتمنع. فلجأ الى العنف وأسلمهم الى التعذيب. إلا أنهم تمكنوا من الفرار مع مجموعة نساك من صحراء نيتريا ولجأوا الى القسطنطينية عند أسقفها القديس. كان تيوفيلوس قد اتهمهم بهرطقة وقال أنهم ينتمون الى المذهب الأوريجني (وهو مذهب يحوّر تعاليم أوريجنس وينحرف عنها) استقبلهم يوحنّا ولم ير في معتقداتهم شيئًا مخالفًا للإيمان مع أنه لم يقبلهم في شركة المناولة احترامًا لتيوفيلوس ولم يقبل منهم الشكاوى ضده. أما تيوفيلوس فأرسل القديس أبيفانيوس الشهير الى العاصمة ليتأكد من صحة تعاليم الإخوة النساك وحتى أنه القى التهمة بالهرطقة على الذهبي الفم ذاته! أما القديس أبيفانيوس فاكتشف الحقيقة ووجد نفسه واقعًا في مؤامرة بشعة فآثر الهرب عبر البحار.

انتهت العملية بتدخل الأمبراطورة وتقلبت الأحوال وتبدلت الأمور حتى أنه عندما أتى تيوفيلوس الى القسطنطينية اتى كالمنتصر وعوض أن يحاكم لإساءته للرهبان وجد نفسه حاكمًا ديانًا فجمع بسرعة أساقفة في قصر السنديانة بمباركة السلطة وانقلبت الأمور رأسًا على عقب نسيت مشكلة الإخوة الرهبان وحوكم الذهبي الفم غيابيًا أما الإتهامات الموجهة ضده فكانت تافهة فمثلاً اتهم يوحنّا بأنه كان يستحم كل يوم، ويمتص الملبس المعسول قبل أن يعظ ليحافظ على صوته الخ... مع العلم أن هذا المجمع كان مزيفًا غير قانوني!

حينئذٍ حكم على يوحنّا بالنفي ووقعّ الحكم اركاديوس، إلاّ أن هزة أرضية عنيفة حصلت بعد أن ترك الذهبي الفم المدينة فهزت

ضمير الأمبراطور وزوجته خائفين وأيقنا أن هذا تدخل السماء في قضية يوحنّا القديس. فاستدعي بالعودة وكان في طريقه الى النفي وعاد منتصرا الى رعيته.

ولكن هذا السلم لم يدم طويلاً فبعد شهرين برزت مشكلة أخرى عكرت صفو العلاقات بين الأمبراطورة والأسقف وهي قضية تمثال أودوكسيا.

تمثال أودوكسيا

الحادثة التي فجرت العداوة من جديد هي حادثة هذا التمثال الذي أرادته أودوكسيا أمام كاتدرائيّة آيا صوفيا، لاسترجاع شعبيتها إثر ملابسات مجمع قصر السنديانة وما تبعه من تقلبات. وبما أن التمرن على الإحتفال بيوم التدشين لازم أعمال البناء والنحت، فما كان يسمع أثناء إقامة الصلوات سوى الضجيج وأصوات الموسيقى والمغنيين. فارتفع صوت يوحنّا يحذّر الشعب من عبادة الأصنام واحتج على هذا الازعاج ثم قصد القصر، وشكا همه الى الوزير. علمت أودوكسيا بالأمر فغضبت وضاعفت من صخب الإحتفالات. وتهجّم حينئذٍ يوحنّا في عظاته على هذه الممارسات وشبّه أودوكسيا بهيروديا التي طلبت رأس يوحنّا المعمدان لكن على الأرجح أن هذه العظة ليست من نظم يوحنّا بل من تأليف أعدائه الذين وشوا به وفيها يقول:

«من جديد هيروديا تغضب، من جديد تحتد خنقًا، من جديد ترقص من جديد تطلب رأس يوحنّا على طبق»!

صمّمت أودوكسيا حينئذ أن تنتقم من يوحنّا نهائيًا، فاستشارت تيوفيلوس في الطريقة المناسبة فنصحها بأن يعقد مجمعًا آخر يثبت مقررات الأول سنة ٤٠٤، وحكم عليه ثانية، ولكن يوحنّا لم يمتثل لأمر المجمع فاتجه الجنود الى الكنيسة وانقضّوا على المصلين وعملت السيوف والحراب في الصدور. وفي رسالة يوحنّا الى

البابا إينوسنت Innocent يقول «احمرت مياه المعمودية المعدة لتجديد البشر بالدم البشري»، وتعالى الصراخ وركضت الجموع وفر الكثيرون من هذه المذبحة الهائلة. والقي القبض على يوحنّا وجرر بمهانة كما يجر المجرمون، وسجن في داره وكان هذا قبيل الفصح. بقي الأمر هكذا حتى بعد عيد العنصرة، وجد انه من المناسب أخيرًا أن يذهب الى المنفى خوفًا من مذبحة أخرى.

النفي

نعرف الكثير عن فترة نفيه بواسطة الرسائل التي كتبها بمعظمها أثناء هذه المرحلة الأليمة. وكانت هذه الرسائل مختصرة تحكي عن عذاباته وتثبت عزائم أصحابه وتعطي التوجيهات لرجال الكنيسة لمصلحة الكنيسة. يتكلم فيها عن الألم ويمجد نتيجته الخلاصية المقدسة للإنسان. أما فيما يختص بمعاناته فلخصها البابا Innocent نفسه في رسالة وجهها الى الذهبي الفم قائلاً: «لست بحاجة، أنت معلم الشعوب، وراعيهم أن نذكرك بأن الرجال المتفوقين بالفضيلة هم أكثر عرضة من غيرهم للمحن». الغرب كله بات يدعم الذهبي الفم وكذلك هونوريوس الذي كتب لأخيه يستحثه على إنصاف أسقف القسطنطينية.

سار الذهبي الفم إذن محفوفًا بالجنود سيرًا على القدمين باتجاه مدينة نيقيا الى منقع العذاب بعيدًا عن القسطنطينية، حيث هبت النيران بعد ذهابه والتهمت جزءًا كبيرًا من القسطنطينية واتُّهم أتباع يوحنّا بإشعالها. . . وابتدأ الاستنطاق والتعذيب بدءًا من الشمامسة والكهنة مرورًا بالشماسات وأفراد الشعب الوفي لأسقفه. أما الجنود الذين رافقوا يوحنّا فبعد أن ظلموه لفترة شعروا بقداسته فتغيرت معاملتهم له وفي مقدمتهم الضابطان أناطوليوس وتيودوروس، وأضحوا أصدقاء محبين، مّما شكّل بلسمًا لجروحه. إلاّ أن الحزن راح يمتلك قلبه بسبب أنباء القسطنطينية والمجزرة المستمرة، وكتب

متهجمًا على الأسقف الجديد الذي خلفه ناعتًا إياه بالزاني «لأنه سلبني الكنيسة المزفوفة التي أنا عروسها».

وعندما وصل الموكب الى نيقيا ظنّ أن هذه المحطة هي نهاية المطاف فانتعش يوحنّا بمناخها وأحس بالحيوية تدب في عروقه ولكن سرعان ما خاب أمله عندما أخبر بأن الأمبراطور أمر بنفيه الى مكان أبعد الى كوكوزا في أرمينيا الصغرى. وتابع موكب الموت مسيرته تحت حرارة الشمس التي تصب نيرانها المحرقة والهواء المشبع بالغبار والظمأ ينشف حلقه والجوع يمزّق أحشاءه. وتوقف الموكب اثناء هذه المسيرة في محطة ملأت قلبه فرحًا وهي مقاطعة الكبادوكيا موطن باسيليوس القديس، فتسارع الأهلون الى لقائه قائلين أنه لأيسر لنا أن نرى الشمس مجردة من أشعتها من أن تقع أنظارنا على فم يوحنّا مرغمًا على الصمت.

وبعد سبعين يومًا من السير المستديم وصل القديس أخيرًا الى مقر نفيه في كوكوزا، حيث تألم من المناخ القاسي والحرمان وهجمات اللصوص. وبقي هكذا لا شيء يغيّر حالته لا احتجاجات مواليه، ولا موت أودوكسيا بعد عذابات وألم في إحشائها لا يوصف. كتب يوحنّا من منفاه الى البابا Innocent متوسلاً اليه لكي يعقد مجمعًا ليصلح الظلم الذي وقع فيه فحاول البابا إثر هذه الرسالة أن يعقد مجمعًا في تسالونيكيا فلم يوفق! ولكنه قطع الشركة مع تيوفيليوس أسقف الاسكندرية والأسقف البديل في القسطنطينية.

أمّا أعداء يوحنّا فباتوا قلقين طالما هو باق على قيد الحياة، فطلبوا من أركاديوس أن ينفيه الى أبعد مكان ممكن فوافق وأرسله الى أقدام جبال الكوكاز. وكان سائرًا في طريقه الى منفاه الجديد فتوقف الوفد نظرًا لارهاق يوحنا بالقرب من كنيسة صغيرة في جوار مدينة كومانا وهي كنيسة بإسم الشهيد بازيليكوس Basilicos فتراءى له هذا الأخير في الحلم وقال له «لا تخف أيها الأخ يوحنّا فغدًا نكون معًا».

وأيقظ الجنود يوحنّا في الساعة الرابعة صباحًا لمتابعة المسيرة فاستمهلهم حتى انبلاج الصباح قائلاً أنه يريد أن يقضي نحبه داخل الكنيسة، فضحكوا منه ولكنّهم عندما رأوا أنه مرهق فعلاً وأنه يجرر خطواته وأن التعب ظاهر عليه، عادوا به الى الكنيسة قبل أن يهوى على الأرض. فخلع عنه ثيابه وطلب أن تعطى للفقراء ولم يبق عليه سوى قميص أبيض فتمدد على الأرض وتحركت شفاه وهمست.

«المجد لله في كل شيء آمين»، وأسلم الروح، فدفنه كاهن الكنيسة، وكان هذا اليوم عيد رفع الصليب الكريم في ١٤ ايلول السنة ٤٠٧.

فيما بعد أي في السنة ٤٣٨ يوم كان بروكلس أسقفًا على القسطنطينية وهو تلميذ ليوحنّا، في السابع والعشرين من كانون الثاني نقلت رفات يوحنّا من كومانا الى القسطنطينية وسط احتفال عظيم فيما الشعب كلّه يهتف «أيها القديس، يوحنّا، يا أسقفنا الحبيب إجلس على الكرسي الأسقفي وأسمعنا كلماتك الدرية من فمك الذهبي». وكان الأمبراطور تيودوسيوس الثاني إبن أركاديوس راكعًا على الأرض يصلي ويذرف الدموع.

الكنيسة تعيد للذهبي الفم في ١٣ تشرين الثاني لداعي اتفاق يوم وفاته مع عيد الصليب ربما اختارت هذا التاريخ لأنه تاريخ اليوم الذي استدعي فيه من المنفى في المرة الأولى وأطل على العاصمة المبتهجة بعودته وكان هذا بعد الهزة الأرضية العنيفة التي صدمت المنطقة. وتعيّد له أيضًا في ٣٠ كانون الثاني مع الثلاثة أقمار، وترتل هاتفة في يوم عيده:

«لقد أشرقت النعمة من فمك مثل النار، فأنارت المسكونة ووضعت للعالم كنوز عدم محبة الفضة، وأظهرت لنا سموّ الإتضاع. فيما أيها الأب المؤدّب بأقواله، يوحنّا الذهبي الفم، تشفّع الى الكلمة المسيح الإله أن يخلص نفوسنا».

مؤلفات يوحنّا الذهبي الفم

ليوحنّا مؤلفات واسعة في شتّى المواضيع.

١ ـ في موضوع الحياة الرهبانية

ـ رسالتان الى تيودوريوس صديقه الذي عاد الى العالم بعد أن قضى فترة في الحياة الرهبانية.
ـ كتابان عن التوبة يقول فيهما أن التوبة هي قلب الحياة الروحية متمثلاً بداود النبيّ وبولس الرسول.
ـ ثلاثة كتب ضد أعداء الحياة النسكية موجهة الى الأهل الذين يعارضون أبناءهم في الإلتحاق بالأديرة.
ـ كتاب في المقارنة بين الملك والراهب. يشبّه العظمة والغنى والجاه التي تتوّج الملك بعظمة الراهب الذي يكرس حياته للفضيلة والفلسفة الحقيقية، أي التأمل والحياة الداخلية، ويفضل طبعًا حياة الناسك على حياة الملك.

٢ ـ دراسة حول الكهنوت

هو من أشهر كتب الذهبي الفم وكان شماسًا عندما ألفه. يظهر فيه عظمة الكاهن ونبل الكهنوت، يحذره من الأخطار التي قد يمر بها ويطيل الحديث عن الفضائل التي ينبغي أن يتحلّى بها الكاهن منها الصبر والعفة والفقر والتأني الكبير في المعاملة مع الأرامل والعذارى. ثم يشدد على أهمية الكلمة الفعالة التي تشفي النفوس وتصحح الأرواح والسيرة الحسنة التي ترافقها وينصح باحتقار المدائح الناجمة عن الرعية المعجبة بخصال الراعي. ثم يتابع قائلاً: «إن الكاهن معرّض للتجارب أكثر من الراهب ولذلك ينبغي أن يكون متحفظًا مع النساء». وينهي يوحنّا الكتاب بلوحة رائعة عن النضال الروحي من أجل بلوغ القداسة.

٣ ـ مؤلفات منّوعة حول التربية والعفة:

ـ كتاب عن الأمجاد الباطلة وتربية الأولاد.
ـ كتاب عن البتولية يتكلّم فيه على الزواج والبتولية.
ـ كتيب الى أرملة شابة يعطيها النصائح.
ـ مقال في الإستمرار في الترمل، ولا ينصح الأرامل بزواج ثان.
ـ مقالات في النظام الإكليريكي.

٤ ـ مؤلفات في الدفاع عن الدين وبحث في العناية الإلهية.

٥ ـ رسائل متنوعة ومتعددة (تاريخية ـ للتعزية، منها ١٧ الى أولمبيا ـ ولسائر المناسبات).

عظاته

إنها منوعة فمنها العظات ومنها الميامر التعليمية. العظات هي على ستة أنواع، العظات في المناسبات، ضد الهرطقات، عظات أخلاقية، عظات بمناسبة الأعياد، عظات في مدح القديسين، عظات حول مقاطع الكتاب المقدّس.

الميامر هي دراسات مكتملة لكتب من العهد القديم والعهد الجديد. في العهد القديم: التكوين ـ صموئيل ـ داود النبي وشاول ـ المزامير ـ الأنبياء أشهرها شرح كتاب أشعيا.

شرح لإنجيل متّى بكامله ـ شرح لإنجيل يوحنّا بكامله ثم شرح كتاب أعمال الرسل ورسائل بولس.

أهمية الذهبي الفم

يوحنّا هو من سلسلة هؤلاء العظام الذينَ تَسمّوا بهذا الإسم الغني بالمعاني «الله تحنن». لا شك بأن الرب رحمنا عندما أرسل الينا

يوحنّا المعمدان السابق ويوحنّا الحبيب المتكىء على صدر السيد مرورًا بقديسنا العظيم ومن بعده الدمشقي المدافع عن الأيقونات والسلمي الكوكب المتلالىء مؤلف سلم الفضائل وغيرهم. يوحنّا قديس عظيم ولا بدّ للقديسين أن يتألموا وأن يصلبوا على مثال سيدهم. إنه أب للكنيسة أحبها حتى العشق، حتى الإستشهاد. إنه من جملة الآباء الذين نبتوا كالزهور العطرة بين أشواك البدع وبراثن الوثنية لكي يثبّتوا مسيرة الكنيسة، كالمشاعل المنيرة ليضيئوا لها الطريق. القداسة هي فلسفة يوحنّا الحقيقية، والكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد لأفكاره. طريقته في شرح الكتاب المقدس رائعة. عندما يتأمل بنصوصه يبدع. يلجأ الى الصور والتشابيه مظهرًا معانيَ مخفية لا تخطر على بال أحد. يعطي حياةً للكلمات. يجعلها تتحرك أمامنا وتتطاير من الصفحات لتصل الى السامع. مخيلته غنية، باهرة، خصبة، ملّونة، تضفي على عباراته بريقًا وتنوعًا وقوةً وروعة. إنه الخطيب بكل معنى الكلمة. العلم نمّى موهبته ولكنّه لم يخلقها. زد على ذلك العاطفة الجياشة التي ترافق كل ما يقوله فتزيد كل تعابيره حرارة وتجعلها مخترقة الى الصميم.

يوحنّا هو رسول المحبة، تكلم على العطاء وحارب البخل في عظته حول الغني ولعازر الفقير. يحثّ الأغنياء على العطاء ولكنّه لا يحرّض الفقراء على الثورة. يريد العدالة الإجتماعية بواسطة المحبة: «من يعطي الفقراء فهو يعطي الله» على حدّ قوله. إنه مصحح أخلاقي حارب الرذائل والظلم ولذلك واجه معارضة قوية حطمته. لم يتراجع أمام هذه المبادرة الشجاعة وإن سببّت له الكثير من المخاطر. إنه مؤلف القداس الإلهي وكاتبه. يركّز على الذبيحة الإلهية قائلاً أن المسيح «جعل نفسه يتحول الى فتات خبز لكي يشبعنا».

عندما ودّعه أحد الأساقفة قال له: «إذا بكينا فلأننا نرى أنفسنا من بعدك يتامى والكنيسة يتيمة، وقوانينها مقلوبة رأسًا على

عقب والطمع والكفر منتصرين، والفقراء مرذولين والشعب بلا تعليم» مختصرا بذلك كل ميزات الذهبي الفم.

أما نيلوس القديس فيقول في رسالته الى أركاديوس:

«قد طردتَ الى المنفى يوحنّا السعيدَ الذكر، عمود الكنيسة ومصباح الحقيقة وبوق الله. نفيت الأسقف يوحنّا أيّها المليك، يوحنّا الأسطع ضياءً على الأرض، دون أن يخالفك أي حق في فعلتك الشنعاء هذه... ألا فكّر بنفسك! واعترف على الأقل بخطيئتك واندم بعد أن حرمت الكنيسة التعاليم الصافية المقدسة التي كانت تستقيها من الذهبي الفم».

١

BIBLIOGRAPHIE

Paul Allard, *Saint Basile*, Librairie Le Coffre Paris 1929.

H.Von Campenhausen, *Les Pères Grecs*, Les Pères Latins, éditions de L'Orante, Paris 1967.

F.Cayre, *Patrologie et Histoire de la théologie*, Société de Saint Jean l'évangéliste, Desclée et Cie. Editeurs Pontificaux, Paris - Tournai - Rome 1947.

P.Gallay, *Grégoire de Nazianze*, «Eglise d'Hier et d'aujourd'hui». Les Editions Ouvrières.

PATROLOGIE GRECQUE DE MIGNE.

J.Quasten, *Initiation aux Pères de l'Eglise*, Editions du Cerf. (4 volumes) 1963

J.M. Ronnat, *Basile Le Grand*, Les Editions Ouvrières 1955

P.P. Ver Braken, *Les Pères de l'Eglise Panorama Patristique*, Editeurs EPI 1970.

Leonard Von Matt Hans Kuner, *Les Césars*, Librairie Hachette 1965.

أسد رستم، آباء الكنيسة في القرون الثلاثة الأولى - الآباء المناضلون، منشورات النور - ١٩٦٢.

أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (ثلاثة أجزاء)، منشورات النور - ١٩٥٥.

الفهرس

المقدمة ٥
الفصل الأول: تعريف عن آباء الكنيسة ٧
الفصل الثاني: اغناطيوس الانطاكي ١٥
الفصل الثالث: ايريناوس أسقف ليون ٢٥
الفصل الرابع: اقليمس الاسكندري ٣٣
الفصل الخامس: رأي في العلاّمة أوريجانس ٤٣
الفصل السادس: لمحة عن آباء الغرب ٥٧
الفصل السابع: الشهيد كبريانس القرطاجي ٦٣
الفصل الثامن: القرن الثالث:
الاضطهادات وموجة الشهداء ٧١
الفصل التاسع: اثناسيوس الاسكندري الكبير ٨١
الفصل العاشر: القرن الرابع (لمحة تاريخية
وتنصر قسطنطين الأول ٩٧
الفصل الحادي عشر: باسيليوس الكبير ١٠٧
الفصل الثاني عشر: غريغوريوس أسقف نيصص ١٢٣
الفصل الثالث عشر: غريغوريوس اللاهوتي ١٣٧
الفصل الرابع عشر: يوحنا الذهبي الفم ١٥٥
المراجع ١٧٥
الفهرس ١٧٧